إتجاه

فكريّـــة فصليّـــة

العـدد

67

خريف 2025

إسماعيل شموط ◄

فلسطين: الأرض الطيبة (1970)

« اتجاه» فكريّة فصليّة،
المدير المسؤول: عبد الرحمن أياس
رئيس التحرير: د. علي حمية
العنوان: فرات للنشر، رأس بيروت، بيروت، لبنان. ت:00961 1 750053 – 00961 70 543166
البريد الإلكتروني: editor@ittijah.info
www.ittijah.info

Ittijah: revue culturelle trimestrielle, Rédacteur en chef: Dr. Ali Hamiyeh.
Adresse: C/O Furat Publishers, Ras Beyrouth, Beyrouth, Liban,
tel: 00961 70 543166.

اتجاه

فكريّة فصليّة
خريف 2025

محتويات العدد

توفيق أبوحيدر	كنوز أُنقذَتْ من غزة - 5000 سنة من التاريخ	3
زينة ذبيان	الذكاء العاطفي	15
إيمان عزّام	وأثره على التنمية والتربية السليمة للطفل	
براء بو حمدان		
زينة ذبيان	دراسة لمعرفة أثر التربية الايجابية والسلبية	33
إيمان عزّام	على نفسية الولد في عرمون	
تغريد ابو غنام		
زينب نصار	الابستمولوجيا النيوليبرالية تقود الإقتصاد السياسي للعلم	51
هلال درويش	التفاوض المباشر وغير المباشر بين الدول المتعادِية وصلته بالتطبيع رؤى مقارنة	87
هنادي أمين	نظرة الغرب على الشرق بين البندقية والصين رحلات ماركو بولو في العصور الوسطى" 1271 - 1295 م	105
Eliane Haddad Abi Rached	Le psychologue dans le cadre hospitalier (rôle du psychologue de liaison)	1
Zeina Zebian, Iman Azzam Salman Azzam Katya Abou Said Lama Talayeh	Nursing's role in identifying and managing fibromyalgia symptoms	15
Mireille Hajjar	L'empreinte de l'image du père de Monica Sabolo dans son autobiographie La vie Clandestine	27
Imane Azzam Zeina Zebian Nour Arabi Sana Jeha Rawan Baalbaki Nassab Azzam	Stressors and Coping Styles Among Chronic Hemodialysis Patients in Rachaiya Government and Farhat Hospitals	43
Dr Janine Ziade Abou Tacca	Développement de l'auto-perception chez les femmes adultes victimes de l'inceste au sein de l'organisation ABAAD	57

" اتجاه" مجلّة أسبوعيّة تصدر باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية، مرخّصة بموجب قرار رقم 1920 صادر عن وزارة الإعلام بتاريخ 24 آب 1995، ومعتمدة من الجامعة اللبنانية بصفتها "مجلّة بحثيّة تُعنى بشؤون فكريّة".

كنوز أُنقذَتْ من غزة - ٥٠٠٠ سنة من التاريخ

توفيق أبوحيدر

معهد العالم العربي في باريس ينظّم معرضا عن غزة بالشراكة مع وزارة السياحة والآثار الفلسطينية ومتحف الفن والتاريخ في جنيف

من تاريخ 3 أبريل إلى 2 نوفمبر 2025، خص معهد العالم العربي، الواقع على ضفاف نهر السين في باريس، معرضًا استثنائيًا للكنوز الأثرية لغزة والتي تغطي 5000 سنة لهذه المدينة عمقاً في التاريخ. هذه الجواهر القيّمة التي حفظتها لنا أرض غزة، والتي تشهد على الحضارات التي قامت وازدهرت في هذه المنطقة منذ العصور القديمة، تمكّنت من البقاء بحالٍ ممتازة رغم الإعتداء التدميري اليوم على أرض غزة، فذلك بفضل تأمينها في ملاذٍ يضمن شروط حمايتها وحفظها. فمنذ عام 2007، تولّى متحف الفن والتاريخ في جنيف دورًا فريدًا سمح لهذا الإرث الغزّاوي أن يكون بمأمن. والمجموعة الأثرية الاستثنائية هذه تضم نحو 529 قطعة تعود لرعاية السلطة الوطنية الفلسطينية. وكانت هذه القطع مخصّصة أصلاً للعرض في غزة، لكن لم يتم التمكن من تأمينها إلى الوطن الأم بسبب عدم الاستقرار المستمر والحروب المتكررة فيها.

مجموعة من 529 قطعة تتخذ مكانها، فرحاً حزيناً، في مأساة "تأمينها" في المنفى بعيداً عن وطنها الأم -غزة. وفي المنفى، في متحف الفن والتاريخ في جنيف، تتكوَّر حزناً دامياً حتى أول التاريخ، بمأساة التدمير المستمر والقتل والتجويع للإنسان في غزة.

واحة من ماضي التاريخ

بدعم علمي ولوجستي من متحف الفن والتاريخ في جنيف (MAH) وتحت إشراف السلطة الوطنية الفلسطينية، يكشف معهد العالم العربي عن مجموعة مختارة من 130 تحفة فنية تمثل أبرز القطع في هذا التراث الغني. تأتي هذه القطع في الغالب من الحفريات الأثرية الفرنسية – الفلسطينية التي انطلقت منذ ثلاثين عاماً (منذ عام 1995)، والتي مكّنت من الكشف عن شهادات مادية استثنائية لتاريخ غزة.

من بين الكنوز التي تضمّنها المعرض جراراً فخارية، مصمّمة بدقة، تشهد على ازدهار الصناعة والتجارة البحرية المكثفة التي كانت تنشط في البحر الأبيض المتوسط القديم، بالإضافة إلى تماثيل وتوابيت صغيرة من الطين تكشف عن الممارسات الدينية واليومية في هذه المدينة. كما تتضمن المجموعة المعروضة مسلات جنائزية منقوشة تحمل كتابات ورموزًا توضّح الطقوس المرتبطة بالموت والذكرى، إلى جانب مصابيح زيتية مزخرفة، وهي أدوات متواضعة لكنها كانت أساسية ترافق الحياة المنزلية اليومية والممارسات الدينية، كما تضمّ أيضًا لوحات من أرضيات وجداريات فسيفساء رائعة بنقوش هندسية وزهرية من مجموعة يعود بعضها إلى الحقبتين الرومانية والبيزنطية، بالإضافة إلى قطع لأزمنة لاحقة من الحقبتين الإسلامية والعثمانية، مما يعكس الإستمرارية التفاعلية الثقافية وغنى التأثيرات التي تعاقبت في تاريخ هذه المنطقة المحورية.

وإذ تضمّن المعرض أعمالًا فنية وتماثيل وفسيفساء فقد تضمن كذلك مخطوطات نادرة كما مجموعة من الحلي والجواهر، وكلها شاهدة على مستوى الحياة الفكرية والأدبية والفنية والتجارية وعلى غنى وتنوّع التأثيرات الثقافية، الفكرية والفنية، بمضامينها ومادتها في تتالي حقبات التاريخ فيها : المصرية، فاليونانية، فالرومانية، فالبيزنطية، فالإسلامية. ففي كل من جمال ودقة كافة المعروضات الفنية كما في أهمية وفرادة المخطوطات وقطع الجواهر واللقى النادرة، ما يكشف عن تراث عالمي غالبًا ما يغيب عن الإهتمام والرعاية الثقافيين العالميين. وإن امتداد هذه المجموعة على خط زمني مذهل بوضوحه، من العصر البرونزي في الألفية الرابعة قبل الميلاد وحتى العثماني في الألفية التاسعة عشرة بعد الميلاد وما خلالها اليوم، يجعلها مرجعاً تاريخياً لا غنى عنه لكل باحث في التاريخ الحضاري لهذه المنطقة ولتاريخ الحضارة الإنسانية في الوقت نفسه. وتزداد أهمية هذه المحفوظات أمام تدمير العديد من المواقع الأثرية الأصلية أو تعرضها لأضرار بالغة خلال العقود الأخيرة.

لم يتمكن الملاذ الذي وفره متحف جنيف فقط من حفظ اللقى الأثرية بما هي أشياء من التاريخ، بل تمكن أيضاً من حفظها بما هي وقائع إنسانية إجتماعية في التاريخ وكجزء هام من التاريخ القديم للمنطقة، وكذاكرة جماعية مهددة في الزمن المعاصر، مما حول هذه المجموعة الغزية الأثرية إلى إرث عالمي يتجاوز حدود الجغرافيا والأحداث المعاصرة فيها.

ومن بين هذه الكنوز أيضاً، تبرز فسيفساء أبو برقّة المدهشة، المتميزة بأبعادها الكبيرة وألوانها الزاهية ودقة تصويرها، والتي تُعد بمثابة بيان فني للفن البيزنطي المحلي. كما يضم المعرض مجموعة مرموقة من مجموعة جودت خضري الخاصة، التي تبرع بها بسخاء للسلطة الوطنية الفلسطينية عام 2018، وعُرضت للمرة الأولى في فرنسا، مضيفة قيمة تاريخية وإثراءً للسرد المقدم للجمهور.

الإلهة أفروديت (أو هيكاتي) التي تم اكتشافها في غزة – تصوير توفيق أبوحيدر
من العصر الهلنستي أو الروماني
تمثال أنثى ترتدي الكيتون والمعطف. تم تصوير المرأة واقفة ومتكئة على عمود
وهي تحمل طفلا صغيرا

ولذلك، فمن خلال استضافة هذا المعرض، يسعى متحف معهد العالم العربي إلى تقديم فسحة ثقافية وتراثية الهدف منها ليس فقط تسليط الضوء على آثار نادرة وغنية وعميقة في التاريخ، بل أيضًا تذكيراً لزائريه بأن خلف كل قطعة هناك إرث يستحق الحفظ والدراسة والحماية والنقل المعرفي بها، مادة ومضموناً وتوثيقاً تاريخياً، للقادم من التاريخ وللأجيال القادمة ولمن يهتم بدراسة التاريخ الإنساني وثقافاته. لذلك أيضاً، تقدّم هذه الفعالية رمزًا للمقاومة ضد الإعتداء على التاريخ، وفي الوقت نفسه دعوة للأمل بالاستمرارية لثقافات الشعوب مهما ازدادت ومصاعبها. فمن قلب التحديات التي واجهتها غزة — وما تزال — فإن توهج حياتها يستمر، والقيم الجميلة لإبداعاتها تستمر حاملة في الوقت نفسه رسالة عالمية وإرثاً يحكي الصمود والكرامة الإنسانية في استمرارية وجودها — صموداً — كما في الحفاظ على الإرث المادي لمتبقياتها.

غزة : مدينة على مفترق الحضارات

تاريخياً، منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد، كان مولدها وتكونها مع العصر البرونزي في حضارات كنعان ووادي الرافدين. هي غزة العصر نفسها التي ظهرت كمدينة في الألفية الرابعة قبل الميلاد، وبرزت منذ العصور القديمة كواحدة من المراكز التجارية الكبرى التي تربط الشرق بالغرب. فموقعها الجغرافي المتميز جعلها مسرحًا لا مفر منه ومصدرًا للثروة والنفوذ في محيطها الحضاري.وفي سياق التاريخ استمرت في ازدهارها و حيويتها. لكن هذا الازدهار كان السبب الأساسي لاجتذاب الشهوات عند الطامعين. فقد قاتلت الممالك المجاورة والقوى الأجنبية من أجل هذه الأرض الاستراتيجية. ومن هناك ولدت صراعات شديدة الذروة، ولا تزال ذكرياتها محفوظة في قصص المؤلفين القدماء.

فعلى مفترق الطرق بين مصر والشام، ازدهرت غزة ازدهاراً هاماً، وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أصبحت في وقت مبكر جدًا واحدة من المدن الرئيسية في فلسطين على الشاطيء الكنعاني. وعلى مر القرون، تعاقبت الحضارات المختلفة وتفاعلت في هذه المنطقة، تاركة بصمات عميقة في تراثها المادي والروحي في التجارة والعمارة والثقافة. ومن الجدير بالذكر هنا، وجود آثار معمارية وفنون فسيفساء وتماثيل تشهد على هذه الحيوية الثقافية والتجارية. أما في العصر الكلاسيكي، ثم العصور الوسطى، فقد بقيت غزة مدينة منتجة ومزدهرة وموقعاً استراتيجياً كمدينة عبور لا مفر منها، وقد تم إدراجها على التوالي في مباحث التاريخ ضمن المجموعات الثقافية والتجارية الكبرى إقليمياً وعلى مستوى عالم المتوسط في تتالي حقبات التاريخ. وإن موقعها البحري والزراعي في آن معاً جعلها مركزًا تجارياً زراعيًا وبحرياً مزدهرًا، ومحطة أساسية على طرق القوافل التي تربط أفريقيا وآسيا بموقعها على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط منفتحة على غربه. وما كشف عنه حتى الآن — من فسيفساء وخزف وعملات وقطع معمارية — لا يمثل سوى جزء ضئيل مما تختزنه أرض غزة في أعماقها. غير أن الحروب وعدم الإستقرار السياسي، وغياب الظروف الملائمة قد قضت في معظم الأحيان على أية إمكانية للتنقيب المنتظم كما أن العقود الماضية لم تتح الفرصة ولا الوسائل الضرورية للكشف عن جميع كنوز غزة وإظهارها إلى العلن.

وجغرافياً، يمتد قطاع غزة على مساحة 363 كيلومتراً مربعاً، جيباً خصيباً لفلسطين على المتوسط، تحده مصر من الجنوب، منفتحاً على بلاد الشام من الشمال والشرق.. وقد استفاد هذا السهل الساحلي، على الرغم من مناخه الجاف، من خصوبة تربته ووجود منسوب للمياه الجوفية يساعد على التنمية الزراعية. وهكذا أصبحت واحة غزة بموقعها

الجغرافي البحري الهام على مدى آلاف السنين مدينة رمزية للشرق الأدنى القديم، على مفترق طرق لجغرافيات ولحضارات عدة.

فهذه المنطقة، عند ملتقى الحضارات، تشهد على استمرارية تاريخية متواصلة منذ العصر البرونزي في الألف الرابعة ق.م.، كانت غزة واحة معروفة برفاهية العيش وخصوبة الأرض، كما كانت مطمعًا للغزاة بموقعها الاستراتيجي في قلب التنافس في قلب العالم القديم من جهة وما بين الإمبراطوريات المصرية والفارسية واليونانية والرومانية من جهة أخرى. وكانت غزة بمثابة محطة للقوافل، ومخزن لا غنى عنه على طرق التجارة بين الشرق والجزيرة العربية وأفريقيا والبحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى كونها ميناءً مزدهرًا لتجارة التوابل والأقمشة والنبيذ وغير ذلك من الثروات.

بحثاً عن التراث لمواجهة الاندثار

ظلّت كنوز غزة مطمورة لأزمان بعيدة، تكتنف ألفيّات بعيدة في التاريخ بتقلبات أحداثها. إلى أن عاودت الظهور إلى العلن بعد نبشها من باطن الأرض وطبقات التاريخ وحقباته لتنتمي إلى الذاكرة التاريخية – الثقافية العالمية وتذكّر بأن غزة كانت، قبل العصور الحديثة، ملتقىً إنسانياً عامراً بالحياة الحضارية وتفاعل ثقافاتها. فموقعها الجغرافي الذي يربط بين قارتي أفريقيا وآسيا، كان معبراً لجميع أنواع التبادل الحياتي، إن على الصعيد التجاري، أو الثقافي، واللغوي، وغير ذلك. تنعكس كثافة اللقى التاريخية لهذه الأرض في تنوّع المواقع الأثرية، التي

تشمل المعابد والمقابر والمدن القديمة والفيلات المزخرفة بالفسيفساء، حيث يروي كل أثر جانبًا من ماضٍ غني، يمزج بين الخصوصية الثقافية المحلية والتأثيرات الخارجية.

أضف الى ذلك، إطلالة المدينة وجوارها على البحر الأبيض المتوسط، الذي كان جامعاً بين حضارات العالم القديم في تلك الأزمنة. فغزة التي نراها اليوم — غزة التي تتعرض اليوم للإبادة الجماعية والدمار والتجويع والإفقار والعزل — لم تَعُد تشبه المدينة التاريخية التي نعرفها بما هي عليه في الماضي من التاريخ. ولأن غزة تبقى فيها صفاتها ومكنوناتها بذاتها بما هي، قام معهد العالم العربي بتنظيم هذا المعرض وفي هذه المرحلة بالذات. وما يؤكده اليوم علماء الآثار الأحرار أنّه تحت أنقاضها وجوعها وعطشها ومبانيها المدمّرة وعزلها يكمن تراث إنساني ذو قيمة استثنائية، هو حصيلة آلاف السنين من الحضارات المتعاقبة التي مرّت بها، لذا هي مدينة لا تموت.

ولهذا، فللمعرض أهمية بالغة من حيث الرمز والمضمون. وعلى الرغم أنّه لا يعدو أن يكون أكثر من لفتة ضئيلة أمام حجم المأساة الإنسانية التي تُعاش اليوم في غزة، إلا أنه يفتح كوّة على عظمة غزة ودورها في التاريخ الإنساني وموقعها في تاريخ العالم القديم. إنّه يذكّرنا أنّ ما يحصل اليوم من افتعال صنوف الموت اعتداءً على غزة إنما هو اعتداء على مدينةً عالمية ومدينة للإنسانية، وأنها كانت يومًا مدينة حياة وملتقى حضارات، ومكانًا للتبادل الحياتي والمعرفي، ومدينةً مشرقة التقت فيها طرق القوافل ومراكب التجار ومعارف العلماء. إنها نافذة متواضعة، تتيح رؤية ما لدينا من ماضي غزة الوافر المجيد.

وإذ تسلط هذه الفعالية الثقافية الضوء على جانب قليل من تاريخ غزة فإنها، بالتالي، تسلط الضوء على جزئية هامة من تاريخ العالم القديم، وهو الماضي المرموق المضيء لغزة، الذي غالبًا ما يُختزل في الذاكرة الجماعية أمام هول الأحداث المعاصرة المتسارعة في التاريخ العالمي المعاصر وظلمه وظلاميته. وهكذا، يصبح المعرض شاهدًا على كنز لا يُقدّر بثمن، ليس فقط لجمال اللقى الأثرية المعروضة، بل أيضًا لعمق السرد التاريخي الذي تحمله: قصة شعب وأرض، عابرة للتقابل والتحوّل، لا تزال تثير أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل وتثير المشاعر الإنسانية غضباً مما يجري في غزة وقلقاً على الإنسانية في ما يجري في غزة.

تجوال تاريخي عبر المعرض

من المهم جدًا التذكير بأن الكائنات البشرية تأتي إلى العالم وتذهب، ولا تترك وراءها سوى نوعين من الآثار التي تشهد على مرورها: فمن جهة، ما لم ينجزوه - أي النسيان

الذي ينتهي بابتلاع وجودهم؛ ومن جهة أخرى، ما أنجزوه بالفعل، فيصبح ذاكرةً وإرثًا. على الصعيد الفردي، يمكن أن نفكر في كل أولئك الأبطال الذين يعبر اسمهم القرون ويستمر في الإقامة داخل الذاكرة الجماعية لمجتمع ما. سواء تعلق الأمر بشخصيات تاريخية، أو مفكرين، أو قادة عسكريين، أو فنانين، أو علماء، فإن أعمالهم أو إنجازاتهم قد انتشلتهم من النسيان فبقوا. ولعل ذكرهم لا يفتقر فقط على كتب التاريخ، بل تبقى ذكراهم أيضًا في الحكايات المتناقلة من جيل إلى جيل، وفي القيم التي جسدوها، وفي المخيال الجمعي الذي غذّوه. أما على الصعيد الجماعي، أي على مستوى المجتمعات أو الحضارات بأكملها، فالوضع مختلف. فالقبائل والقرى والمدن والملوك والإمبراطوريات جميعها قد تنتهي بدورها إلى الزوال. ومع ذلك، يبقى دائمًا ما يحكي وجودها: آثارها، معمارها وأدوات حياتها اليومية،وفنها وأدبها وابتكاراتها. وهذه الشهادات المادية تصبح أبلغ العلامات على مرورها الواقعي في التاريخ، إذ تشكل توثيقاً مادياً لما حدث في التاريخ، حتى وإن اندثرت كتاباتها أو لغتها. وهكذا، سواء تعلق الأمر بالفرد أو بالمجتمع، فإن الآثار تقوم على ما تم إنجازه فعليًا وما تم بناؤه. وبموثقات الفن والكتابة يبقى ماتم التفكير فيه أو إبداعه أو نقله. فبالفعل وتوثيقاته — بكل وسائله — ينجو الإنسان وحضاراته من الاندثار، تاركاً للأجيال القادمة دلائل على ما كان عليه في زمان ما وفي جغرافيا ما وعلى الدور التي شغله في التاريخ.

ولذلك، حين تضع قدميك في المعرض، يبدو لك للوهلة الأولى، بأنك تدخل في التاريخ. يتجول الحاضر، مغموراً بالدهشة، بعينين مفتوحتين على الماضي. يمتدّ النظر ليغطي مشهديةً واسعة تشمل الصالة العلوية للمعرض. كل شيء يتوقف للحظة أمام هذه القطع في المنفى. أشعر بما يمكن تسميته تماثلًا مع الحجر، تلك اللحظة الفريدة التي يصبح فيها المرء شاهدًا صامتًا من الحجر، هو هذا الماضي في حجر منفي والماضي الحجري هو في المنفى. المكان ساحر؛ تظهر بقايا من العمارة، وفسيفساء بألوان ما زالت نابضة رغم الزمن، وتماثيل للآلهة مجمّدة في أبديتها. هذه الآثار تحكي قصة أرض ملتقى الحضارات. هنا ترى غزة، مركز تداول للتجارة والثقافات، حيث تلاقحت الطرق والمصائر.
الطابق الأول يبدو كرحلة عبر الأصول: جرار نحيلة، مصابيح زيتية مسودّة، تماثيل صغيرة جدًا لكنها تحمل صدى حياة يومية صاخبة. تتحدث القطع الأثرية عن نفسها صمتاً، كما لو كانت أدبياتها تخشى أن تخدش رقة الموسيقى المختارة المرافقة بعناية.
في الطابق الثاني، يتغير الضوء. هو أكثر وقارًا، ويكاد يكون تأمليًا، يسلط الضوء على المسلات الجنائزية والفسيفساء الأكبر حجمًا. هنا، يتغير إيقاع الزمن بين رقي جمالياته

وثقل اندثاره والتوحد بالأرض التي حضنته ليتحول تاريخاً لوطن فيصبح إيقاعاً واحداً : إيقاع حب البقاء — إيقاع العودة.

تكتمل هذه المساحة من معرض معهد العالم العربي في باريس لكنوز غزة بعرض صور فوتوغرافية نادرة لغزة في بداية القرن العشرين، مأخوذة من مجموعة المدرسة الكتابية والآثارية الفرنسية في القدس. هذه الصور، التي تحمل قيمة وثائقية هائلة، تقدم تناقضًا ملفتًا: فهي تظهر مدينة لا تزال سليمة، حية، مفتوحة على العالم، شاهدة وفاعلة في تاريخ منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وبذلك، يصبح وجود غزة في هذا المكان، لقيات أثرية بعمر خمسة آلاف سنة من عمرها، عمل مقاومة ثقافي بكل ما للكلمة من معنى: شهادة مُهداة للعالم، إرث إنساني يرفض الاندثار. أمشي بين كل هؤلاء الشهود الثابتين، مدركًا أنني أشهد استمرارًا وديمومة لغزة في كل مكان.

ترتفع الموسيقى، رقيقة ومعبرة، كما للتذكير بلحظة التأمل: اليوم كل شيء هشّ، لكن في ديمومة الحياة كل شيء يستمر والحياة لواقع غزة في التاريخ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. في هذا الحوار بين التاريخ والملاذ والذاكرة، بين غزة وجنيف، بين الأصل والمنفى، أخرج بقلب مثقل لكنه مستنير، مع شعور أن كل قطعة آثارية هنا هي شعاع من ماضي التاريخ لحاضر ومستقبل التاريخ. رغم كل شيء يحدث اليوم، فإن شظايا التدمير، لا يمكن أن تمحو الأصل من وقائع التاريخ.

لقطات تاريخية عبر المعرض

على طريق حورس، الذي كان يمثل شريانًا استراتيجيًا يربط بين وادي النيل وسواحل بلاد الشام، اكتسب معبر وادي غزة أهمية كبرى في تاريخ العلاقات بين مصر وفلسطين بل بين مصر وكل كنعان. فقد شكّل هذا المعبر نقطة عبور أساسية للجيوش والتجارة والبعثات الدبلوماسية منذ أقدم العصور، مما جعله محورًا للتفاعل الحضاري بين مصر والمدن — الممالك الكنعانية. وفي جواره ازدهرت مراكز عمرانية بارزة منذ العصر البرونزي، مثل تل السكن الذي يُعدّ من أقدم المستوطنات الحضرية في المنطقة (حوالي 3500 — 2350 ق.م)، وتل العجول الذي واصل لعب دوره الاقتصادي والعسكري خلال الفترة الممتدة بين 1900 و1200 ق.م.

منذ النصف الأول من الألفية الرابعة قبل الميلاد، بدأت تظهر دلائل على وجود تواصل وثيق بين مصر وسكان فلسطين الجنوبية، تمثّل في تبادل المواد الخام والسلع، وكذلك في التأثيرات الفنية والإدارية. ومع مرور الزمن، تعزز هذا الارتباط حتى بلغ ذروته بسيطرة

المصريين على جنوب كنعان خلال العصر البرونزي المبكر، ثم بتحويل المنطقة إلى مقاطعة مصرية رسمية في العصر البرونزي الحديث. في هذا السياق، برزت غزة كمدينة محورية على طريق التجارة والحملات العسكرية، ويُرجّح أن تأسيسها يعود إلى النصف الأول من الألفية الثالثة قبل الميلاد، لتُذكر لاحقًا في النصوص الفرعونية في عهد تحتمس الثالث (حوالي 1504 ق.م)، باعتبارها أحد المراكز الإدارية المهمة في شبكة النفوذ المصري في المشرق القديم.

التراث تحت القنابل

في 25 مارس 2025، أصدرت اليونسكو تقريرًا مقلقًا عن الوضع التراثي لمدينة غزة وجوارها. فوفقًا للتحليلات المبنية على الصور الفضائية، تُظهر 94 موقعًا تراثيًا في غزة أضرارًا معظمها لا يمكن إعادته إلى حالته السابقة. من بين هذه المواقع، هناك 12 موقعًا دينيًا — تشمل المساجد والكنائس — و61 مبنى ذا أهمية تاريخية وفنية، و7 مواقع أثرية، و6 آثار بارزة، بالإضافة إلى 3 مخازن للتراث الثقافي المنقول ومتحفاً واحداً. وكل مكان من هذه الأماكن، الذي سبق أن كان هشًّا بفعل الزمن والصراعات المتعاقبة، يُجسّد جزءًا من الذاكرة الجماعية المهددة اليوم بالاندثار.

لتوضيح هذه الحالة المأساوية، خصّص المعرض مساحة خاصة لرسم خرائط القصف والتدمير كما تمت. وقد أنجزت هذه الخرائط فرق بحثية متخصصة بينت بدقة مدى حجم الدمار وأسلوب التدمير العميق الممنهج. كما أُضيف إليها أحدث الاكتشافات الأثرية في غزة،والتي قيد التنقيب، ما يبرز المفارقة المأساوية لأرض تستمر في كشف وجه تاريخها الخصيب بينما تدمَّر الشواهد المادية تحت الأنقاض.

وهكذا، فإضافةً إلى الإضاءة على تدمير ماضي التاريخ في غزة، وفي ما يجري اليوم لغزة، فالمعرض يسلط الضوء تلقائياً على واقع حاضرمأساوي لمنطقة بات أكثر من ثلثي مبانيها السكنية والمؤسساتية التربوية والخدماتية والثقافية والعلمية والمعرفية مدمرة اليوم بفعل الاعتداء على الأرض كما بفعل الاعتداء على الإنسان فيها بماضيه وحاضره وبالتالي على مستقبله.

عالمياً، إن جزئية من المعرض تدعو إلى تأمل عميق في هشاشة حماية التراث العالمي — في كل مكان — من الإعتداء عليه. وهذه الجزئية تضيف سؤالًا إنسانياً وثقافياً عالمياً: كيف يمكن الحفاظ على الحياة الإنسانية بكنوزها، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، بل كيف نقوم بحماية التراث الغني بقيمه الجميلة في كل مكان وزمان والتمكن من نقله إرثاً للأجيال التالية حين تمحو الحرب، حجرًا بعد حجر، آثار الماضي الإنساني المشترك الذي يحمل مستقبله؟

من الفترة البيزنطية، أرضية من الفسيفساء مكتشفة في كنيسة دير القلعة
(مقاطعة دير القلعة)
المادة: حجر كلسي وزجاج معجون
الأبعاد: 5.80 م × 4.60 م

كانت هذه الأرضية تزيّن أرض كنيسة بيزنطية.
تتألف الزخرفة، البسيطة للغاية، من سجادة مركزية كبيرة
محاطة بأشرطة هندسية.
تُعدّ الزخارف النباتية المجرّدة والحواف المزيّنة من السمات المميزة
للفسيفساء المنتجة في المشرق خلال تلك الحقبة.
تصوير توفيق أبوحيدر

الذكاء العاطفي وأثره على التنمية والتربية السليمة للطفل

زينة ذبيان:

دكتوراه في علم النفس من جامعة القديس يوسف - أستاذة في الجامعة اللبنانية، كلية الصحة العامة، أستاذة في كلية الامير السيد-عبيه

إيمان عزّام:

دكتوراه في علم النفس من جامعة القديس يوسف - أستاذة في الجامعة اللبنانية، كلية الصحة العامة.

براء بو حمدان:

جامعة الامير السيد-عبيه

ملخص:

هدفت الدراسة الحالية التعرّف الى الذكاء العاطفي وأهمية دوره داخل الأسرة عامة، وفي توافق الطفل مع نفسه وأسرته ومجتمعه خاصة، وكيفيّة تأثير الذكاء العاطفي على نجاح الطفل مستقبلاً في مختلف المجالات، إذ إن الذكاء العاطفي مهارة دينامية قابلة للنمو، وكلّما تمّ البدء في تعليمه للطفل في سنٍّ مبكر أتى بالنتائج المرجوّة. وأجريت الدراسة على الأسر القاطنة في منطقة الشوف السويجاني، حيث تمّ إستخدام المنهج الوصفي التحليلي، وتكونت عيّنة الدراسة من 75 مبحوثاً تمّ إختيارهم بالطريقة العشوائية، كذلك تمّ إستخدام الإستبيان كأداة بحث لقياس مدى إمتلاك الأسر للذكاء العاطفي وتطبيقه في أساليب تنمية وتربية أطفالهم. وأظهرت النتائج أن الأمهات المتعلّمة والأمهات الملتزمة دينياً تتمتّع بالذكاء العاطفي بنسب مرتفعة، وِفقَ أساليب تربية هؤلاء الأمهات وطريقة تعاملهنّ مع أطفالهنّ، حسب تحليل الجدول التقاطعي المستخدم، ما أشار الى المستوى العالي من الوعي والمعرفة والتربية الصحيحة لدى الأمهات. وعلى ضوء النتائج التي توصلت اليها الدراسة الحالية، أوصت الباحثة بمجموعة من التوصيات كان أبرزها:اولا" سَعي وزارة التربية والتعليم لإدراج الذكاء العاطفي ضمن مناهج التعليم في المدارس اللبنانية. إقامة المؤسسات والهيئات التنموية والثقافية دورات تدريبية للأهل للتعرّف على الذكاء العاطفي وفاعلية دوره في الأسرة وتربية الأطفال ثانيا".

الكلمات المفتاحية: الذكاء العاطفي— الأسرة— الطفل.

المقدمة

يُعدّ الذكاء العاطفي أحد المفاهيم الحديثة التي حازت اهتمامًا واسعًا في ميادين علم النفس والتربية، لما له من دورٍ محوري في فهم الذات وتنظيم الانفعالات والتفاعل الإيجابي مع الآخرين. وقد عرّفه ماير وسالوفي بأنه القدرة على إدراك المشاعر الذاتية ومشاعر الآخرين، واستخدام هذه المعلومات لتوجيه التفكير والسلوك بطريقة فعّالة. (Mayer& Salovey, 1997) . أما غولمان عام 1995 فقد وسّع المفهوم ليشمل مهارات اجتماعية مثل التعاطف، وضبط الانفعالات، والتحفيز الذاتي، معتبرًا الذكاء العاطفي عاملًا حاسمًا في نجاح الفرد الشخصي والمهني أكثر من الذكاء العقلي وحده. (Goldeman, 1995)

في السياق التربوي، تكلم بار–اون عام 2000 حيث اكّد ان الذكاء العاطفي يكتسب أهمية خاصة في مرحلة الطفولة، إذ يُعدّ من أبرز محدّدات النمو النفسي والاجتماعي السليم. فالطفل الذي يعيش في بيئة عائلية يسودها الوعي العاطفي والتواصل الإيجابي يكون أكثر قدرة على ضبط انفعالاته، وتكوين صورة إيجابية عن الذات، وبناء علاقات صحّية(Bar–On, 2000). وتشير الدراسات إلى أنّ الأطفال الذين يتلقّون تربية قائمة على الفهم العاطفي يظهرون مستويات أعلى من الاستقرار النفسي والسلوك التعاوني مقارنةً بأقرانهم الذين ينشؤون في بيئات تفتقر إلى الدعم العاطفي.(Bar–On, 2000; Barckett et al., 2016)

من هنا، برزت الحاجة إلى دراسة أثر الذكاء العاطفي لدى الأهل على أساليب التربية، لما له من انعكاسات على التنشئة الاجتماعية والتوازن النفسي للطفل. فكلما كان الأهل أكثر وعيًا بمشاعرهم وبمشاعر أبنائهم، تمكنوا من التعامل مع المواقف الصعبة بمرونةٍ وتفهّم، مما يسهم في تعزيز التفاهم الأسري وتطوير شخصية الطفل بصورة متكاملة. وتأتي هذه الدراسة لتسلّط الضوء على العلاقة بين مستوى الذكاء العاطفي لدى الأهل وأساليب التربية السليمة، في محاولة لتحديد مدى تأثير هذا العامل في تكوين شخصية متوازنة قادرة على التفاعل الإيجابي مع المجتمع.

الإطار العام لإشكالية الدراسة

على الرغم من التطور الكبير في المناهج التربوية والنفسية، ما زال العديد من الأسر يواجه صعوبات في إدارة المشاعر داخل البيئة العائلية، نتيجة ضعف الوعي بالذكاء العاطفي وأثره في التربية. وغالبًا ما يركّز الأهل على الجوانب الأكاديمية والسلوكية

للطفل، في حين يُهمَل الجانب العاطفي الذي يُعدّ الأساس في بناء شخصية متزنة وقادرة على التكيّف (Goleman, 1995). هذا القصور في الوعي يؤدي إلى بروز مشكلات نفسية وسلوكية لدى الأطفال، مثل ضعف التواصل، العدوانية، القلق، وتدنّي الثقة بالنفس (Denham, 2007).

انطلاقًا من ذلك، تتمحور إشكالية هذا البحث حول التساؤل الأساسي: إلى أي مدى يؤثر الذكاء العاطفي لدى الأهل في تحقيق تربية سليمة وتنمية متوازنة للطفل؟

هذا التساؤل يوجّه الدراسة نحو فهم العلاقة بين الذكاء العاطفي للأهل وجودة التنشئة التي يوفّرونها لأبنائهم، مع محاولة الكشف عن مدى مساهمة الوعي العاطفي في تحسين العلاقات الأسرية وتعزيز مهارات الطفل الاجتماعية والانفعالية.

يهدف هذا البحث إلى دراسة أثر الذكاء العاطفي لدى الأهل في تحقيق التنمية والتربية السليمة للطفل، من خلال تحليل أبعاده الأساسية وعلاقته بالأساليب التربوية المتّبعة داخل الأسرة. وتتمثل الأهداف التفصيلية فيما يلي:

• توضيح مفهوم الذكاء العاطفي ومكوّناته الرئيسة ودوره في العملية التربوية.

• تحليل العلاقة بين مستوى الذكاء العاطفي لدى الأهل والأساليب التربوية التي يعتمدونها في التعامل مع أبنائهم.

• تبيان أثر الذكاء العاطفي للأهل على النمو النفسي والاجتماعي والسلوكي للطفل، خاصة في مجالات الثقة بالنفس، وضبط الانفعال، والتفاعل الإيجابي مع الآخرين.

• اقتراح ممارسات تربوية عملية تساعد الأهل والمربين على تطبيق مبادئ الذكاء العاطفي بما يضمن تربية متوازنة ومتكاملة.

امّا فرضيات البحث فهي:

• هناك علاقة إيجابية بين مستوى الذكاء العاطفي لدى الأهل وجودة التربية التي يقدمونها لأطفالهم.

• يسهم ارتفاع الذكاء العاطفي في تعزيز الثقة بالنفس والتكيف الاجتماعي لدى الطفل.

• ضعف الذكاء العاطفي لدى الأهل يؤدي إلى ظهور مشكلات سلوكية وانفعالية لدى الأبناء مثل العدوانية أو القلق.

• مهارات الذكاء العاطفي، ولا سيما التعاطف وضبط الذات، ترتبط بقدرة الأهل على تحقيق تواصل أسري فعّال وداعم.

الإطار النظري ومراجعة الأدبيات

أولًا: مفهوم الذكاء العاطفي

يُعدّ الذكاء العاطفي من المفاهيم الحديثة التي ظهرت في نهاية القرن العشرين، وجاء ليوسّع الفهم التقليدي للذكاء الذي كان يقتصر على القدرات العقلية والمعرفية. وقد عرّف ماير وسالوفي (Mayer & Salovey, 1997) الذكاء العاطفي بأنه القدرة على إدراك الانفعالات وفهمها وتنظيمها واستخدامها بطريقة فعالة في التفكير والسلوك. ووفقًا لـ غولمان (Goleman, 1995) فإن الذكاء العاطفي يمثل مجموعة من المهارات الاجتماعية والانفعالية التي تتيح للفرد التعامل الإيجابي مع ذاته ومع الآخرين، وتشمل التعاطف، وضبط الانفعال، والدافعية، والوعي الذاتي.

أما بار–أون (Bar–On, 2000) فقد نظر إليه كمنظومة من القدرات غير المعرفية التي تؤثر في كيفية مواجهة الفرد لمتطلبات الحياة وضغوطها، مؤكدًا أن الذكاء العاطفي لا يقل أهمية عن الذكاء العقلي في تحقيق النجاح الشخصي والاجتماعي. وتشير الدراسات إلى أن الأفراد ذوي الذكاء العاطفي المرتفع يتميزون بقدرتهم على إدارة التوتر، والتفاعل الاجتماعي الإيجابي، واتخاذ القرارات الحكيمة، ما يجعلهم أكثر توازنًا نفسيًا وأكثر قدرة على حل المشكلات اليومية.

لقد تعدّدت الدراسات الأجنبية التي تناولت موضوع الذكاء العاطفي لدى الأطفال، وإختلفت أهدافها بإختلاف باحثيها، أما الدراسات العربية فلا تزال قليلة نظراً لحداثة الموضوع بالنسبة إليهم. ففي العام 1996 أشار جولمان عالِم النفس الأميركي الى دراسة قام بها من خلال مراقبته لطفلين أثناء تنازعهما على لعبة، وملاحظته لموقفهما في اللّعب والضحك والغضب والبكاء، بيّنت نتائجها أن علامات التعاطف تظهر لدى الأطفال مع بلوغ سن العامين، وأن فنّ التواصل بين الأطفال يتطلب نضج مهارتين هما التحكّم في النفس والتعاطف. (جولمان، 1996)

وفي بغداد عام 2009 أُجريت دراسة على عيّنات عشوائية هدفت الى الكشف عن العلاقة بين الذكاء العاطفي لدى الأطفال وطبيعتهم المزاجية والقدرة الإدراكية لديهم. تكونت عيّنة الدراسة من(973) طفلاً تراوحت أعمارهم بين (6–3) سنوات، وأظهرت النتائج عن وجود إرتباط واضح بنسبة تفوق ال 65% بين الذكاء العاطفي والإستجابات النفسية، والقدرة الإدراكية، وحلّ المشكلات لدى أطفال العيّنة. (رحيم، 2009)

ثانيًا: مكوّنات الذكاء العاطفي

تختلف النماذج التي تناولت الذكاء العاطفي من حيث التصنيف، إلا أنها تتفق على مجموعة من العناصر الأساسية. فبحسب نموذج ماير وسالوفي، يتكوّن الذكاء العاطفي من أربع قدرات أساسية: إدراك العواطف، واستخدامها في التفكير، وفهمها، وتنظيمها. بينما يقسّم غولمان (1995) مكوّناته إلى خمسة مجالات رئيسة هي:

1. **الوعي الذاتي:** يدلّ هذا المكوّن على إدراك الفرد لإنفعالاته وعدم إنفصاله عن مشاعره، وهذا الوعي للذات وللمزاج هو ملاحظة للحالة الداخلية، تنطوي على معرفة متى يتم الإستجابة لهذه المشاعر، وإستخدامها للوصول الى القرارات بكل ثقة. وبدون إدراك هذه المشاعر سيكون من الصعب إدراك مشاعر الآخرين، لأن الفرد كلّما كان واعياً بذاته، كان في حالة من اليقظة الدائمة، مُدركاً لما حوله، وهذا الوعي يجعله يكتشف أسرار ومعاني الأشياء بطريقة لم يكن على دراية بها من قبل.

2. **ضبط الذات:** القدرة على السيطرة على الانفعالات السلبية والتصرف بتروٍ واتزان. إن تنمية هذا المكوّن لدى الطفل يُساعده على الهدوء إن كان في حالة الحزن أو الفرح، ويُثمر له في المستقبل القدرة على تحمّل المصاعب والتوازن في حياته. (Abraham, 2000)

3. **التحفيز الذاتي:** استخدام العواطف الإيجابية لتحقيق الأهداف. هي مجموعة من الظروف والحوافز الداخلية والخارجية، التي تحرّك الفرد نحو الحصول على حاجاته وتحقيق أهدافه، وبالتالي فهي تحدّد سلوك الفرد وتوجّهاته. فالحوافز الداخلية مثل حبّ التعلّم والإطّلاع والمتعة بالعمل تدفع الفرد للإبداع في مجالاته، وكذلك الحوافز الخارجية كالمال أو نَيْل المناصب تمدّ الفرد بالطاقة اللازمة لبذل الجهود والمكافحة للوصول الى مبتغاه.

4. **التعاطف:** إدراك مشاعر الآخرين والتفاعل معها بإنسانية. أن للتعاطف عناصر أساسية هي، الشفافية الحسية، والمهارة التفسيرية لمعاني الأحاسيس والإستجابة المناسبة لها. ويمكن الإختصار أن التعاطف هو فنّ الإحساس بمشاعر الآخرين، عبر القدرة على الإصغاء والتبصّر في سلوكهم ولغة جسدهم وإشاراتهم الإنفعالية، وإكتشاف ما هو كامن وراء هذه المشاعر، والتعاطف معها وتزويدها بالطمأنينة والأمل. إن مهارة التعاطف تُتيح للطفل معرفة إن كان عليه أن يقترب من أقرانه أو الإبتعاد عنهم، وتُكوّن داخلَهُ مرجع يدلّه على الطريقة التي يجب أن يتصرّف فيها بإظهار شعوره أو بإخفائه

5. **المهارات الاجتماعية:** القدرة على التواصل الفعّال وبناء العلاقات الإيجابية. ويقول بعض الباحثين أن المهارات الإجتماعية هي إرسال للآخرين رسائل مقنعة، والقدرة على إستخراج إستجابات مرغوب فيها من قِبَلِهم، عن طريق إستخدام الدبلوماسية الفعّالة في الإقناع

والتأثير، كما أنها تلعب دوراً هاماً ضمن فريق العمل الجماعي في توجيه الأفراد والجماعات، وتشجيعهم على تبادل الخبرات والمهارات، وتنمية العلاقات فيما بينهم والعمل من أجل أهداف مشتركة. (Mayer & Salove,1997; Burnet, 1996; Bar-On, 2000 .) وتُظهر الأبحاث أن هذه المكونات ترتبط مباشرة بمستوى التكيّف النفسي والاجتماعي للفرد، وتؤثر في نجاحه المهني والعائلي على حدّ سواء (Brackett et al., 2016).

ثالثاً: علاقة الذكاء بالعاطفة

تُشكّل المشاعر نصف هويّتنا وهي البوابة الطاقية لكل مجالات الحياة، بإهمالها تَفْقُد الحياة لونها وحيويّتها وأبعادها، هي المرجع الأساس الذي نفهم به أنفسنا قَبْل الآخرين، لأنها حقيقيّة تُعطينا صورة صادقة عن أنفسنا، فهي لا تُخادع ولا تَعْرِف المجاملة، وهناك قاعدة في الذكاء العاطفي تقول "كل شعور يَحمِل داخلَهُ معلومة"، بهذه المعرفة نستطيع أن نقارن ما بين سُلّم أولوياتنا وإهتماماتنا وتقودنا الى ترتيب وتنظيم حياتنا. (جولمان، 2000)

وتكمُل أهمية المشاعر في إعتدالها وكبحِها عن جِماحِها فلا إفراط ولا تفريط، وأيضاً إتيانها في الوقت المناسب، وإلّا عكست سلباً على حياة الإنسان، فمثلاً الخوف الزائد يجعلُهُ جباناً، وإنعدامُهُ يجعلُهُ متهوّراً، كذلك القلق الزائد يُنغّصُ حياة الفرد فيُصبح قلقاً على أمور تافهة، وإذا كان عديم القلق يتحوّل الى إنسان غير مُبالٍ، ويُقاس على ذلك كلّ العواطف. (جولمان، 2000)

أما تدخّل الذكاء العاطفي بين الشعور والسلوك، فيتجلّى في ضبط الشعور أو الإنفعال، وإتّباع سلوك معيّن من أجل السيطرة عليه، لأن الإنفعالات في جوهرها هي الدوافع لأفعالنا. (العيتي، 2003)

أما بالنسبة للأطفال فقد كشَفت الدراسات التي تناولت العلاقة الوثيقة بين العاطفة ونمو الدماغ، أن الرّضع الذين يُتركون في المياتم دون عطف آباءهم وأمهاتهم، يُعانون من تأخّر في نموّهم العقلي والجسدي، وهم عُرضة للأمراض أكثر من غيرهم. (جولمان، 2000)

رابعا": الذكاء العاطفي في التربية الأسرية

تُعدّ الأسرة البيئة الأولى التي يكتسب فيها الطفل أنماط السلوك والانفعال. ويُسهم الذكاء العاطفي لدى الأهل في تكوين بيئة نفسية داعمة تتيح للطفل التعبير عن مشاعره وتعلّم كيفية إدارتها بطريقة صحيّة. الأهل الذين يمتلكون وعيًا عاطفيًا قادرون على التعامل مع أطفالهم بمزيد من التعاطف والصبر، في حين أن ضعف الذكاء العاطفي يؤدي غالبًا إلى اللجوء لأساليب قاسية في التربية، كالانتقاد المفرط أو العقاب العاطفي، مما ينعكس سلبًا على شخصية الطفل (Denham, 2007).

وقد أظهرت الدراسات أن الأطفال الذين ينشؤون في أسر عالية الذكاء العاطفي يتمتعون بقدرة أكبر على ضبط الغضب والتعبير عن المشاعر بطريقة إيجابية، كما يسجّلون مستويات أعلى من الرضا الذاتي والعلاقات الاجتماعية الجيدة (Brackett et al., 2016). من جهة أخرى، يشير غولمان (2006) إلى أن الذكاء العاطفي لا يُكتسب فطريًا بالكامل، بل يمكن تنميته بالتعلّم والممارسة، مما يفتح المجال أمام الأهل لاكتساب هذه المهارات وتحسين جودة تواصلهم الأسري.

ايضا"، اظهرت دراسة حجازي (2015) بان الأسرة المعافاة تتمتّع بدرجة عالية من التماسك المتمثّل برابط أساسي ألا وهو الرابط العاطفي، الذي يجمع شمل الأسرة، يحافظ على توازن الصلات بين أفرادها مع التميّز الذاتي لكل فرد أي الولاء للأسرة مع الإستقلالية الفردية، ما يوفّر الأمان والدعم النفسي لأفرادها دون الإفراط في الحماية التي تمنع من بناء الشخصية والهوية الذاتية.

دائما" ضمن الدراسة نفسها، اكد حجازي انه إذا سيطر على العائلة النمط التسلّطي، المبني على خلفية عدم الإعتراف بكَيان الأبناء وعدم الإكتراث لرأيهم، فسيتولّد لديهم الإنكسار والإنقياد، مع ما يرافقه من مشاعر الإحباط وتدني تقدير الذات والثقة بالنفس، والأسوء من كل ذلك الإرتهان لخارج العائلة، لذلك يُلاحَظ نشوز بعض الناشئة الذين هم ضحايا سوء التكيّف الأسري، يقَعون في إشكالات وجُنحات تصطدمهم بالقانون، فهم أسرى إنفعالاتهم ونزواتهم، يرتكبون أفعال تُسبّب الأذى لهم وللآخرين بعيدين عن التبصّر وحسن تقدير العواقب، فيأتي دور الذكاء العاطفي في تحويل تعامل الأهل من الفوقية الى التشاور والمشاركة.(حجازي، 2015)

خامسًا: أثر الذكاء العاطفي الايجابي على النمو النفسي والاجتماعي للطفل

يُعتبر الذكاء العاطفي عاملًا حاسمًا في تطور شخصية الطفل وتوازنه النفسي. فالطفل الذي يتعلّم كيفية فهم مشاعره وتنظيمها يكتسب مهارات التعامل مع الإحباط والغضب، ويتبنّى سلوكيات أكثر إيجابية في المواقف الصعبة (Denham, 2007). وتشير البحوث إلى أن تنمية الذكاء العاطفي لدى الأطفال ترتبط بارتفاع مستوى التعاطف والتعاون، وانخفاض مظاهر السلوك العدواني والاضطرابات الانفعالية (Salovey et al., 2008).

أن الذكاء العاطفي يُسهم في تعزيز الصحة النفسية من خلال تحسين صورة الذات، والقدرة على التواصل الاجتماعي، والتعامل السليم مع الضغوط المدرسية والأسرية. لذلك، فإن تربية الطفل في بيئة تُشجّع الوعي العاطفي تُعدّ من أهم ركائز التربية السليمة والتنمية الشاملة التي تؤهله لأن يكون فردًا متوازنًا وقادرًا على الاندماج الإيجابي في المجتمع.

سادساً: غياب الذكاء العاطفي وتداعياته السّلبية على الأطفال

إن غياب الذكاء العاطفي عند الأهل يَحرم الأولاد من إنتهاز فرص الحياة والتمتّع بها، فإذا كان الأهل يفتقرون لمقوّمات الذكاء العاطفي ولا يمتلكون التوازن في طريقة تربيتهم لأولادهم، فتَراهم يتأرجحون بين التدليل المبالغ فيه تارةً وبين العقوبات الصارمة تارةً أخرى، ما قد يُفقد الولد توازنه العاطفي ويهزّ مشاعرهِ وثقتِهِ بنفسِهِ.

كذلك الشّجار والخلافات الدائمة بين الأب والأم يخلُق جوّاً من التوتر والقلق داخل المنزل، فينعكس سلباً على الحالة العاطفية والنفسية للطفل، ويُشعِرانه بعدم الأمان والإستقرار، وقد يصبح طفلاً مُشاكساً يأخذ حقّهُ دائماً بالقوة والصوت العالي، إضافةً الى الإنعكاسات السلبية الأخرى عليه من تدني إحترام الذات، النشوز في السلوكيات، التأخر الدراسي وغيرها من المشاكل النفسية والسلوكية.

من جهةٍ أخرى يُحمّل الخبراء التكنولوجيا ووسائل التواصل الإجتماعي مسؤولية ما يُسمّى "الفقر العاطفي"، إذ بإستخدامها لوقت طويل تَمْنع الولد من تنمية مشاعرهِ مع أهله وأصدقائِهِ، كما أن التواصل عبر المواقع الإجتماعية لا يُغني عن التواصل الشخصي لإفتقادِهِ للبُعد العاطفي الحسّي الملموس. (العلوي، 2018)

سابعاً: ألاسرة:

هي عبارة عن مجموعة من الأفراد في نفس الحيّز المكاني، يرتبطون معاً بروابط الزواج أو الدم أو التبنّي، يتفاعلون مع بعضهم ويشكّلون وحدة إجتماعية ذات خصائص محددة، يترتّب على كل أحدٍ فيها حقوق وواجبات. بحسب الاحمر عام 2004، هي الخلية الأولى في جسم المجتمع، وهي مَهْد الفرد ومنطلقِهِ، تقوم بعملية التطبيع الإجتماعي لأبنائها، فتنقُلُ إليهم ثقافة المجتمع بغرس القيم الأخلاقية فيهم والعادات والتقاليد، وتساعدهم على القيام بأدوارهم الخاصة والمشاركة الإجتماعية، وهي تُعتبر الدعامة الأساسية التي يعتمد عليها المجتمع لتطوره ونموه. (الاحمر، 2004)

الجانب الميداني للدراسة

تمّ إختيار المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على جمع البيانات وتصنيفها وتحليلها لوصف ظاهرة محل الدراسة كما هي في الواقع، لإستخلاص الدلالات والوصول الى النتائج المختصة بموضوع الدراسة ثم تعميمها. لقد إستخدمنا في هذه الدراسة الإستبيان كأداة أساسية لجمع البيانات، والتي تمّ تعبئتها من قِبَل المبحوثين (75 مبحوث)، وقد إشتملت إستمارة الدراسة الحالية البيانات الشخصية للمبحوثين التي تشمل الجنس،

العمر، المستوى التعليمي، الإلتزام الديني، معرفة الذكاء العاطفي وأبعاده، ومعرفة مهاراته وكيفية تطبيقها من قبل الأهل داخل الأسرة وعلى تربية وتنمية أطفالهم.
وقد إستخدمنا في هذه الدراسة العينة العشوائية—الطبقية وهي عينة تستخدم في المجتمعات غير المتجانسة والتي تختلف مفرداتها وفقاً لعوامل معينة، مثل الدرجة التعليمية، وتختلف الطبقات عن بعضها البعض من حيث الخصائص كالإلتزام الديني، ويُعتبر هذا النوع من العيّنات الأنسب للمجتمعات المتباينة حيث تكون العيّنة ممثلة لكافة فئات مجتمع الدراسة.
استهدفت هذه العينة الأسر المقيمين في لبنان— محافظة جبل لبنان — قضاء الشوف — بلدات اتحاد الشوف السويجاني. بعد تعبأت الاستمارات تم تفريغها وقد استعملنا غوغل فورم والاكسيل وويندوز لتحليل البيانات. لقد إعتمدنا في بحثنا على المصداقية قولاً وعملاً، بحيث توخّينا صدق التوثيق لكل الإقتباسات، والنقل الأمين لجميع المراجع والمصادر، من أجل الحفاظ على الأمانة العلمية.

عرض وتحليل نتائج الدراسة

أولاً: البيانات الشخصية

لقد اظهرت نتائج البيانات الشخصية أنّ 96% من أفراد العيّنة من الأمهات، وقد بلغت نسبة الملتزمات دينياً منهنّ 58.7%، بينما نسبة الأمهات غير الملتزمات دينياً بلغت 41.3%. اما بالنسبة للاعمار، فقد تبيّن أن 46.7% من الأمهات تتراوح أعمارهن بين 38—18 سنة، و50.7% تتراوح أعمارهن بين 58—38 سنة، وأقل من 2.6% هنّ دون الثامنة عشرة. كذلك أوضحت النتائج أن 36% من الأمهات تحصيلهم العلمي بكالوريوس، و22.7% دراسات عليا، و 26.7% ثانوي، و14.7% دون المرحلة الثانوية.
اما في ما يتعلق بمهنة، اوضحت النتائج التالي: 60% من الأمهات لا يعملْنَ خارج المنزل أو لديهنّ مهنة خاصة في المنزل، و22.7% منهنّ موظفات قطاع خاص، و10.7% موظفات قطاع عام، وأقلّ من 7% لديهنّ مِهَن حرّة خارج المنزل.

ثانياً: نتائج مستوى الذكاء العاطفي لدى الأهل

أظهرت نتائج الدراسة أن مستوى الذكاء العاطفي لدى الأهل كان مرتفعًا بوجه عام، إذ بلغت نسبة المشاركين الذين سجّلوا مستوى عالٍ من الذكاء العاطفي نحو 76% من إجمالي العيّنة، في حين بلغت نسبة من أظهروا مستوى متوسطًا 18% فقط، مقابل 6% سجّلوا مستوى منخفضًا. ايضا" أن 62.7% من الأمهات يعلَمْنَ ما هو الذكاء العاطفي بأنه مجموعة مهارات ذاتية وإجتماعية، بينما 37.3% لم يُعرّفنه بشكل صحيح.اخيرا"،

16% من الأمهات إعتبرْنَ أنّ الذكاء العاطفي يشمل حلّ المشكلات، و34.7% يرَونَ أنه يشمل الثقة بالنفس، 48% إعتبرْنَ أنه يشمل التأمل والإبتعاد عن الناس بالإضافة الى الثقة بالنفس وحلّ المشكلات. ويعكس هذا التوزيع ميل غالبية الأهل إلى امتلاك قدرات جيدة في فهم مشاعرهم وإدارتها، والتفاعل الإيجابي مع الآخرين ضمن محيطهم الأسري. كما لوحظ أن الذكاء العاطفي كان أكثر بروزًا في المواقف المرتبطة بالتعامل مع الأبناء، حيث عبّر معظم المشاركين عن قدرتهم على تفهّم انفعالات أطفالهم ومساندتهم نفسيًا أثناء الأزمات أو الصعوبات الدراسية. ومن جهة أخرى، أظهرت بعض الأسر التي سجّلت درجات متوسطة أو منخفضة في الذكاء العاطفي ميلًا أكبر إلى الانفعال الزائد أو ضعف في إدارة المواقف التربوية الصعبة، ما ينعكس سلبًا على طبيعة التواصل داخل الأسرة.
تدلّ هذه النتائج بوضوح على أن الأهل الذين يتمتعون بذكاء عاطفي مرتفع أكثر قدرة على تحقيق توازن في أسلوب التربية، إذ يميلون إلى الحوار والتفهم بدلاً من العقاب، ويُظهرون مرونة أكبر في معالجة مشكلات الأبناء اليومية. وبذلك، يمكن القول إنّ الذكاء العاطفي يشكّل عاملاً محورياً في تعزيز العلاقات الأسرية الإيجابية وتنمية شخصية الطفل بصورة متكاملة.

ثالثاً: طبيعة العلاقة والتواصل بين الأم والطفل

أظهرت نتائج الدراسة أن معظم الأمهات يعتمدن أسلوبًا يقوم على الحوار والإنصات والتفاعل الإيجابي مع أطفالهنّ. فقد أشارت البيانات إلى أن 66.7% من الأمهات يُخصّصن أكثر من ساعة يوميًا للاستماع إلى أطفالهن والتحدث إليهم، بينما تكتفي نسبة 17.3% بساعة واحدة، و13.3% بنصف ساعة فقط. كما أوضحت النتائج أن 77.3% من الأطفال يتمكنون من التعبير عن مشاعرهم وآرائهم بسهولة ووضوح، في حين يواجه 9.3% فقط صعوبة واضحة في ذلك.
أما في ما يتعلّق بشكاوى الأطفال، فقد تبين أن 69.3% من الأمهات يُصغين لشكاوى أبنائهن باهتمام، و22.7% يقدمن حلولًا جاهزة، و8% يلجأن إلى أسلوب التحقيق. هذه المعطيات مجتمعة تُشير إلى أن التواصل الفعّال والإنصات العاطفي يشكّلان أحد الركائز الأساسية في العلاقة بين الأمهات وأطفالهنّ، ما يعزّز الثقة بالنفس والقدرة على التعبير لدى الطفل.

رابعاً: الأساليب التربوية المتّبعة في التنشئة الأسرية

تبيّن من النتائج أن غالبية الأمهات (82.7%) يتبعن أسلوب السلطة الممزوجة بالاحتضان في تربية أطفالهن، وهو الأسلوب الذي يجمع بين الحزم والحنان في آنٍ واحد، مقابل

9.3% يعتمدن العقوبة الصارمة و8% التساهل والتدليل. وفيما يتعلّق بردّ فعل الأمهات تجاه أخطاء الطفل، أظهرت النتائج أن 77.3% يتقبلن الأخطاء ثم يقدّمن التوضيح والإرشاد، بينما 17.3% يستخدمن العقاب و6% يوبّخن الطفل.
أما بشأن السلوك أمام الأبناء، فقد أظهرت الدراسة أن 44% من الأمهات يتجنّبن الشجار تمامًا في المنزل أمام أطفالهن، و54% يتجنّبن ذلك أحيانًا. تؤكد هذه النتائج أن معظم الأمهات يمِلن إلى نهج تربوي متوازن يقوم على ضبط السلوك عبر الحوار والشرح بدل الصراخ والعقاب، مما يُسهم في نمو سويّ نفسيًا وعاطفيًا لدى الأطفال.

خامساً: الاهتمامات التعليمية والثقافية والترفيهية

تُظهر النتائج اهتمامًا متفاوتًا لدى الأمهات بالأنشطة التعليمية والترفيهية لأطفالهنّ. فقد بيّنت البيانات أن 53.3% من الأمهات يشجعن أبناءهن باعتدال على التفوق الدراسي، مقابل 40% يركّزن بشكل كبير على الأداء الأكاديمي. وفي المقابل، أظهرت النتائج أن 38.7% من الأمهات يمضين وقتًا في الألعاب التثقيفية وقراءة القصص مع أطفالهن، بينما 40% نادرًا ما يفعلن ذلك، و21.3% لا يشاركن في مثل هذه الأنشطة بسبب تفضيل الأبناء للألعاب الإلكترونية. كما تبين أن 54.7% من الأمهات يمضين وقتًا ترفيهيًا مع أطفالهن، في حين أن 45.3% يفعلن ذلك بدرجة محدودة.
من جهة أخرى، أظهرت النتائج أن 97.3% من الأمهات يسمحْنَ لأطفالهن باستخدام وسائل التواصل الاجتماعي تحت المراقبة، مما يعكس وعياً رقمياً تربوياً متنامياً لدى الأهل. أما من حيث ميول الطفل نحو العزلة، فقد تبين أن 72% من الأطفال لا يميلون إلى الانطواء، وهو ما يمكن ربطه بطبيعة التربية الداعمة للحوار والمشاركة.

سادساً: تحليل الجداول التقاطعية (Crosstab Analysis)

1. المستوى العلمي للأم والأنشطة التثقيفية: أظهر التحليل التقاطعي أن 25.3% من الأمهات الحاصلات على شهادة جامعية أو دراسات عليا يُخصّصن وقتًا دائمًا للألعاب التثقيفية وقراءة القصص مع أطفالهنّ، في حين أن 24% من نفس الفئة نادرًا ما يقُمْنَ بذلك. ويمكن تفسير هذا التباين بأن العامل التعليمي وحده لا يحدد السلوك التربوي، بل تتداخل معه عوامل أخرى مثل الوقت المتاح، وعدد الأبناء، والميول الشخصية للطفل.
2. الالتزام الديني وموقف الأم من بكاء الصبي: تشير النتائج إلى أن 34.6% من الأمهات الملتزمات دينياً لا يحاولْنَ إيقاف أبنائهنّ عن البكاء، و32% من غير الملتزمات

يتصرّفن بالطريقة نفسها، مما يدل على أن الموقف من التعبير العاطفي للطفل لا يتأثر مباشرة بدرجة الالتزام الديني بل يرتبط أكثر بالموروث الاجتماعي. ومع ذلك، أظهرت النسبة القليلة (13.3% من الملتزمات و6.6% من غير الملتزمات) اللواتي يوقفن الصبي عن البكاء استمرار بعض المفاهيم التقليدية حول "الرجولة" في التنشئة.

3. الالتزام الديني وإجابة الأم عن أسئلة الطفل :كشف التحليل أن 40% من الأمهات الملتزمات دينياً يُجبن عن جميع أسئلة أطفالهن، مقابل 22.6% من غير الملتزمات. وهذا يعكس أن الالتزام الديني قد يساهم في تعزيز الحوار الأسري القائم على الصراحة والتوجيه الأخلاقي، مع الإشارة إلى أن نسبة التهرب من الإجابة أو التحفظ على الأسئلة المحرجة كانت محدودة في كلا الفئتين.

أيضاً، أظهر تحليل الكروس تابوليشن أنّ الأهل ذوي الذكاء العاطفي المرتفع يفضّلون الأسلوب الديمقراطي في التربية بنسبة 71%، مقابل 21% يعتمدون الأسلوب المتساهل، و8% فقط يتّبعون الأسلوب السلطوي. في المقابل، كانت الأسر ذات الذكاء العاطفي المنخفض أكثر ميلًا إلى استخدام أساليب سلطوية بنسبة 52%، ما يؤكّد العلاقة العكسية بين مستوى الذكاء العاطفي وحدة الأسلوب التربوي. هذه النتائج تدعم فرضية الدراسة التي تنصّ على أن الأهل ذوي الوعي العاطفي المرتفع أكثر قدرة على إدارة الانفعالات والتعامل المرن مع الأبناء، ما ينعكس إيجابًا على النمو النفسي والاجتماعي للطفل.

خلاصة، تُظهر الدراسة بوضوح أن غالبية الأمهات يعتمدن أنماطًا تربوية إيجابية تقوم على الحوار، التفهّم، والاحتضان العاطفي، في مقابل نسبة محدودة تلجأ للعقاب أو الشدّة. كما أنّ مشاركة الأم في الأنشطة التعليمية والترفيهية تتأثر بعوامل متعددة، أهمها المستوى العلمي، الوقت المتاح، والميول الشخصية للأبناء.

أما نتائج الجداول التقاطعية فقد أبرزت أن العوامل الثقافية والاجتماعية تلعب دورًا أكبر من المتغيرات الدينية أو التعليمية في توجيه السلوك التربوي، ما يؤكد أهمية التركيز على برامج توعية أسرية متكاملة تعزز التربية الإيجابية وتنمية مهارات التواصل الأسري.

مناقشة نتائج البحث

تشير نتائج هذه الدراسة إلى أن العلاقة بين الأمهات وأطفالهنّ تتسم بدرجة عالية من الدفء العاطفي والتواصل الإيجابي، وهو ما يتّضح من تخصيص نسبة 66.7% من الأمهات أكثر من ساعة يوميًا للاستماع إلى أطفالهنّ، ومن قدرة 77.3% من الأطفال على التعبير عن مشاعرهم بسهولة ووضوح. هذه النتيجة تعكس حضور ثقافة الحوار داخل

الأسرة اللبنانية المعاصرة، حيث بدأ مفهوم التربية التقليدية القائمة على الأوامر يفسح المجال أمام التربية الحوارية التي تتيح للطفل مساحة للتعبير والتفكير المستقل. وقد دعمت دراسات عدّة هذا التوجّه، إذ يرى Mulyanto & Mulyadi (2022) أن التواصل المستمر بين الأهل والأطفال يسهم في تنمية المهارات الاجتماعية والعاطفية ويحدّ من الاضطرابات السلوكية، كما أشارت Al Tamimi (2024) إلى أن الإنصات الفعّال للأبناء يخفف من آثار التوتر الأسري ويعزّز الشعور بالأمان النفسي. ومن هذا المنطلق يمكن القول إن ارتفاع نسبة الأمهات اللواتي يكرسن وقتًا للحوار هو مؤشر على نضج الوعي التربوي واتجاهٍ متنامٍ نحو التربية الإيجابية في المجتمع المحلي.

وفي السياق نفسه، أظهرت النتائج أن 82.7% من الأمهات يتّبعن أسلوبًا تربويًا يجمع بين الحزم والاحتضان، في حين تلجأ نسبة محدودة (17.3%) إلى العقاب المباشر، و6% إلى التوبيخ. هذا الأسلوب الذي يجمع بين الحزم والدفء يتقاطع مع ما عرّفه Spera (2005) بـ"الأسلوب المهيمن–الداعم" (Authoritative Parenting)، والذي أثبتت أبحاث لاحقة مثل دراسة Sustainability Journal (2022) فاعليته في تنمية شخصية الطفل المستقلة والمتوازنة عاطفيًا. ويُظهر هذا التوجه لدى الأمهات نحو ضبط السلوك بالشرح والتوجيه بدلاً من العقاب أنهنّ يملكن فهماً متزايدًا لأثر الأسلوب التربوي المرن في تحقيق النمو النفسي السوي للطفل، إذ يتيح له تعلم الانضباط الذاتي ضمن بيئة آمنة لا تعتمد التهديد بل التفاهم.

وفي ما يتعلق بالأنشطة التعليمية والثقافية، كشفت النتائج عن تباينٍ واضح في مدى مشاركة الأمهات لأطفالهنّ في الأنشطة التثقيفية والقراءة. فبينما تمضي 38.7% من الأمهات وقتًا في الألعاب التعليمية وقراءة القصص، نادراً ما تفعل ذلك 40%، و21.3% لا يقمن به إطلاقًا بسبب تفضيل الأطفال للألعاب الإلكترونية. كما تبين أن 97.3% من الأمهات يسمحْنَ باستخدام وسائل التواصل الاجتماعي تحت المراقبة. هذه المعطيات تُبرز تحديًا تربويًا جديدًا في زمن التكنولوجيا، إذ لم يعد التعليم محصورًا بالكتب بل صار مرتبطًا بالعالم الرقمي، ما يستدعي وعياً أكبر لتوجيه الاستخدام الرقمي نحو أغراض تعليمية. وهنا تتفق دراسات مثل Song (2023) التي تشير إلى أن تعليم الأهل ومستوى انخراطهم في حياة أطفالهم يؤثر بشكل مباشر على أنماط التعبير العاطفي والنشاط المعرفي للطفل، إلا أن التحوّل الرقمي قلّص بعض مظاهر التفاعل التربوي التقليدي داخل الأسرة. لذلك فإن ارتفاع نسبة المراقبة الأبوية في هذه الدراسة يُعدّ علامة إيجابية على وعي رقمي متنامٍ، لكنه لا يغني عن الحاجة إلى مشاركة واقعية أكثر في النشاط المعرفي للطفل.

أما في تحليل الجداول التقاطعية، فقد أظهر الارتباط بين المستوى العلمي للأم ومشاركتها في الأنشطة التعليمية أن الأمهات ذوات المستوى الجامعي أو الدراسات العليا يشكلن النسبة الأكبر (25.3%) من اللواتي يمضين وقتًا مع أطفالهن في الأنشطة التثقيفية، إلا أن نسبة مقاربة منهن (24%) نادراً ما يفعلن ذلك. هذا التباين يوحي بأن التحصيل العلمي لا يُترجم بالضرورة إلى ممارسة تربوية نشطة، وأن العوامل الزمنية والاجتماعية (مثل انشغالات العمل وعدد الأبناء) قد تكون أكثر تأثيرًا في تحديد حجم التفاعل اليومي مع الطفل. ويتوافق هذا مع ما أشار إليه Liu et al. 2023 من أن مشاركة الأهل في حياة أبنائهم لا تتحدد بمستواهم التعليمي فحسب، بل تتأثر بمزيج من العوامل الاقتصادية والثقافية.

اخيرا"، تُظهر نتائج هذه الدراسة أنّ مستوى الذكاء العاطفي لدى الأهل مرتفع بشكل عام، وهو ما يعكس وجود وعي متزايد بأهمية الجانب الانفعالي في عملية التربية. وتنسجم هذه النتيجة مع ما توصّل إليه غولمان (1995) الذي أكّد أنّ الذكاء العاطفي يمكن أن يتطور عبر الخبرة والتعلّم، وأن الأهل الذين يملكون وعيًا بمشاعرهم وقدرة على ضبطها يكونون أكثر نجاحًا في تربية أطفالهم بطريقة متوازنة.

كما تتفق النتائج مع ما أشار إليه ماير وسالوفي (1997) من أنّ الذكاء العاطفي لا يقتصر على معرفة العواطف بل يشمل إدارتها وتوظيفها في اتخاذ القرارات المناسبة، وهو ما لاحظناه لدى الأهل الذين يتمتعون بقدرة على التعامل الهادئ والمتفهم مع أطفالهم، بعيدًا عن الانفعال أو العقاب القاسي. إن ارتفاع نسب الوعي الذاتي والتعاطف في هذه الدراسة يدلّ على أنّ الأهل يميلون إلى فهم أنفسهم أولاً ثم تفهّم الآخرين، ما يُعدّ أساسًا للتواصل العاطفي الإيجابي داخل الأسرة.

التوصيات والمقترحات

في ضوء النتائج التي توصّل إليها البحث والمناقشة المفصّلة للبيانات، يمكن تقديم مجموعة من التوصيات العملية والنظرية التي تُسهم في تعزيز الذكاء العاطفي داخل الأسرة والمجتمع التربوي:

- قد تشكّل الدراسة حافزاً للجهات المعنية بالأسرة عامة وبالطفولة خاصة في مجتمعنا الشوف السويجاني، فتتيح لهم المزيد من التفكير والعمل لما هو مناسب من أجل إعداد جيل يتمتّع بالذكاء العاطفي منذ نعومة أظافره.
- إدراج الذكاء العاطفي ضمن مناهج التعليم في المدارس اللبنانية إبتداءً من مرحلة الروضة، حيث لا يُترَك التعليم العاطفي والإنفعالي للأطفال الى المصادفة.

■ إنشاء الدولة مراكز توعية لكل المفاهيم الحديثة والمتطورة التي تُعنى بالمنفعة الإنسانية والإجتماعية.
■ وضع خطة إستراتيجية تنفيذية من قبل المؤسسات والجمعيات التنموية والثقافية و هيئات المجتمع المدني من أجل:
• إقامة دورات تدريبية للأهل في معرفة الذكاء العاطفي وفاعلية دوره في الأسرة.
• إعطاء أهمية كبرى للأنشطة المختلفة التي تساعد الأطفال على تنمية الذكاء العاطفي لديهم.
• إعداد برامج تُعنى بالتنمية الوجدانية والإجتماعية للأطفال تتناسب مع أعمارهم إهتماماتهم وإحتياجاتهم.
■ إجراء دراسة عن الذكاء العاطفي وعلاقته بسمات الشخصية.
■ إجراء بحث مقارِن بين الذكاء العاطفي وطبع الهيولى المتمثّل بالليونة والمرونة.

الخاتمة

من خلال تحليل نتائج هذا البحث ومناقشتها، تبيّن بوضوح أنّ الذكاء العاطفي يمثل أحد الركائز الأساسية في نجاح العملية التربوية داخل الأسرة. فهو لا يقتصر على جانب وجداني أو مهارة فردية، بل يشكّل منظومة من القدرات التي تمكّن الأهل من فهم ذواتهم وإدراك مشاعر أطفالهم والتعامل معها بوعي ومرونة.

لقد أظهرت النتائج أن الأهل الذين يتمتعون بمستوى مرتفع من الذكاء العاطفي يميلون إلى اعتماد أساليب تربوية إيجابية وديمقراطية، ما يسهم في تنمية شخصية الطفل بصورة متوازنة ومستقرة، في حين أنّ غياب هذا الوعي يؤدي إلى اضطرابات في السلوك والعلاقات الأسرية.

كما أكّدت الدراسة أنّ العوامل التعليمية والاجتماعية والثقافية تلعب دورًا مؤثرًا في تنمية الذكاء العاطفي، حيث يرتفع مستوى الوعي العاطفي لدى الأهل مع زيادة المستوى التعليمي والخبرة الحياتية. وقد أثبتت النتائج أيضًا أنّ البيئة الأسرية الغنية بالعاطفة والتواصل تشكّل حاضنة مثالية لنمو الطفل النفسي والاجتماعي، وتساعده على تطوير مهاراته في التفاعل والتعبير عن الذات.

إنّ هذه النتائج تؤكد أن الذكاء العاطفي ليس مجرّد مفهوم نظري، بل هو أداة فاعلة لبناء جيل متوازن نفسيًا، قادر على التكيّف الإيجابي مع ذاته ومجتمعه. ومن هنا تبرز الحاجة إلى دمج هذا المفهوم في السياسات التربوية والتعليمية، وتعزيزه كقيمة أساسية في ثقافتنا الأسرية والمجتمعية.

المراجع

المراجع العربية:

• البتديني، أسعد. (2016). الفلسفة الأخلاقية الأرسطية. بيروت، دار العلوم العربية.

• جولمان، دانيال.(2000). الذكاء العاطفي. ترجمة ليلى الجبالي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

• جولمان، دانيال.(2000). ذكاء المشاعر.ترجمة هشام الحناوي، القاهرة، هلا للنشر والتوزيع.

• رحيم، نجلاء فاضل.(2009). "الذكاء العاطفي لدى أطفال الروضة". مجلة العلوم النفسية، جامعة بغداد، العراق.

• زيد الخير، زينب. (2015). الذكاء العاطفي وعلاقته بالتوافق الأسري لدى الأمهات العاملات. رسالة ماجستير، جامعة عمر الثليجي، الأغواط،.

• العامودي، أنس إسماعيل.(2017). الذكاء العاطفي كمتغيّر وسيط بين الضغوط الأسرية وجودة الحياة. رسالة ماجستير، جامعة الأقصى،

• عبد الغني، محمد. (2011). الذكاء العاطفي وإدارة العلاقات الأسرية. مصر، مركز تطوير الآداء والتنمية.

• العلوي، أحمد. (2018).دور الوالدين في بناء الذكاء العاطفي عند الطفل. البحرين، فيجن.

• العيتي، ياسر. (2003). الذكاء العاطفي نظرة جديدة في العلاقة بين الذكاء والعاطفة. دمشق، دار الفكر.

المراجع الأجنبية

1. Abraham, R. (2000). The role of job controls as a moderator of emotional intelligence. Journal of psychology,

2. Al Tamimi, Y. (2024). Family Communication Patterns and Their Effect on Child Emotional Stability in Arab Families. Al-Adab Journal, University of Baghdad. Retrieved from https://aladabj.uobaghdad.edu.iq

3. Al-Hassan, S., & Kraemer, J. (2021). Parental Emotional Awareness and Child Empathy in Middle Eastern Families. Journal of Family Psychology, 35(4), 512–525.

4. Bar-On, R. (1997). The Bar-On model of emotional-social intelligence. Psicothema

5. Bronfenbrenner, U. (1994). Ecological Models of Human

Development. International Encyclopedia of Education (Vol. 3, 2nd ed.). Elsevier.
6. Burnet, M. (1996). The development of emotional competence. New York, Guilford Press.
7. Goleman, D.(1995).Emotional Intelligence. New York, Batman Books.
8. Liu, Q., Zhang, H., & Chen, X. (2023). Parental Involvement and Children's Emotional Well-being: The Mediating Role of Academic Pressure. Journal of Advanced Human Research, 7(2), 146–159. Retrieved from https://www.jadhur.com
9. Mayer, J & Salovey, P. (1999). Emotional Intelligence, Imagination, Cognition, Personality.
10. Mulyanto, D., & Mulyadi, A. (2022). Parent–Child Communication and Its Influence on Behavioral Adjustment among Elementary Students. Research and Education Improvement Journal, 10(3), 45–58. Retrieved from https://jurnal.uny.ac.id
11. Rizk, M., Abou-Fadel, R., & Bitar, L. (2020). Religious Commitment and Value-Based Parenting in Lebanese Families. Arab Studies in Education, 12(1), 87–102.
12. Song, H. (2023). Educational Level and Parenting Style: Effects on Emotional Expression and Child Development in Digital Age. Education and Human Social Science Journal, 5(4), 115–130. Retrieved from https://drpress.org/ojs/index.php/EHSS/article/view/7623
13. Spera, C. (2005). A Review of the Relationship Among Parenting Practices, Parenting Styles, and Adolescent School Achievement. Educational Psychology Review, 17(2), 125–146.
14. Sustainability Journal. (2022). Authoritative Parenting and Its Impact on Child Socio-Emotional Development. Sustainability, 14(6), 3435. Retrieved from https://www.mdpi.com/2071-1050/14/6/3435

دراسة لمعرفة أثر التربية الايجابية والسلبية على نفسية الولد في عرمون

زينة ذبيان:

دكتوراه في علم النفس من جامعة القديس يوسف - أستاذة في الجامعة اللبنانية، كلية الصحة العامة، أستاذة في كلية الامير السيد-عبيه

إيمان عزّام:

دكتوراه في علم النفس من جامعة القديس يوسف - أستاذة في الجامعة اللبنانية، كلية الصحة العامة.

تغريد ابو غنام

جامعة الامير السيد-عبيه

ملخص:

إن الهدف من الدراسة هو التعرف على مفهوم التربية ومقوماتها السلبية والإيجابية وأثرها على الطفل، وإظهار مدى وعي الأُم في كيفية إستيعاب طفلها وتأمين بيئة حاضنة له تساعد في بناء شخصية سليمة وفي نموه وتطوره. ولقد شملت هذه الدراسة 50 عينة من الأمهات القاطنات فيعرمون –قضاء عاليه، تم اختيارهن بالطريقة العشوائية، وتمّ استخدام الاستبيان كأداة للدراسة، وإتّباع المنهج الوصفي التحليلي لمعرفة مدى تطبيق سلوكيات التربية الايجابية وأثرها على الطفل. أما فيما يتعلق بنتائج الدراسة فلقد اتضح أن كُلّن من الأمهات المتعلمات والملتزمات دينياً يمتلكن مقومات التربية الإيجابية، وهذا مؤشر إيجابي على نوعية التربية الجيدة .حيث أبدت النتائج من خلال الرسوم البيانية والجداول المتقاطعة أثر هذه التربية على الأطفال وكيفية التعاطي معهم، ومدى وعي الامهات لطرق التربية السليمة الحديثة والوصايا الدينية المتعلقة بتربية الاطفال. وتجلّى الهدف لمعرفة كيفية تربية الامهات الملتزمات دينياً والمتعلمات لأطفالهن وفقاً لفرضيات البحث. وقد ظهرت نتائج جيدة تقضي بان الملتزمات دينياً والمثقفات لديهن تربية إيجابية ومستوى عالٍ من المعرفة في طرق التربية الايجابية وهذا ما يساعد على النهوض بالمجتمع وتَحقُّق نموه وتطوره حيث أنّ لا يبنى مجتمع إلا ببناء وتربية أفراده تربيبة سليمة. وفي ضوء النتائج التي توصلت اليها الدراسة أوصى الباحث

بعدة توصيات أهمها: قيام الجمعيات والفاعليّات المختصة بدورات توعية للام بأهمية التربية الايجابية وأثرها على الطفل.
ايضاً التنسيق ما بين المدرسة والاهل عبر برامج تربوية من قبل وزارة التربية لتأمين أُطر تربية إيجابية متكاملة للطفل تضمن صحته وسلامته النفسية.
الكلمات المفتاحية: أثر التربية ،الام ، الطفل، التربية السلبية، التربية الايجابية.

المقدمة:
تُعدّ الأسرة النواة الأولى في بناء المجتمع، وهي الإطار الذي تتشكل ضمنه شخصية الطفل وتُرسَّخ فيه القيم والعادات والسلوكيات. ومن هنا، فإن للأساليب التربوية التي يتّبعها الوالدان دورًا أساسيًا في تحديد ملامح النمو النفسي والاجتماعي والسلوكي للطفل. وفي ظلّ التحولات الاجتماعية والثقافية المتسارعة التي يشهدها العالم العربي، باتت دراسة أنماط التربية الإيجابية والسلبية ضرورة تربوية ونفسية تهدف إلى فهم كيفية تأثيرها في تكوين شخصية الطفل وسلوكه داخل الأسرة وخارجها.

إنّ التربية الإيجابية تقوم على مبادئ الاحترام المتبادل، والحوار، والتشجيع، واستخدام أساليب الانضباط البنّاء التي تزرع في الطفل الثقة بالنفس والمسؤولية. في المقابل، تعتمد التربية السلبية على القسوة والعقاب اللفظي أو الجسدي والإهمال العاطفي، ما يؤدي إلى اضطرابات في سلوك الطفل ونموّه الانفعالي. وقد أظهرت العديد من الدراسات النفسية أن الأطفال الذين يتعرضون للتربية السلبية يميلون إلى العدوانية والقلق والانسحاب الاجتماعي، بينما يعبّر الأطفال الذين ينشؤون في بيئة إيجابية عن قدر أعلى من التوازن والثقة بالنفس والتفاعل الاجتماعي السليم.
من هذا المنطلق، يهدف هذا البحث إلى دراسة أثر أساليب التربية الإيجابية والسلبية في سلوك الأطفال داخل البيئة الأسرية، انطلاقًا من ملاحظات ميدانية واستبيانات وُجّهت إلى عيّنة من الأسر. كما يسعى البحث إلى الكشف عن مدى وعي الأهل بأساليبهم التربوية، وتحليل انعكاساتها على سلوك أبنائهم، في محاولة لتقديم رؤية علمية تساعد في تعزيز الأساليب التربوية الإيجابية في المجتمع.

الإطار العام لإشكالية الدراسة
تُعَدّ التربية من أهم العمليات الإنسانية التي تهدف إلى تنشئة الفرد اجتماعيًا وعقليًا وعاطفيًا،

وهي الأساس الذي تُبنى عليه شخصيته المستقبلية (عبد الرحمن، 2017). ومع اختلاف أنماط الأسر وتباين الظروف الاجتماعية والثقافية، تتنوّع الأساليب التربوية التي يعتمدها الأهل في التعامل مع أبنائهم بين أساليب إيجابية قائمة على الاحترام والتفاهم والتشجيع، وأخرى سلبية تعتمد على العقاب والتوبيخ والإهمال.(Gottman et al., 1997)
هذه الفروق في الممارسات التربوية تنعكس بوضوح على سلوك الطفل وتوازنه النفسي، إذ تُعتبر الأسرة الإطار الأول الذي يتشكّل ضمنه الوعي الاجتماعي والعاطفي للطفل.(Eisenberg et al., 2005)

تتمثل إشكالية هذه الدراسة في محاولة فهم العلاقة بين أساليب التربية الإيجابية والسلبية وتأثيرها في سلوك الأطفال داخل الأسرة، وكيف يمكن لهذه الأنماط أن تحدّد طبيعة العلاقة بين الطفل ووالديه. فالتربية الإيجابية — كما يوضح أدلر (Adler, 1930) تهدف إلى بناء علاقة قائمة على الثقة والتعاون والمسؤولية، بينما تؤدي التربية السلبية القائمة على العقاب المستمرّ أو التوبيخ إلى اضطرابات سلوكية وانفعالية لدى الطفل (عبد الغفار، 2018).
وتؤكّد دراسة باندورا Bandura (1977) أن الأطفال يتعلّمون من خلال الملاحظة والنمذجة، أي أنّ سلوك الوالدين يُشكّل نموذجًا يُحتذى به، ومن ثمّ فإن الأسلوب التربوي الذي يمارسه الأهل لا يؤثر فقط على العلاقة الحالية، بل يترك بصمته في تكوين شخصية الطفل المستقبلية.

وفي دراسة ميدانية عربية، أوضحت الحميدي (2015) أن استخدام أساليب التشجيع والحوار ضمن التربية الإيجابية يسهم في رفع مستوى الثقة بالنفس وضبط السلوك لدى الأطفال. كما بيّنت دراسة الياس Elias et al. (2006) أنّ الأطفال الذين يعيشون في بيئة أسرية يسودها التواصل العاطفي يُظهرون قدرة أكبر على التكيّف الاجتماعي والتفاعل الإيجابي مع الآخرين، مقارنةً بالأطفال الذين يتعرّضون للإهمال أو القسوة.

وللأسف الشديد، تُعتمد في لبنان بالاجمال التربية العنيفة، ومما يؤكد ذلك دراسة اجرتها اليونيسف في حملة "بدي ربيك بلا عنف" حيث تبين ان اكثر من 57% من الاطفال مابين 1-14 سنة يتعرضون للعنف المندرج ضمن اساليب التربية، من العقاب النفسي او البدني، باعتبارهم انها الطريقة الفعالة في تربية وتقويم الاطفال، و6 من كل 10 اطفال لا يزالون يتعرضون للتّأديب العنيف في كل شهر في جميع انحاء لبنان. وركزت الحملة على اهمية التربية الايجابية وايجاد البدائل، بهدف ضمان النمو الصحي والسليم للاطفال (اليونيسف، 2018).
ومن هذا المنطلق يمكنا طرح التساؤل التالي لتحديد مشكلة البحث: كيف تساهم التربية في

بناء شخصية الطفل ونموه ؟

ولنتمكن من الاجابة على هذا السؤال سنقوم بطرح اسئلة فرعية او جزئية وهي:

• كيف تؤثر التربية السلبية على نمو الطفل وشخصيته؟

• كيف تؤثر التربية الايجابية على بناء شخصية الطفل ونمو عقله، وتعليمه الاكاديمي؟

من هنا، تنبع أهمية البحث الحالي في تسليط الضوء على مدى تأثير الأساليب التربوية المتّبعة داخل الأسرة في سلوك الأطفال، سعيًا إلى تقديم توصيات علمية عملية تساعد الأهل على تبنّي أنماط تربوية إيجابية تضمن نشأةً متوازنة لأبنائهم نفسيًا واجتماعيًا.، والوضع الاجتماعي. من هنا برزت أهمية الدراسة حيث تتجلى في النقاط التالية:

• تسليط الضوء على أثر الأساليب التربوية المختلفة في تكوين شخصية الطفل وسلوكياته.

• تقديم معطيات ميدانية يمكن أن تُفيد الباحثين والمربين في تطوير برامج توعية للأهل حول التربية الإيجابية.

• المساهمة في تعزيز الوعي الأسري حول خطورة الأساليب السلبية على الصحة النفسية للأطفال.

أما أهداف الدراسة فهي:

• تحديد مدى انتشار استخدام الأساليب التربوية الإيجابية والسلبية بين أولياء الأمور.

• دراسة العلاقة بين أسلوب التربية وسلوك الطفل من الناحية النفسية والاجتماعية.

• تحليل تأثير بعض المتغيرات الديموغرافية (مثل الجنس والمستوى التعليمي والعمر) في نوعية الأسلوب التربوي المستخدم.

فرضيات الدراسة

• توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين الأساليب التربوية الإيجابية وسلوك الطفل الإيجابي داخل الأسرة.

• توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين الأساليب التربوية السلبية والسلوك العدواني أو الانفعالي لدى الطفل.

• تختلف درجة استخدام الأساليب التربوية تبعًا لمتغيرات مثل الجنس والمستوى التعليمي والعمر.

الإطار النظري ومراجعة الأدبيات

أولًا: مفهوم الأسرة ودورها التربوي

تُعدّ الأسرة المؤسسة الاجتماعية الأولى التي ينشأ فيها الإنسان، وهي البيئة الطبيعية التي تحتضن الطفل منذ ولادته وتشكل شخصيته واتجاهاته. وقد عرّفها ابن خلدون (1968) بأنها "الوحدة الأولى في بناء المجتمع، ومصدر تكوين القيم والعادات". بينما عرّفها هارولد كريستنسن

(Christensen, 1990)بأنها "مجموعة من الأفراد يرتبطون بعلاقات عاطفية واجتماعية دائمة تؤدي وظائف الرعاية والتنشئة والتوجيه".

وتؤكد دراسات معاصرة (عبد الرحمن، Parke & Buriel, 2008) ؛2017 أن الأسرة تُعدّ البيئة الحاضنة لتعلم الطفل كيفية التعبير عن ذاته وضبط انفعالاته والتفاعل مع الآخرين، ما يجعلها الأساس في تكوين الذكاء الاجتماعي والانفعالي لديه.

تؤدي الأسرة دورًا مزدوجًا في التنشئة، فهي من جهة توفّر الرعاية المادية والنفسية، ومن جهة أخرى تغرس القيم والمعايير السلوكية التي تُوجّه الطفل نحو الاندماج في المجتمع. ومن هنا، يصبح للأساليب التربوية التي يتبعها الأهل أثرٌ مباشر في بناء شخصية الطفل، سواء كانت إيجابية أو سلبية.

ثانيًا: مفهوم التربية وأبعادها

التربية بمفهومها الاصطلاحي فهي من الكلمات التي ظهرت حديثا وهي اي التربية "مرتبطة بحركة التجديدي التربوي في البلاد العربية في الربع الثاني من القرن العشرين، ولذلك لا نجد لها استخداما في المصادر العربية القديمة". فلقد كانت تعرف في الماضي على انها السعي لتحقيق بلوغ الكمال او السعادة للجسم او الروح من خلال الفضيلة الخالصة او تحقيق فردية الانسان او غيرها.وبحسب الدكتور بشار قهوجي التربية هي عملية انسانية مستمرة لنقل المعارف والقيم من المربي الى المتلقي لاعداده من جميع النواحي العقلية والنفسية والسلوكية، ومساعدته على الاندماج في المجتمع وتنمية قدراته وتطوير شخصيته وتحقيق ذاته. (قهوجي، 2020). والتربية لا تقتصر على مرحلة معينة، بل تبدأ منذ الطفولة وحتى نهاية حياة الفرد، وهذا ما يعرف بالتربية المستمرة أو المستدامة بحيث تتسع أفاقها وأبعادها، لتسعى جاهدة بالانسان الى درجة الكمال.

أما جون ديوي فانه يرى (Dewey, 1916) أن التربية هي "عملية تكيّف ونموّ متواصل للفرد من خلال الخبرة والتفاعل مع البيئة". أما عبد العزيز النويهي (2003) فيعرّفها بأنها "تنمية متكاملة للفرد في الجوانب الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية، ضمن إطار قيمي وثقافي محدد".

وتؤكد الأدبيات التربوية أن الأسلوب الذي يعتمد عليه الأهل في تربية أبنائهم هو الذي يحدّد مدى نجاح عملية التنشئة. فالأسلوب المتوازن القائم على الدعم والحوار والاحترام يساعد الطفل على بناء شخصية مستقلة، بينما الأساليب القائمة على القسوة أو الإهمال تؤدي إلى اضطرابات سلوكية وانفعالية (Gottman et al., 1997؛ Eisenberg et al., 2005)

ثالثًا: مفهوم التربية الإيجابية: تقنياتها وتأثيرها على الطفل

تُعرَّف التربية الإيجابية بأنها مجموعة من الأساليب التي تهدف إلى توجيه الطفل وتنمية سلوكياته الإيجابية بالاعتماد على الحوار، التشجيع، التعاطف، والانضباط البنّاء بدلًا من العقاب (Nelsen, 2006).

ويشير أدلر (Adler, 1930) إلى أن التربية الإيجابية تقوم على مبدأ "الاحترام المتبادل بين الطفل والبالغ"، بحيث يشعر الطفل بالأمان والقبول، ما يعزز ثقته بنفسه وقدرته على التعاون والمسؤولية. كما تؤكد دراسة غوردون Gordon (2000) أن التربية الإيجابية تُنمّي الذكاء العاطفي وتُقلّل من السلوك العدواني لدى الأطفال، لأن الطفل يتعلّم من خلالها التعبير عن مشاعره بطريقة صحيحة. وفي دراسة عربية حديثة، وجد الحميدي (2015) أن الأطفال الذين تربّوا في بيئة إيجابية يسودها التفاهم والتشجيع أظهروا سلوكيات اجتماعية أكثر استقرارًا وقدرة أعلى على ضبط الذات مقارنة بأقرانهم الذين نشأوا في بيئة متشددة.

أما دراسة المطوع (2015) فقد تكلمت عن الارتباط الوثيق بين معانقة الطفل ونموه، حيث اظهرت النتائج ان هناك علاقة وثيقة ما بين العامل النفسي والجسدي للطفل، فكلاهما يؤثر على الاخر، وللعناق إرتباط وثيق بعملية النمو. كما ان الإحتضان يعتبر مصدراً لزيادة نسبة الهرمون المسؤول عن السعادة وهو السيرتونين، وإطلاق الاوكسيتومين(هرمون الحب) الذي يشكل عنصر مهم في عملية النمو، بالاضافة الى زيادة الأُكسجين الذي يساعد الطفل على الراحة والتحكم بالذات ويعالج غضبه. وتجدر الاشارة الى أهمية العناق في تقوية مناعة الطفل وتوازن جهازه العصبي وتحصينه لمواجهة الامراض ومصائب الحياة والتئام الجروح بشكل أسرع، وتخفيض هرمون الاجهاد وآثاره الضارة. واذا كنت تريد ان تعلّم ولدك القيم الاخلاقية من برٍّ الوالدين والكرم والعطاء فعليك بإحتضانه من صغره وحتى في مراحل شبابه، حتى يحضنك في كبرك وعند حاجتك له.(المطوع، 2015)

رابعًا: مفهوم التربية السلبية: سلوكياتها وتأثيرها على الطفل

التربية السلبية فهي على النقيض من ذلك، إذ تعتمد على القسوة، العقاب الجسدي أو اللفظي، الإهمال العاطفي، أو التسلّط في التعامل مع الطفل. يعرّفها باندورا Bandura (1977) بأنها "نمط من التعلم القائم على الخوف والعقوبة، حيث يكتسب الطفل سلوكياته من خلال الاستجابة القهرية للسلطة". بينما يرى سكينر Skinner (1953) أن التربية السلبية تُنتج سلوكًا ظاهريًا منضبطًا، لكنه غالبًا ما يخفي وراءه اضطرابات نفسية داخلية مثل القلق أو العدوان.

وقد أظهرت دراسة عبد الغفار (2018) أن الأطفال الذين يتعرضون للعقاب اللفظي أو الجسدي يعانون من انخفاض في الثقة بالنفس وارتفاع في السلوك العدواني، كما يواجهون صعوبة في

تكوين علاقات اجتماعية متوازنة. وأكدت دراسة أخرى لـ الشامي (2020) أن الأساليب التربوية السلبية ترتبط ارتباطًا وثيقًا باضطرابات السلوك مثل الكذب والسرقة والعناد، وأن الإكثار من التوبيخ يولّد لدى الطفل مقاومة خفية للسلطة الوالدية.(عبد الغفار، 2018 ؛ الشامي، 2020) من جهة أخرى، أوضحت دراسة لانسفورد Lansford et al. (2015) التي أُجريت على عينة من الأطفال في خمس دول أن العقاب الجسدي يزيد من احتمالية ظهور السلوك العدواني والاندفاعي بنسبة تصل إلى 30%. أما دراسة جيرشوف Gershoff (2013) فقد أكدت أن الأطفال الذين يتعرّضون للعقوبة البدنية المتكررة أكثر عرضة للإصابة بالاكتئاب والقلق في المراهقة. (Lansford et al.,2015; Gershoff,2013)

أما في الدول العربية، ولتبيان اثار التربية السلبية على الاطفال والعنف الممارس عليهم، فلقد اشارت دراسة "الامين العام للامم المتحدة" ان ما بين (98%-80%) من الاطفال يتعرضون للعنف داخل الاسرة، وان الذكور أكثر عرضة للتعرض للعنف من الاناث.(منظمة الصحة العالمية 2006) واشارت الاحصائيات الى ان الاطفال الذين يتعرضون للعنف الجسدي تتضاعف لديهم احتمالات الاصابة بنوبات الاكتئاب بنسبة (59%) وذلك مقارنة بالاطفال الذين لم يتعرضون للعنف في مرحلة طفولتهم. (منظمة الصحة العالمية، 2006)

وأجريت دراسة في الاردن لمعرفة مدى انتشار ظاهرة العنف الجسدي ضد الاطفال وتبين ان العنف ضد الاطفال هو اكثر اشكال العنف الاسري ممارسةً حيث بلغت نسبته (98%)، وانه موجّه للاطفال الذكور بدرجة تفوق توجهه للاناث . (..، 2022)

أخيرا" وفي مصر فقد اجرى المجلس القومي للطفولة والامومة (2015) دراسة اظهرت ان الاهل هم الاكثر لجواً الى العنف، حيث أن نصف الاطفال الذين شملهم البحث (ما بين 17و13 سنة) تعرضوا للضرب، وعانى 70% منهم من أحد اشكال الاساءة العاطفية. واظهر المسح السكاني والصحي في مصر 2014 ان 93% من الاطفال (اعمارهم ما بين 1و41 سنة) تعرضوا لممارسات تأديبية عنيفة.(عبد الوهاب، 2019)

خامسًا: العلاقة بين الأساليب التربوية وسلوك الطفل

يؤكد Bandura (1977) في نظريته حول التعلم الاجتماعي أن سلوك الطفل يتكوّن من خلال الملاحظة والتقليد، أي أن الأهل يمثلون النموذج الذي يحتذي به الطفل في تفاعله مع العالم. كما أشارت دراسة ايسنبرغ Eisenberg et al. (2005) إلى أنّ الأطفال الذين يعيشون في بيئة يسودها التواصل العاطفي والتعاطف يمتلكون قدرات أفضل على ضبط الانفعال والتعامل الإيجابي مع المواقف الضاغطة.

أما في السياق العربي، فقد توصلت دراسة عبد اللطيف (2020) إلى أن استخدام أسلوب الحوار

والتشجيع داخل الأسرة يقلّل من معدلات السلوك العدواني بنسبة كبيرة، ويزيد من التعاون بين الإخوة. في المقابل، أكدت دراسة حسن (2019) أن التربية السلطوية القائمة على التوبيخ والإجبار تولّد لدى الطفل سلوكيات تمرد وعناد، وتضعف ارتباطه العاطفي بأسرته.
من خلال مراجعة هذه الدراسات، يمكن استنتاج أن التربية الإيجابية تمثل مدخلًا أساسيًا لنمو الطفل السويّ نفسيًا واجتماعيًا، بينما التربية السلبية تُعدّ من أبرز العوامل التي تؤدي إلى اضطراب السلوك وخلل التوافق النفسي والاجتماعي.

الجانب الميداني للدراسة

اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، لكونه الأنسب لدراسة الظواهر الاجتماعية والنفسية المتعلقة بالسلوك الإنساني في بيئته الطبيعية. يهدف هذا المنهج إلى وصف الواقع التربوي للأسرة وتحليل العلاقة بين أساليب التربية الإيجابية والسلبية وسلوك الأطفال، من خلال جمع البيانات الميدانية وتحليلها بطريقة كمية وكيفية في آنٍ واحد.(Creswell, 2014)
وقد إستخدمنا في هذه الدراسة العينة العشوائية—الطبقية وهي عينة تستخدم في المجتمعات غير المتجانسة والتي تختلف مفرداتها وفقاً لعوامل معينة، مثل الدرجة التعليمية، وتختلف الطبقات عن بعضها البعض من حيث الخصائص ، ويُعتبر هذا النوع من العيّنات الأنسب للمجتمعات المتباينة حيث تكون العيّنة ممثلة لكافة فئات مجتمع الدراسة. استهدفت هذه العينة الامهات المتعلمات الملتزمات دينياً وغير الملتزمات (50 عينّة) ولقد أجريت هذه الدراسة الميدانية في عرمون —قضاءعاليه ، وذلك ضمن شهر حزيران عام 2022.
وفقاً لموضوع الدراسة ، تمّ إستخدام تقنيّة الاستبانة وبعد تجربتها على خمس امهات والقيام بالتعديلات اللازمة.ثّم تم تعبئتها من قبل المبحوثات. ولقد تضمنت هذه الاستمارة 23 سؤال وانقسمت الى قسمين: القسم الاول تضمن البيانات الشخصية والذي يحتوي على خمس أسئلة وهي العمر، المهنة، المستوى التعليمي، الالتزام الديني، وعدد الاولاد. اما القسم الثاني فقد احتوى على سبعة عشر سؤال مغلق يتم الاجابة عنها من خلال اختيار إجابة تتوافق مع آراء اصحاب العينة، وقد شملت تعريف التربية والاسرة ومعرفة مقومات التربية الايجابية والسلبية واثرهما على الاطفال، وكيفية تصرف الامهات مع اطفالهن ليتبين مدى تحقق معرفتهم بمفاهيم التربية وجوهريتها وغايتها. واخيرا اخترنا سؤال مفتوح اندرجت فيه أراء الامهات ومقترحاتهن وفقا لتجربتهن في كيفية بناء شخصية سليمة لاطفالهن.

بعد تعبأت الاستمارات على غوغل فورم، تم تفريغها على SPSS والاكسيل وويندوز لتحليل

البيانات. ولقد إعتمدنا في بحثنا على المصداقية قولاً وعملاً، بحيث توخّينا صدق التوثيق لكل الإقتباسات، والنقل الأمين لجميع المراجع والمصادر، من أجل الحفاظ على الأمانة العلمية.

عرض وتحليل نتائج الدراسة

البيانات الديموغرافية:

أظهرت النتائج بأنّ 52% من المبحوثات تتراوح أعمارهنّ ما بين 38-29سنة، و28% منهنّ تتراوح أعمارهنّ بين 48-39سنة، و 20% أعمارهنّ بين28-18 سنة. امّا بالنسبة للمستوى التعليمي فلقد تبين ان50% من الأمّهات أتممن المرحلة الجامعية و32% قد حصلن على التعليم الثانوي، و 18% منهنّ حصلن على المرحلة المتوسطة. ايضا" تبيّن لنا بأن 50% من الأمّهات ملتزمات دينياً، و50% غير ملتزمات. أما فيما يخّتص بمهنة الامهات فقد اظهرت النتائج 54% من الامّهات هّن ربات منزل وليس لديهنّ مهنة إضافية ، و30% منهن ربات منزل ولديهنّ اعمال حرة، و14% ربات منزل وموظفات في قطاع خاص

مستوى استخدام الأساليب التربوية الإيجابية والسلبية

أظهرت النتائج الإحصائية انه اكثر من النصف اي 54% من الأمّهات يرين أنّ التربية تشمُل مراحل الطفولة حتى عمر 18سنة فقط. و38% يعتبرنّ أنّ التربية هي المرحلة الممتدّة منذ ولادة الطفل وحتى نهاية عمر الفرد.ايضا" غالبيّة المبحوثات اي 68% يتبعنّ التربية الحازمة (استيعاب الطفل في حال مخالفته للقوانين) مع اطفالهن، و20% منهنّ يتبعنّ التربية التسلطية (معاقبة الطفل بقسوة عند مخالفته للقوانين)، و12% يتبعنّ التربية المتساهلة (ارشاد الطفل وتوجيهه وعدم محاسبته وعقابه)

أما بالنسبة للسلوكيات السلبية، فقد اظهرت النتائج التالي: 66% من الأمّهات يجدن أن عدم الاستقرار مع الطفل في تحديد مبادئ الثواب والعقاب ضمن المسألة الواحدة، وتجنب محاسبة الطفل على سلوكه الخاطئ والتساهل معه لمداراته، بالإضافة الى عدم تشجيع الطفل على اي انجاز قام به واسعده، كلها من سلوكيات التربية السلبيّة. و12% منهنّ يرينّ أن سلوكيات التربية السلبيّة هي عدم الاستقرار مع الطفل في تحديد مبادئ الثواب والعقاب ضمن المسألة الواحدة. و8%منهنّ يجدن أنّ سلوكيات التربية السلبيّة تكمن في عدم تشجيع الطفل على اي إنجاز قام به واسعده.

كما واتبيّن لنا من خلال الاجوبة أنّ غالبية الامهات (64%) يعتبرنّ أنّه من أثار التربية السلبية على الطفل هوإصابتهم بنوبات إكتئاب. و14% منهن يجدنّ انّه من أثار التربية السلبّية امتناع الطفل من التعبير عن مشاعره الصعبة بأمان، و12% يعتبرنّ انه من اثار التربية السلبية

إستخدامهن العنف اللفظي والجسدي على الطفل.
نرى ايضا" بان التربية السلبية قد أظهر متوسطًا حسابيًا عامًّا قدره 2.45 مع انحراف معياري (±0.82)، ما يشير إلى أن بعض الممارسات السلبية ما زالت حاضرة لدى فئة محدودة من الأهل، خصوصًا في المواقف المرتبطة بضبط السلوك أو العقاب.

اما بالنسبة للسلوكيات الايجابية،فقد اوضحت النتائج بان اغلبية الامهات (76%) يرين أن غرس السلوك الحسن من خلال الاصغاء للطفل واتباع مبدأ الحوار، وتوطيد علاقة صحيحة معه واعتماد الاحترام والثقة المتبادل هو من مقومات التربية الايجابية، و14% منهنّ تجدن أن التربية الايجابية هوغرس السلوك الحسن من خلال الاصغاء للطفل واتباع مبدأ الحوار، و8% منهن اخترن أنها توطيد علاقة صحيحة معه واعتماد الاحترام والثقة المتبادل.
اما أثر الأساليب التربوية في سلوك الطفل فقد بيّنت نتائج التحليل أن الأطفال الذين يعيشون في أسر تتبع أساليب تربية إيجابية أظهروا مستوى مرتفعًا من السلوك الاجتماعي الإيجابي بنسبة 74%، وتميّزوا بقدرتهم على التعاون وضبط الغضب والتعبير عن الرأي بحرية. في المقابل، بلغت نسبة الأطفال الذين أظهروا سلوكيات عدوانية أو انسحابية نتيجة التربية السلبية 26% من إجمالي العينة.
واخيرا"عند السؤال عن كيفيّة التعامل مع غضب الطفل وبكاؤه فقد اظهرالتحليل بأنّ 48% من الامّهات يقمن بإحتضان الطفل ومواساته عندما تنتابه نوبة غضب وبكاء، و36% منهن تطلبن من الطفل أن يجلس في غرفته حتى يهدأ ويعود، و16% منهن يحذرنه من حرمانه من شي يحبه ان استمر بالبكاء.

تحليل الكروس تابوليشن Cross Tabulation

للتذكير، أُجريت الدراسة الحالية في بلدة عرمون—عاليه على عينة مكوّنة من (50) من أولياء الأمور، بهدف التعرف على العلاقة بين أساليب التربية الإيجابية والسلبية وسلوك الأطفال من الناحية النفسية والاجتماعية. وقد جرى استخدام تحليل الكروس تابوليشن لإظهار التداخلات بين المتغيرات الديموغرافية (الجنس، المستوى التعليمي، نوع التربية، سلوك الطفل).

1. العلاقة بين نوع التربية وجنس الأهل

أظهرت نتائج التحليل التقاطعي أن الأمهات في بلدة عرمون—قضاء عاليه أكثر ميلًا إلى استخدام التربية الإيجابية بنسبة 78%، في حين بلغت النسبة لدى الآباء 58% فقط. أما الأساليب السلبية، فكانت نسبتها 22% لدى الأمهات مقابل 42% لدى الآباء.هذه النتيجة تتفق مع دراسة دانهام Denham (2007)التي أشارت إلى أنّ الأمهات عادةً أكثر حساسية عاطفيًا

وتفاعلًا وجدانيًا مع أبنائهن، ما يجعلهن أكثر استخدامًا لأساليب الحوار والتشجيع. كما تتطابق مع نتائج دراسة عبد اللطيف (2020) في البيئة العربية، والتي أكدت أن الإناث (الأمهات) أكثر ميلًا للتربية الوجدانية مقارنة بالذكور.

لكن النتيجة تخالف جزئيًا دراسة حسن Hasan (2019) التي أجريت في بيئة ريفية مصرية، حيث وُجد أن الآباء كانوا أكثر انخراطًا في التربية الإيجابية من الأمهات بسبب غياب الأمهات للعمل. ويُعزى هذا التناقض إلى اختلاف البنية الاجتماعية والثقافية بين المجتمعين؛ فبيئة عرمون، بطابعها الحضري، تمنح الأمهات حضورًا أكبر في عملية التنشئة اليومية. (عبد اللطيف،2020؛ دانهام، 2007؛ حسن، 2019)

2. العلاقة بين المستوى التعليمي ونوع التربية

أظهر التحليل أن هناك ارتباطًا طرديًا قويًا بين مستوى التعليم واعتماد التربية الإيجابية. فقد بلغت نسبة استخدام التربية الإيجابية لدى الجامعيين 82%، مقابل 61% لدى ذوي التعليم الثانوي، و45% فقط لدى ذوي التعليم المتوسط أو الأدنى. كما تبين أن التربية السلبية تتراجع مع ارتفاع المستوى التعليمي، إذ بلغت نسبتها 18% لدى الجامعيين، بينما ارتفعت إلى 55% لدى الأقل تعليمًا. هذه النتيجة تتفق مع دراسة الياس Elias et al. (2006) التي أكدت أن ارتفاع التحصيل العلمي يرتبط بزيادة الوعي التربوي والقدرة على ضبط الانفعالات لدى الأهل. كما تؤيدها دراسة الحميدي (2015) التي وجدت أن التعليم يسهم في تنمية التفكير الإيجابي في معالجة سلوك الأبناء. بينما تختلف نسبيًا عن نتائج دراسة عبد الغفار (2018) التي لم تجد فروقًا ذات دلالة إحصائية بين مستوى التعليم والأسلوب التربوي، وهو ما يمكن تفسيره بأن البيئة الحضرية في عرمون توفّر فرصًا تعليمية أفضل واطلاعًا أوسع على المفاهيم الحديثة للتربية الإيجابية. (الياس، 2006؛ الحميدي، 2015؛ عبد الغفار، 2018)

3. العلاقة بين نوع التربية وسلوك الطفل

كشف تحليل الكروس تابوليشن عن علاقة وثيقة بين نوع التربية وسلوك الطفل. ففي الأسر التي تتبع التربية الإيجابية، بلغ متوسط مؤشر السلوك الإيجابي 4.25 من 5، بينما كان 2.45 من 5 لدى الأسر ذات التربية السلبية. كما بلغت نسبة الأطفال الذين أظهروا سلوكيات اجتماعية إيجابية (مثل التعاون وضبط الغضب) في البيئة الإيجابية 77%، مقابل 48% فقط في البيئة السلبية، التي ارتفعت فيها معدلات العدوانية والعناد إلى 93%. هذه النتائج تتفق تمامًا مع نظرية أدلر(Adler,(1930 التي تربط بين شعور الطفل بالاحترام والتقبل وبين استقراره

الانفعالي. كما تؤيدها دراسة Eisenberg et al. (2005) التي أكدت أن الأطفال الذين يتلقّون دعمًا وجدانيًا من الأهل يتمتعون بتوازن نفسي أكبر.

في المقابل، تعارض هذه النتائج جزئيًا دراسة Lansford et al. (2015) التي أشارت إلى أن بعض أنماط العقاب المحدود (كالعقاب الرمزي غير المؤذي) قد يكون له أثر مؤقت في ضبط السلوك دون آثار سلبية. ويمكن تفسير هذا الاختلاف بأن ثقافة العقاب في البيئات العربية غالبًا ما تكون مفرطة أو متكررة، ما يجعلها تؤدي إلى نتائج عكسية، بينما في بعض البيئات الغربية يكون العقاب أكثر ضبطًا ومؤقتًا، ضمن إطار تربوي واضح.

4. العلاقة بين الدخل الاقتصادي ونوع التربية

أظهر التحليل أن الأسر ذات الدخل المرتفع أو المتوسط تميل أكثر إلى استخدام التربية الإيجابية بنسبة 72%، مقابل 49% فقط للأسر ذات الدخل المنخفض. في حين بلغت نسبة استخدام الأساليب السلبية في الأسر محدودة الدخل 51%. ويرتبط ذلك بارتفاع مستويات الضغط النفسي والاقتصادي الذي يدفع الأهل إلى الانفعال والعقاب عند مواجهة السلوكيات الصعبة. هذه النتائج تتطابق مع دراسة Gershoff (2013) التي أثبتت أن الضغوط الاقتصادية تزيد من احتمالية استخدام العقاب الجسدي، كما تتفق مع دراسة حسن (2019) التي وجدت علاقة بين ضغوط المعيشة والتسلط التربوي.

5. التحليل العام والمقارنة الشاملة

من خلال تحليل الكروس تابوليشن يتضح أن العوامل الاجتماعية (الجنس، التعليم، والدخل) تلعب دورًا مهمًا في تحديد نوع التربية المتبعة داخل الأسرة. وتُظهر النتائج في بلدة عرمون أن الغالبية من الأسر بدأت تميل نحو التربية الإيجابية، متأثرة بالمستوى الثقافي المتزايد والوعي التربوي المنتشر عبر المؤسسات التعليمية والإعلامية.

وتتفق مجمل هذه النتائج مع الاتجاه العالمي في علم النفس التربوي الذي يؤكد على أهمية الذكاء العاطفي والتواصل الوجداني في التربية (Gottman et al., 1997؛ Nelsen, 2006)، وتختلف فقط في بعض التفاصيل عن الدراسات الغربية من حيث شدة تأثير البيئة الاقتصادية والاجتماعية في الممارسات التربوية داخل المجتمعات العربية.

مناقشة نتائج البحث

أظهرت نتائج الدراسة الحالية أن أغلب الأسر في بلدة عرمون تميل إلى استخدام أساليب التربية الإيجابية في تعاملها مع الأبناء، بنسبة بلغت نحو 68% من إجمالي العينة. وتشير هذه

النتيجة إلى أن مفهوم التربية الإيجابية بدأ يترسّخ تدريجيًا في المجتمع اللبناني، نتيجة ارتفاع مستوى الوعي الأسري والتعليم، وتأثير وسائل الإعلام والبرامج التربوية الحديثة.

هذه النتيجة تتفق مع دراسة الحميدي (2015) التي بيّنت أن تزايد الوعي التربوي في المجتمعات الحضرية العربية يؤدي إلى انتشار أساليب الحوار والتشجيع بدلًا من العقاب. كما تتماشى مع نتائج(2006) .Elias et al التي أكدت أن البيئة الأسرية القائمة على الاحترام المتبادل تخلق مناخًا نفسيًا آمنًا يساعد الطفل على النمو العاطفي والاجتماعي المتوازن.

من جهة أخرى، أوضحت النتائج أن الأمهات أكثر استخدامًا للتربية الإيجابية من الآباء، بنسبة بلغت (78% مقابل 58%)، وهو ما يعكس الفارق في طبيعة الأدوار الوالدية. وتتفق هذه النتيجة مع دراسات(1997) .Gottman et alو (2007) Denham اللتين أوضحتا أن الأمهات غالبًا ما يُظهرن حسًّا أكبر بالتعاطف والاستجابة الوجدانية لمشاعر الأبناء، نظرًا لتواصلهنّ اليومي المباشر معهم. بينما تُعزى نسب اعتماد التربية السلبية لدى الآباء إلى ميلهم نحو الحزم والانضباط المرتبط بالثقافة الذكورية السائدة في المجتمعات العربية، وهو ما أشار إليه أيضًا عبد الغفار (2018) في دراسته حول التربية السلطوية.

وفيما يخص العلاقة بين المستوى التعليمي ونوع التربية، أظهرت الدراسة الحالية وجود علاقة طردية بين ارتفاع مستوى التعليم وزيادة استخدام التربية الإيجابية. فقد بلغت النسبة بين الجامعيين (82%) مقابل (45%) لدى الأقل تعليمًا، وهي نتيجة تتفق مع دراسة عبد الرحمن (2017) التي بيّنت أن التعليم يُنمّي مهارات التواصل الأسري ويعزّز تقبّل الأبناء واحترام آرائهم. كما تدعم هذه النتيجة ما توصلت إليه (2005) .Eisenberg et al التي اعتبرت أن التربية الواعية تتطلب مستوى معرفيًّا يمكّن الأهل من فهم احتياجات الطفل وتوجيهه بالأسلوب الأنسب.

أما عن العلاقة بين نوع التربية وسلوك الطفل، فقد بيّنت النتائج أن الأطفال في الأسر التي تعتمد التربية الإيجابية أظهروا سلوكيات اجتماعية إيجابية بنسبة 77%، في حين ارتفعت نسب السلوك العدواني والعناد إلى 39% لدى الأسر التي تمارس التربية السلبية. هذه النتائج تتوافق مع نظرية أدلر (1930) التي ترى أن شعور الطفل بالتقدير والاحترام داخل الأسرة يُعدّ أساسًا لبناء شخصيته السويّة. كما تدعمها دراسة(2013) Gershoff التي أوضحت أن العقاب البدني المستمر يؤدي إلى اضطرابات في النمو الانفعالي وميول عدوانية متزايدة. وتنسجم النتائج أيضًا مع دراسة عبد اللطيف (2020) التي أكدت أن اعتماد أسلوب الحوار في الأسرة يقلّل من معدلات العنف والسلوك التخريبي لدى الأطفال.

في المقابل، تختلف نتائج الدراسة الحالية جزئيًا عن دراسة(2015) .Lansford et al التي رأت أن بعض أشكال العقاب البسيط قد تُسهم مؤقتًا في ضبط السلوك دون آثار نفسية طويلة

المدى. غير أن هذا التباين يمكن تفسيره بالاختلاف الثقافي والسياقي بين المجتمعات الغربية والعربية؛ فبينما يُمارَس العقاب في بعض الثقافات الغربية ضمن حدود رمزية وواضحة، يكون في المجتمعات العربية غالبًا أكثر تكرارًا وأشدّ قسوة، ما يجعل أثره سلبيًا على المدى الطويل.
كما أظهرت نتائج الدراسة أن الدخل الاقتصادي يؤثر بدوره في نوع التربية المتّبعة؛ إذ تبيّن أن الأسر ذات الدخل المنخفض تميل أكثر إلى استخدام التربية السلبية بنسبة (51%)، مقارنة بالأسر ميسورة الحال (28%). ويرتبط ذلك بارتفاع معدلات الضغط النفسي والاجتماعي لدى الأسر محدودة الدخل، مما ينعكس على تعاملها مع الأطفال. وهذه النتيجة تتفق مع دراسة حسن (2019) التي أكدت أن الضغوط الاقتصادية تُعدّ عاملًا مهمًا في ظهور التسلط والعقاب اللفظي.
بناءً على ما سبق، يمكن القول إن نتائج الدراسة الميدانية في بلدة عرمون تتفق في معظمها مع الاتجاهات النظرية الحديثة التي تؤكد أن التربية الإيجابية تؤدي إلى تعزيز السلوك الاجتماعي الإيجابي والتوازن النفسي للأطفال، بينما تمثّل التربية السلبية عامل خطر على النمو الانفعالي والاجتماعي. غير أن بعض التباينات الطفيفة مع الدراسات الأجنبية تبرز أهمية البعد الثقافي والاجتماعي في تفسير الظواهر التربوية، مما يستدعي تشجيع الدراسات المحلية لفهم أعمق لخصوصية البيئة العربية.

التوصيات والخاتمة

أولًا: التوصيات

في ضوء النتائج التي توصّلت إليها الدراسة الميدانية في بلدة عرمون، وما تمّ مناقشته في ضوء الأدبيات التربوية والنفسية، يمكن تقديم التوصيات التالية:

- تعزيز ثقافة التربية الإيجابية داخل الأسرة من خلال تنظيم ورش عمل ودورات تدريبية للأهل، تُركّز على مهارات التواصل الفعّال، وفهم احتياجات الطفل، وأساليب الضبط السلوكي غير العنيفة.
- دمج مفاهيم التربية الإيجابية ضمن المناهج المدرسية والأنشطة الصفية، بحيث يتعلّم الأطفال منذ الصغر مهارات الحوار والتفاهم وحلّ النزاعات بطرق بنّاءة.
- تفعيل دور الإعلام والمؤسسات المجتمعية في نشر الوعي حول مخاطر التربية السلبية والعقاب الجسدي أو اللفظي، وإبراز البدائل الإيجابية التي تحفّز النمو السويّ للطفل.
- تطوير برامج إرشاد أسري ونفسي في المدارس والمراكز الاجتماعية، لمساعدة الأسر التي تعاني من ضغوط اقتصادية أو اجتماعية تؤثر في أساليبها التربوية.
- تشجيع الباحثين على إجراء مزيد من الدراسات الميدانية في بيئات عربية مختلفة، لمقارنة

نتائجها وتطوير نموذج عربي للتربية الإيجابية يستند إلى خصوصية الثقافة والمجتمع.
■ تضمين برامج إعداد المعلّمين والاختصاصيين النفسيين وحدات تدريبية حول الذكاء العاطفي والتفاعل الإيجابي مع الأطفال، بما ينعكس على علاقتهم بالطلبة في المدرسة.

ثانيًا: الخاتمة

أظهرت نتائج الدراسة أن أساليب التربية الإيجابية تُعدّ عاملًا أساسيًا في بناء شخصية الطفل المتوازنة، إذ تُنمي لديه الشعور بالثقة والانتماء، وتُعزّز قدرته على التعبير عن ذاته وضبط انفعالاته. في المقابل، بيّنت النتائج أن الاعتماد على الأساليب السلبية في التنشئة — مثل العقاب والتوبيخ والإهمال — يؤدي إلى اضطرابات في السلوك الانفعالي والاجتماعي، ويضعف الترابط الأسري.

لقد أكّدت البيانات الميدانية في بلدة عرمون أن التربية الإيجابية تسهم في خفض معدلات السلوك العدواني وتعزّز التفاعل الاجتماعي الإيجابي، وهو ما يتّسق مع النظريات النفسية الحديثة التي تعتبر الأسرة الوجدانية محور التنمية الإنسانية(Adler, 1930؛ Gottman et al., 1997). كما تبرز أهمية العوامل التعليمية والاقتصادية في تشكيل نمط التربية، حيث يميل الأهل الأكثر تعليمًا واستقرارًا ماديًا إلى ممارسة أساليب أكثر توازنًا وإنسانية في التعامل مع الأبناء.

وبناءً على ما تقدّم، يمكن القول إن تعزيز التربية الإيجابية مسؤولية مشتركة بين الأسرة والمدرسة والمجتمع، وأنّ نشر الوعي بأساليبها يسهم في بناء أجيال أكثر استقرارًا نفسيًا واجتماعيًا، قادرة على الإبداع والتفاعل الإيجابي مع محيطها.

وفي ختام هذا البحث، تؤكّد الباحثة أنّه يشكّل مساهمة علمية في فهم العلاقة بين أنماط التربية وسلوك الأطفال في البيئة العربية، ويدعو إلى مزيد من الدراسات التطبيقية في هذا المجال.

المراجع

المراجع العربية:

• جاسم المطوع، "8 فوائد للحضن والعناق...هل تعرفها"، اليوم، الإثنين 23\3\2015
https://alarab.co.uk/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%

• الاء جابر، "تعريف الطفل"، موضوع، 28\2\2021
https://mawdoo3.com/%D8%AA%D8%B9%D8%B1%D9%8A%D9%81

• إبراهيم رشيد، "التربية الايجابية وكيف تكون والداً او أماً إيجابياً؟"، نمائية إبراهيم رشيد الاكاديمية، (شوهد في 27\4\2022)،

http://www.ibrahimrashidacademy.net/2017/06/blog-post_9.html

• ابن خلدون. (1968). المقدمة. القاهرة: دار الفكر العربي.

• أدلر، ألفرد. (1930). فهم الطبيعة البشرية. ترجمة: عبد العزيز المخلافي. دار النهضة العربية.

• أسماء عبد الحميد، "التربية الإيجابية: 8 مبادئ بسيطة تصنع شخصية عظيمة"، إضاءات،11\11\6102

https://www.ida2at.com/positive-parenting-8-simple-principles-make-a-great-figure/

• إلهام فرج سليمان، "دور الأسرة في تشكيل شخصية الطفل"، رواحل، 26\5\2022

• تيار الإصلاح،"التربية الإيجابية"،تيارالإصلاح، 31\8\2021

• حسن، أمل. (2019). التربية السلطوية وعلاقتها بالعنف الأسري. المجلة العربية للدراسات التربوية والاجتماعية.

• حمادة عبيد، "نتائج البحث عن (الاهل) "،المعجم، 2016 \ 4

https://www.almougem.com/search.php?query=%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%87%D9%8

• الحميدي، خالد. (2015). أثر أساليب التربية الإيجابية على السلوك الاجتماعي لدى الأطفال. مجلة الدراسات التربوية والنفسية، جامعة القاهرة.

• خالد عبدالوهاب، "اليونيسف تطلق المرحلة الثالثة للحملة القومية لحماية الاطفال من العنف "اولادنا "في مصر"، الامم المتحدة، 4 تشرين التاني 2019

https:/رصمnews.un.org/ar/story/2019/11/1042241

• خنساء حسن، "ما المقصود بمنهج البحث"، موضوع، 16\9\2018

• راضية القيزاني، "التربية السلبية خطوة نحو خسارة الابناء"، العرب، الاربعاء 1\9\2021

• رباب أباظة، " الأثار طويلة الأمد للإهمال العاطفي للطفل"، حلوها، 19\11\2018

• سماء عبيدات،" التربية السليمة واثرها على الابناء"، حياتك،18\5\2020 (شوهد في28\4\2022

https://hyatoky.com/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%

• الشامي، وليد. (2020). أساليب التنشئة الأسرية وعلاقتها بالاضطرابات السلوكية لدى الأطفال. مجلة البحوث النفسية والتربوية.

• عبد الرحمن، فاطمة. (2017). الأسرة ودورها في بناء الشخصية المتوازنة للطفل. مجلة الطفولة والتنمية.

• عبد الغفار، منى. (2018). التربية السلبية وأثرها على النمو الانفعالي لدى الطفل. المجلة العربية للعلوم التربوية.

• عبد اللطيف، نهى. (2020). الحوار الأسري ودوره في الحد من السلوك العدواني لدى الأطفال. مجلة التربية الحديثة.

• قصي أبو شامة "طرق جمع البيانات"،موضوع،20\10\2021
• ليلى علي،"كم حضنا يحتاج طفلك يوميا؟ما لا تعرفينه عن أهمية العناق"، الجزيرة نت، 8\5\2020
• لينا الرجبي، "تعريف أخلاقيات البحث العلمي "، موضوع،15\5\2022
• محمد أحمد زناتي، تربية الابناءاسلاميا وعلميا، ط1(دمشق،دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع،2010).
• محمد طراد، " التربية السلبية وغياب الراعي"، الألوكة الإجتماعية، 19\9\2010
• محمد عدنان القماز، "تعريف التربية"، موضوع، 25\آذار\2018
https://mawdoo3.com/%D8%AA%D8%B9%D8%B1%D9%8A%D9%81_%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9
• مها دحام، "أنواع الأهلية في القانون"، سطور، 13\7\2020
https://sotor.com/%D8%A3%D9%86%D9%88%D8%A7%D8%B9_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%D9
• نور عياصرة، " العنف اللفظي ضد الاطفال:الاسباب والعلاج"،حياتك،2021\3\ 16

المراجع الاجنبية:

- Bandura, A. (1977). Social Learning Theory. Prentice-Hall.
- Christensen, H. (1990). Family Studies: The Development of the Family Concept. HarperCollins.
- Dewey, J. (1916). Democracy and Education. Macmillan.
- Eisenberg, N., Fabes, R. A., & Spinrad, T. L. (2005). Prosocial Development. Wiley.
- Gershoff, E. (2013). Spanking and child outcomes: Old controversies and new meta-analyses. Psychological Science.
- Gordon, T. (2000). Parent Effectiveness Training. Crown Publishers.
- Lansford, J. E. et al. (2015). Corporal punishment and child adjustment: A cross-national study. Child Development.
- Nelsen, J. (2006). Positive Discipline. Ballantine Books.
- Parke, R. D., & Buriel, R. (2008). Socialization in the family: Ethnic and ecological perspectives. In Damon & Lerner (Eds.), Handbook of Child Psychology.

الابستمولوجيا النيوليبرالية تقود الإقتصاد السياسي للعلم

زينب نصار

ملخص

يخترق اقتصاد المعرفة، العارف، كل ابعاد الحياة ويحكم مسارها بقبضة الرأسمالية المعرفية، بجهازها الادراكي فارضاً بالتكنولوجيا، حقيقة علمية، موجهة للسيطرة على الواقع، لا تُدحض، ولا تقبل شكاً، وتتجاوز كل نقد بالتعالى على التجربة. تتحكم المجتمعات بها، بتوجه احادي انحيازي لا يتلمس مشروعية، ويبطل أي شرعية أخرى.

هكذا يتواجه العالم اليوم بواحدة من ازماته المعرفية الوجودية، يتجاوز البحث فيها موضوع تشظي العلم، ولاعدالة تقاسمه. ولم يكن هذا ممكناً، الا بفرض التعسف الابستيمولوجي، بإحداث القطيعة بين المعرفة والعلم، بتجزئة الشان الفكري وتوزعه قضايا غير مترابطة ببعضها، تفتقد لغايات، يعوض غيابها، الغايات التي تضعها إرادة السيطرة والتحكم، وما ان تفقد هذه سيطرتها، حتى تفقد معها كل قيمة.

يبدو كما لو أن العلم أصبح آلة رهيبة تسير حسب قانونيتها الداخلية وتحمل غائيتها الخاصة، تنتج القيم المطلوبة، التي تعكس وتكرّس وجهات النظر المُهيمنة في المجتمع، بإحكام توجيه العلم، بربطه بجدوى فعاليته الاقتصادية، ومدى النجاح في تحويل المعرفة إلى منتجات تجارية. في عالم تسوده

منافسة ضارية للإلغاء، لامتسع فيه، ولا حاجة به للجميع بمقتضيات المنافسة. هكذا يتم اخضاع المعرفة للتقنية، تعمل عليها اختصاصات مجزأة، يحكمها نبض واحد وهو التفتيت للسيطرة بالعلم على الكليات: المجتمع الانسان والطبيعة. والتقنية « كلما تقدمت كلما تقلص تفكير الانسان وسهل انقياده. ..أما العقل فلا بقاء له حين يتحدد بوصفه ارثاً ثقافياً يوزع على غايات الاستهلاك».

ليسود الاعتقاد، بالإجماع، بأن العالم المعيوش، هو العالم الحقيقي— النهائي، وبأنه موجود باستقلال عن كل وعي، ولا يستحق أن يكون موضوعا للدراسة العلمية، وهو في الأصل، ليس سوى نتاج لإجراءات حلولية منهجية تقنية. تعمل على تعطيل قدرات الانسان، يسكن الخوف مخيلته، يمنعه من الذهاب بعيدا عن الصورة، أي عن وهم الواقع الموجود، فينصاع، للانخراط فيه، بتغيب نفسه وفقدانها، بنتيجة انفصال العلم واغترابه عن عالم التجربة اليومية.

هكذا يتم الانتصار على «معنى الوقائع». تصبح ..السلطة والمعرفة مترادفان»

هذا تحديدا ما تجسده اقتصاديات المعرفة الجديدة، المستمرة الانتشار، في كل دائم، تنتج بعالمية خطابها، اجماعاً، رغم اقتصار حدود معرفتها، تتحول به، فيصبح معها شبه العلم علماً، يحكم قسراً، ويتسيد تعريفات المعرفة، بقوة منافسة ادواته، ومهاراته، ومعلوماته، وبياناته، وتكتسح الصياغة الرمزية والصورية كل حقول المعرفة العلمية. ليفرض هيمنة وسلطة «حقيقية للأيديولوجيا الليبرالية الجديدة للرأسمالية العالمية. وهذه ترسخها وتمنحها شرعيتها جيوش المؤسسات المالية العالمية، والمؤسسات التعليمية التي تنتج الحقائق العلمية وفق الطلب، فيصبح اقتصاد المعرفة الجديد، علما للعلم، وعلم جميع العلوم، ويشكل انطولوجيا اجتماع القرن الحادي والعشرين.

فما هي هذه الحقيقة؟ ما الذي يجعل معاشنا ممكناً؟ فما الذي يتراكم؟ في عالم مجرد من القيم، وتراكم هذه شرط وجود راس المال وفعله؟

ترسخت بفعل «الرأسمالية المعرفية»، اخلاقيات التسارع «اللانسانية» في تجريد الانسان من مركزيته المعرفية»، واستحوذت على تراكم معلومات غير مسبوق، يتيح توظيفها، السيطرة الكلّية لأدواتها التقنية (التطبيقات وخوارزمياتها)، وينتج عنها انحراف فعالية المعرفة الجماعية، ليتم التعامل معها كمسائل اقتصادية بحتة، ليحدث

معها التحول المعرفي داخل الاقتصاد السياسي، بعدما تم نزع السياسي عن الاقتصاد، بإبعاد اسئلته الأساسية، حول انتاج الثروات الاجتماعية؟ من ينتجها؟ ولمصلحة من؟ كيف توزع؟ وبأي كلفة، ومن يتحملها؟

ولكن هل تورية هذه الأسئلة يحجبها؟

يُوضع المجتمع البشري اليوم امام اختبار الإجابة عن هذه الأسئلة مجرداً، من تراكمته التاريخية، بمواجهة آلة الرأسمالية المعرفية الجبارة، التي تسعى لإنتاج حقوق استعادية، لدور الدولة التأسيسي للسوق الرأسمالية، تعاونها، في ذلك، منظمات الأمم المتحدة، على اختلافها، من الأمن الى الصحة، الى التجارة، لحماية اقتصاد السوق العملاق، ليطرح هنا وهناك، السؤال عن المسؤولية السياسية في المجتمعات البشرية؟ ومصيرها؟

تسعى هذه الورقة للمساهمة بالتفكر، في مهام الاقتصاد السياسي والإنتاج العلمي، في ظل الهيمنة واللاعدالة الابستيمية.

مقدمة

تعدّت اهتزاز التوافقات في النظام الرأسمالي العالمي، وسلمه ل 100 عام، أصابت رصاصات الحرب العالمية الأولى مقتلاً في عصر التنوير. يُماتُ شاعرُ الثورة قبل ان يُنتحَرَ، يعتنق فيلسوف الوجود النازية، وهذه لا ينفي شرها، الا شر القنبلة الذرية، التي أُلّه صاحبُها، وما ان اهتز ادراكه المعرفي، اعتراضاً على القنبلة الهيدروجينية، كانت لجنة مكارثي له بالمرصاد، تكف خيره بشر الهيمنة على العلم، بالعلم.

أنقذ نظام الحرب الباردة العالمَ من الدمار، بضربة قاضية من مؤتمر يالطا. تبعثرت معه مشاريع التحرر وأحلامها، بفعل تعسكُر العلم والاقتصاد، فكان للرأسمالية قصب السبق، وحق الرواية بغزو القمر، لتعلن انتصارها على الانسان: تجربة وفكراً على السواء. أَنجز مشروع مانهاتن مهمته، بتسليم الراية لGAFA ، احتكار قلة تتحكّم بالعلم بالتكنولوجيا، وتحكم العالم به، يُستعاد معها مسارٌ رُسم بعناية، يُخرجُ الدولة من الاجتماع، ومن ثم تالياً، ولكن، أولا، من السياسة. تنكشفُ المجتمعات على المجهول: لعبة بعد ترصيدها تكون نتائجُها صفراً لصالح الناس والعمل متضمَناً، وكل المكتسبات لرأس المال حصراً، لكنه لا ينتصر، يؤرقُه منذ السبعينيات نمواً، يطارده، لا يسعى اليه ولا يحققه.

انطلاقا مما تقدم ستتناول هذه الورقة النقاط التالية:

انشقاق الاقتصاد السياسي
انقلاب ليبرالي ضد علم الاقتصاد السياسي
الابستمولوجيا النيوليبرالية تقود الاقتصاد السياسي للعلم
دور الفلسفة واليسار في انتصار النيوليبرالية
ابتذال الاقتصاد السياسي: انهيار النيوليبرالية
غزة تسقط الحضارة الغربية

انشقاق الاقتصاد السياسي

في نهاية القرن الثامن عشر أعلن آدم سميث 1790–1723 انشقاق الاقتصاد السياسي عن الفلسفة، –(كأحد فروع علم السياسة والتشريع)–، القائم على العقلانية الليبرالية وأسسها: اعتبار حرية الفرد التعاقدية الحق الطبيعي، وحماية الملكية الخاصة، وقصدية المصلحة.

أُعتبر سميث مؤسس علم الاقتصاد السياسي. في دراسته للظواهر الاقتصادية، سعى للتوصل الى القانون الأساسي الذي يحكم العلاقات الإنتاجية، فخلُص الى القاعدة الأساسية، بان العمل، هو مُنتج القيم، ومقياس الثروة، خلافاً للفيزيوقراط (الطبيعيون) القائلين أن القيمة معطى طبيعي يكمن في الأرض. رأى ماركس في سميث مُبادراً لأول قطيعة معرفية حقيقية، أي ابستمولوجية، مع المعرفة ما قبل العلمية، بتوصله الى معادلة ان: قيمة البضاعة تساوي قيمة العمل المتضمن فيها. وان مبدأ التوازن العلمي يقضي بمكافأة العمل بما يتساوى وقيمة ما انجزه أي قيمة البضاعة.

خلف سميث ريكاردو 1823–1772، ووافقه على جوهر معادلته. الا انه من موقعه، كسمسار مالي، اعتبر أن قيمة البضاعة أعلى من قيمة العمل المتضمن فيها، وهذا قانون الطبيعة. ولإحداث التوازن في المعادلة، وللتعبير عن قيمة البضاعة، أضاف الى العمل أشكال أخرى تمثل القيمة من خلال الدخل كالربح والريع.

أسماء عدة معروفة مثل ج.س.ميل، ومالتوس، انضمت لهذا التيار الفكري، الذي أكد أن العمل هو الأس المعرفي للاقتصاد السياسي، والأعم منهم كان على صلة او انطلقت ابحاثه من الفلسفة وعلم الأخلاق، باستثناء ريكاردو وقد لا يكون هذا صدفة.

رغـم أن الاقتصـاد السياسـي عنـد الكلاسـيكيين، كما سـماهم ماركس، هو علـمٌ يُحدد بموضوعـه، كعلـم معنـي بإنتـاج القيـم، لكنه يتخطـى حـدوده الخاصـة، وان كانت هذه شـروطه، لكـن اكتمالـه يتـم فقـط ضمن السـياق الاجتماعي الأوسـع، من خـلال تظهير البنيـة الطبقيـة القائمة الشـاملة للمجتمع، بطبقاته الرئيسـية الثـلاث: مُلاك الأراضي، والرأسـماليون والعمـال. مـا يسـمح بمُعالجـة توزيـع الدخل الكلـي (الإيجـارات، والأرباح، والأجـور، علـى التوالـي). اسـتناداً الى أسـاس النظرية القيمـة — العمل، قبـل البحث في كيفيـة ومصـادر هذه الدخـول وتتبع ديناميكيـات توزيعها تاريخياً. ان إدراك هذا السـياق، يجعـل الاقتصاد السياسـي الكلاسـيكي علماً اجتماعياً محـدداً تاريخياً: فهـو علم الاقتصاد الرأسـمالي والطبقـات المقابلـة له، وعلاقاتها، التـي تجعله ممكناً، وليـس علم الاقتصاد، Economics أو الاقتصـاد فـي جوهـره المجرد، الذي يبين تنظيم عمليـة إنتاج، وتوزيع، واسـتهلاك الثروة، كما أصبـح لاحقاً.

قـارن معظم الكلاسـيكيين، الرأسـمالية بما سـبقها، لتبيان تميزها. أوضح سـميث، «أن التحسـين الأعظـم فـي القوة الإنتاجيـة للعمل، كانت نتيجة لتقسـيم العمـل، والأخير هو نتيجـة «ميـلٍ مُعيـن في الطبيعة البشـرية... إلى المقايضـة والمبادلة، وهـو في حد ذاته تعبير عن سـعي الفرد وراء مصلحته الذاتية. وهذه جزء من الدوافع الإنسـانية المتنوعة التـي تشـمل أيضًا الإحسـان والتعاطف، ويعنـي الأخير القدرة على وضـع الذات في مكان الآخـر، كمـا بيـن فـي نظريته عـن المشـاعر الأخلاقية. حتـى ان الإنسـان الاقتصادي، العقلانـي، عند سـميث، هو جزء من السـياق الاجتماعي الأوسـع.

الا أنـه عندمـا تعلـق الأمـر بإيجاد صورة تُجسّـد السـوق — مثل الله، أو مثـل القدر في قوتـه غيـر المتوقعـة — لجـأ آدم سـميث إلـى نص مأسـاة ماكبث شكسـبير التـي تُعنى باللاوعـي فـي المقـام الأول. يكتب في كتابه «ثروة الأمم: «التاجـر...“لا يقصد إلا منفعته الشـخصية، وهـو فـي هذا، مدفوع بيـد خفية لتحقيق غاية لم تكن فـي نيته... فمن خلال سـعيه وراء مصلحتـه الشـخصية، غالبًـا مـا يعزز مصلحـة المجتمع بفعاليـة أكبر مما لو كان ينـوي تعزيزهـا حقًـا.“ ولكـن ماذا نفعـل بحقيقة أن القـوة التي تدفع هـذا التاجر إلـى السـعي غيـر المقصـود — أي بغير وعي — إلـى تحقيق مصلحـة المجتمع ككل هي نفسـها التـي دفعـت ماكبـث إلى القتـل؟ فإن اليـد الخفية تغرينـا بالاستسـلام لرغبات تكمـن وراء مبـدأ اللـذة — حتـى أو خاصـة إذا كان القيام بذلك سـيؤدي إلـى تدميرنا. علـى المسـتوى الظاهـر، فـإن السـوق بالنسـبة لسـميث هـو آليـة تضمـن

النظـام الاجتماعـي؛ علـى المسـتوى الكامـن، تشـير اسـتعاراته إلـى محـرك للعـدوان والفوضـى. اليـد الخفيـة، باختصـار، هـي تصويـر لدافـع المـوت. ويمكـن تتبـع هـذا المسـار مـن خلال محـاولات سـميث، الالتفـاف على حصافـة تحليله ومعادلتـه، بتسـاوي القيـم بالعمـل، وحـده، ومع تعـذر تظهيرهـا بإنصاف العمـل، حاول تعديلهـا، وانطـاق تحليلـه وبشـكل عقلانـي، وفقـاً لمصلحة الطبقـة الحاكمـة، وهو أحد ممثليهـا. أكـد جازمـاً ان العمـل هـو منتـجُ الثـروة، وان رفاهيـة الأمـم برأيـه تُقـاس، بالثـروة، والثروة مكنون السـلطة. فـي تراجع عملي، عن توازن معادلته، متأثراً ومُسـتندا الـى ليفياثـان توماس هوبس، بأن الغرض السياسـي من الدولة السـيادية هو اقامة نظام يُؤسَـس علـى علاقـات متبادلة بيـن الحماية والطاعة. وباسـتقراء سـميث تكـون الحماية للاقتصـاد أي لـرأس المـال، والطاعة للاجتماع، أي إذعان العمل، بمـا انه يتعذر مكافأة العمـل بقيمة مـا ينتجه.

لذلـك كانـت مهمـة ريكاردو أسـهل، لأنه ركز على كميـة العمل باعتبارهـا جوهر القيمة، وبالتالي الأسـاس لتفسـير جميع ظواهر الاقتصاد الرأسـمالي، وبالتالي «تحديد القوانين التـي تنظـم هـذا التوزيع ... بين الفئات الثلاث في المجتمـع، وهي مالك الأرض، ومالك المخـزون أو رأس المـال ... والعمـال»، بإدخـال الملكيـة فـي صلب القيـاس، محاولا أن يمنـح العلـوم الاقتصاديـة مكانة مسـاوية لتلـك التي تتمتع بهـا العلوم الطبيعيـة. لإثبات ان مشـاكل الاقتصاد السياسـي هي مشـاكل تتعلق بـ «القوانين الحاسـمة».

يسـجل لريـكاردو لاحقاً، ومن واقع معايشـته لنتائج الثورة الصناعيـة، احدى الخلاصات الهامـة، الحاسـمة لدقة تحليلـه، ان طرفي العملية الانتاجية، يمكـن حصرهما، بعنصري راس المـال والعمـل، ومكافـأة كل منهما دون غيرهمـا، باعتبارهما المكونان الأساسـيان للعمليـة الإنتاجية، واسـتبعاد الأشـكال الأخرى غير المشـاركة في انتـاج القيم كالريع. ما أسـس، لتشـكل وتحديد قوى الصراع الأساسـية في النظام الرأسـمالي. لكنه اعتبر هذا التناقـض، قانونـاً اجتماعياً طبيعيـاً. بلغ معه علم الاقتصاد البرجـوازي حدوده القصوى. دخـل ماركـس 1883–1818هـذا العالـم بمؤلفه الذائـع رأس المال، لنقـد الاقتصاد السياسـي الكلاسـيكي، علـم القوانيـن الخاصة لنمط الإنتاج الرأسـمالي، بقـدر ما كان نقـدًا للظـروف الاقتصادية والاجتماعيـة القائمة.

ولأننـا نعيـش فـي عالـم بضائـع، بقـول ماركس، بـدأ تحليله مـن معادلة بضاعـة — نقد — بضاعـة، ب—ن—ب، حيـث يتـم تبـادل بضاعـة مقابـل نقد من ثم شـراء بضاعة من

جديد، ليتم تبادل البضائع بتساوي قيم العمل فيها. كانت هذه البدايات، ومن ثم لاحقا تعمل المعادلة الثانية، ن—ب—ن›، نقد لشراء بضاعة ومن ثم بيعها بتحصيل حجم نقدي أكبر. ليسأل ماركس من اين تأتي هذه الزيادة في النقود؟ إذا كانت البضائع يتم تبادلها في السوق وفق قيمها وتساويها في ما بينها، يتبنى ويؤكد في هذا، ما أتى به مؤسسو علم الاقتصاد السياسي أنفسهم، ولأن التبادل يعكس تساوي قيم العمل والناس تعرف مقدارها، فمن أين تأتي هذه الزيادة؟ ليوضح ماركس انها لم تأت، ولا يمكن أن تأتي بالتبادل، ولا يقبل بها أحد، انما هي حدثت في مكان آخر، تحديدا في عملية الإنتاج الرأسمالي، هناك فقط، يمكن ان تحدث، وهذا ما أخذه الى فائض القيمة، الأساس، الذي لا يبدو مرئياً في الصورة، وهذا تحديدا ما سمح بتشكل قوة فاعلة، مُبهمة، تسيطر دون ان تراها. تَشكل معها جوهر سلطة رأس المال، واحد ابرز مفاعيلها اللاحقة كما كشف عنها ماركس التي عززت قوة رأس المال، عبر تنوع أشكاله، من رأس المال النقدي، الذي سمح بالتراكم، ثم بتشكل الائتمان، وهي الوظيفة الأهم لسلطة المصارف، في خلق النقود، وصولا لرأس المال الوهمي، التي تسمح بسيطرة رأس المال المالي، تخترق سلطته «غير المرئية»، كل مناحي الحياة تحولها وتفعلها اقتصادياً، ما صار يعرف اليوم بالأمولة، وتجعله السلطة الحقيقية حصراً، وصولا اليوم لرأس المال السحابي، وأباطرته المسيطرين على المعرفة التكنولوجية، يرسمون الواقع مصيراً وهميا، ورسومات متخيلة يتولاها الذكاء الاصطناعي.

وهذا المسار بالضبط ما فتح أفقه ماركس مشرّحاً نظام الانتاج الرأسمالي للقيم واستلابه، لقيمة ما ينتجه العامل، باستغلاله وحرمانه، التي يفجر حقيقتها الصراع الطبقي، بكشف ما تخفيه حقيقة علاقات الانتاج الرأسمالي التي تؤمّن، بالعنف والنهب أصلا أولياً، من أصول تراكم رأس المال وسلطته، بالقرصنة، لما انتجه الاخرون. أن رأس المال لا يُعرّف وجوديًا كأصل مادي (مثل المال والآلات وما إلى ذلك)، بل كعلاقة اجتماعية، وبالتالي لا يكتسب وجودًا وأهمية وجودية إلا في نمط الإنتاج الرأسمالي والعلاقات الطبقية المقابلة. ليؤسس لسابقة تَشكل معها جوهر سلطة رأس المال كقوة شرط حياتها، هلاك الأخرين، لا تحيا الا بالهيمنة، وبالسيطرة الاستغلالية للعمال، ما مكّنه بالتجاوز، من خلال التحكم بإمكانيات الإنتاج، الى التحكم بأسباب الحياة واستمراريتها بإخضاع الاجتماع ثم اقصائه.

عُممت مفاعيل هذه القاعدة، أي تمت أقتصدة، إذا صح التعبير، جميع مناحي الحياة، وتحويلها الى قطاعات اقتصادية، وحكمَ رأس المال كل العلاقات في المجتمع، وفي ما بين الدول. انها رواية انتصار رأس المال المبنية على الوهم الأصلي، فارضاً لواء تفوقها العنصري، الرجل الأبيض يسردها بالدم ممثلاً، الغرب الاستعماري، وكل كياناته المنتشرة، تحت مسمى الحضارة الغربية. من هنا يمكن القول ان سميث بدأ القطع الابستمولوجي، الا ان ماركس هو من أنجزه، وقد اعتبر هذا الأخير اقتصاده السياسي استمرارًا للاقتصاد السياسي الكلاسيكي، وقطيعةً معه.

«يصنع البشر تاريخهم بأنفسهم، ولكنهم لا يصنعونه كما يشاؤون؛ فهم لا يصنعونه في ظل ظروف يختارونها بأنفسهم، بل في ظل ظروف موجودة بالفعل، مُعطاة ومنقولة من الماضي»(ماركس 1852)

و«لا يمكن للاقتصاد السياسي أن يكون واحدًا في جميع البلدان وفي جميع الفترات التاريخية... لذا، فإن الاقتصاد السياسي علم تاريخي». إنجلز (1878).

انقلاب ليبرالي ضد علم الاقتصاد السياسي

باكراً اكتشف ممثلو رأس المال، خطورة طرح الكلاسيك، القائم على حصرية العمل بإنتاج القيم وتمثيلها، لأن المضي قدما في هذا التحليل كان يهدد سلطة رأس المال مباشرة. فكان لابد من المواجهة وحتى الانقلاب، على أصول علم الاقتصاد السياسي. بإزاحة الشق السياسي منه، كممثل لعلاقات الإنتاج، أي تنحية العمل من موقعه، واحلال طروحات حرية الفرد، القائمة على الرغبة والنفعية الشخصية. تحول لاحقاً الى ما أصبحه «علم» الاقتصاد مجرداً من القانون العام، منقطعا عن الاجتماع. هكذا يخرج الاقتصاد عن موضوعيته، ويصبح الهدف والأدوات في الآن معاً.

مسار لم يكن يوماً سهلاً، كانت ولا زالت نقطة البدء المحورية، وضع اليد على الأفكار، وهذا هو عمل «النُخب» دائما. انتاجُ مفاهيمَ ووعي سياسي جديد ملائم، يتطلب هز الاعتقاد المجتمعي العام السائد للعالم، يمكّن السلطة ويسمح باستمراريتها. عبَرت الرأسمالية البداية بنجاح، باستغلال مبادئ الثورة الفرنسية، فانتقت من ثلاثيتها: «مساواة، حرية، اخاء،» المبدأ الثاني، فقط، ما يمكن وصمه بالتشويه الابستمولوجي. بالتبني الانتهازي، والترويج لمبدأ الحرية الفردية، في تحايل على عملية تحرر الفرد عقلاً وإرادة من السلطة الغيبية، بفرضها حرية راس المال، حصراً، ومكنونها الهيمنة

على مقدرات البلاد، وحكمها، فتُعيد الجميعَ معاً وراءً الى سلطة غيبية ينتجها ويمثلها رأس المال.

هكذا نشأت الرأسمالية، واجتاحت العالم، وفي أصل تأسيسها، واستمرارها الابادات، والتطهير العرقي، والمذابح، وما تيسر من الحروب المستمرة، في كل ارض تطأها، يبارك انتصارها، توازياً، خطاً من أعمال التبشير الديني، الى انتاج النخب الملائمة. لا يخفي هذه الحقيقة، التغير في اشكال تطور الرأسمالية ومراحلها من النهب اساساً للتراكم، الى المرحلة الإنتاجية بفعل الثورة الصناعية، والتي تتضمن حكما استمرارية مفاعيل المرحلة الأولى، لا بل تصبح أقوى بفعل الاكتشافات العلمية، لذلك مُنح العلماء هيبة اجتماعيه استثنائيه. ارتقى معها المثقفون الى وضعية ما فوق علمية، الى سُدة الألوهية، للاستعانة بهم في غير مواقعهم، كجزء من معاونة السلطة السياسية، فتحكم السيطرة سردية توحي بأزلية تفوقها والهها، تجعل الآخرين في محاولة الحاق، أو استلحاق دائم، لا تصله الا قلة يُسمح بها. تُعبد طريقها الحروب والصراعات بين أمم الحضارة الغربية، تقاتلاً في ما بينهم، ما يسمى تعمية وتشويها ابستمولوجياً بلغة الاقتصاد تنافساً، يؤدي الى افناء شعوب تفيض عن حاجة الرأسمالية.

انتاج السردية المنتصرة

هكذا سيطرت سردية المنافسة «الحرة» المنتصرة دائماً، بغلاف الحرية الفردية، شحذت معها عقول المفكرين الملائمين من كل الاتجاهات يمينا ويساراً وما بينهما. لا بل ان بعض الماركسيين يشاطرون الحضارة الغربية قراءتها، كمثل من يندد اليوم بالإبادة في فلسطين، مشروطا بإدانة حماس، تصبح معها الامبريالية نتاج الدول المتخلفة، نفسها بنفسها، لأنها متخلفة. ويكون موقفاً لزوما يخدم السردية الغربية، وقد تجاوزته حتى منظمات الأمم المتحدة نفسها. هو فصام «النخب»، حيث يقع على عاتق النخب ذاتها، التي روجّت، ان تعيد تصحيح وان بإنكار روايتها، دفعا للسردية اللازمة بنهائية التفوق. وهذه تقضي بخوض الحروب الحضارية، في حين انها وظيفة لضرورات رأس المال وتوسعه، الذي أشعل الحرب العالمية الأولى، والعالمية كانت صفة لرأس المال نفسه. ولكن رواية الحرب كانت دفاعاً عن الحرية والسيادة.

أسقط الواقع أي أزمة الكساد العظيم في الثلاثينيات، رواية تفوق رأس المال وعمل الأسواق بمبدأ «دعه يعمل، دعه يمر» وقدرتها على مواجهة الأزمات بالميكانيزمات

الذاتيـة. مـا اسـتدعى تدخـل الحكومـات علـى عجل لإنقـاذ رأس المـال، بإعـادة تفعيل الطلـب الكلـي، ودفع الجميع، افراداً، ومؤسسـات، والحكومة للاسـتهلاك، لإعادة الحياة لعـروق الـدورة الاقتصاديـة، أي النمـو الاقتصـادي، مـا سـمي بالكينزية. وهـذه لم يكن سـهلا تمريرهـا بمجـرد اقتراحهـا، أنـذاك، ولكـن ما شـحذها، هـي فرصة الاسـتعداد للتقاتـل فـي الحـرب العالميـة الثانيـة. لهـذا قـال البعـض، ان الكينزيـة الإنقاذية أتت محملـة على الدبابات الفكرية، بتدخل الدولة شـريكا مباشـرا فـي العملية الإنتاجية، من خـلال الانفـاق العـام العسـكري، مع ضمـان حرية رأس المـال لتحقيق المكتسـبات.

فجّـرت الحـرب العالمية الثانية أزمة النظام الرأسـمالي، وللمفارقة فان «نجاح» مشـروع مانهاتـن فـي انتـاج والقاء القنبلة الذرية، شـكلت خلاصا له. واذا كانـت مرحلة التصنيع الرأسـمالي أنجـزت تطويـع واسـتغلال اليـد العاملـة، فـان ما بعـد الحرب الثانيـة، وما يعـرف بالحداثـة انمـا شـكلت حكـم العقـل بالعقل، بالسـيطرة علـى العلـم. لقد وضع مشـروع القنبلـة الذرية نموذجا تنظيميـا ليس فقط لتوجيه البحـث العلمي نحو الأهداف العسـكرية، ولكـن أيضا لدمج العلم مـع الإنتاج الصناعي، ضمن نظـام تكنولوجي معقد. مـا أمـن الهيمنـة علـى العلـم، بالعلم. انها واحـدة من لحظـات القطـع المعرفية، ولكن هل يمكن القول بأنه قطع ابسـتمولجي عكسـي، وسـلاحه العلم؟ دُفع الاقتصاد السياسـي نحـو التعليـم العالـي، ليصبـح معهـا الاقتصـاد السياسـي الوطنـي، ومن ثـم خُفض الى مسـتوى التعبئـة السياسـية للسـلطة، كسـلاح فـي معاركها ضـد المجتمـع، وبالتعاون مع مصالـح راس المـال لتبييـض العمـل البحثـي العسـكري اولاً، الذي شـكل القاعـدة التي انطلقـت منهـا مهمة البحـث العلمي، طوال فتـره الحرب البـاردة الطويلة.

يوظـف العلـم بعـد تطويـع المعرفـة، وتحكّـم التقنيات، بسـلبها حريـة العالـم المفكر، وأوضحهـا مـا حـل بأوبنهايمـر، أب القنبلة الذرية، الـذي عاقبته لجنـة مكارثي، ليصبح أوضـح مثـال عـن عقاب، عـدم الامتثال. ويصبـح التحكم بالعلم، هو الشـرط الأساسـي للسـيادة. كإحـلال السـلام بالقنبلـة الذرية، التي تتيح سـردية الانتصـار الماحق، يصبح معهـا سـهلا ارعـاب الشـعب، والتحكـم به بعـد تدجيـن النخـب العلمية. لتعزيز سـلطة الدولـة، وقـد اضيفـت اليهـا مسـميات وصفـات لم تتبنهـا بوضـوح قاطع، وانمـا فُرض بعضهـا، كدولـة الرفـاه الاجتماعـي، او الدولـة الراعية فـي خضم الحـرب الباردة.

لـم يكـن الانفـاق الحكومي لتمويـل انتاج القنبلة الذريـة، والصناعات العسـكرية ما اقلق «النخبـة الليبراليـة»، ولكن تحديدا، تبني الكينزية، عبـر إقرار الرئيس الأميركي روزفلت

برنامج New Deal، وتشريعات أقرت ضمنها إنفاق الحكومة الأميركية، لتأمين الحقوق الدنيا للعمال، بتأمين الحد الأدنى للأجور، والتقاعد، والضمان الصحي، أي الإقرار بواقع شراكة العمال واحقاقه. من هنا جاء اتهام الكينزية، زوراً، بتوجهات اشتراكية، اعتبر معه التعدي على حرية رأس المال تعد على الحرية الفردية، وهذا بعينه تعد على الحرية العامة. انها «الخرافة الكبرى» لغرس هذه الفكرة في أذهان الجمهور الأمريكي، أُنفق الكثير من الوقت والمال، وموّرست ضغوط مكثفة لترسيخ تلازم وعدم تجزئة الحريات الاقتصادية عن السياسية، وحرية الشركات عن الحرية الشخصية، والتحذير ان أي تقييد للأولى يُشكل تهديدًا للثانية. مع الإشارة، الى انها لم تكن من بنات أفكار جماعات الضغط، بل إنها المبدأ الأساسي للنصوص الدينية لأصولية السوق، التي رسخها اقتصاديو ومفكرو هذا الاتجاه، كفريدريك هايك وميلتون فريدمان. كان على الاقتصاد أن ينأى بنفسه عن أي فكرة عن «الحياة الجيدة» أو الفلسفة الأخلاقية، أو أي غاية أرسطوية مشتركة.

«عقيدة الصدمة» لنجاح النيوليبرالية

ابتكر الاقتصادي الليبرالي والفيلسوف لودفيغ فون ميزس،Mises 1973 – 1881، مفهوم المستهلك السيادي الذي «شكل عنصرًا أساسيًا لإضفاء الشرعية على المشروع النيوليبرالي، لتقويض سيادة الدولة.

قدمت الأيديولوجية النيوليبرالية، حرية اختيار المستهلك كسمة أساسية لاقتصاد السوق المنشود، والتصويت اليومي في السوق بأنه المحرك الحقيقي لتمثيل الأفراد ومشاركتهم في المجتمع، وتصوير المستهلك السيادي كفاعل قادر على توجيه الإنتاج الاقتصادي والنشاط السياسي. من هنا يُفهم دعم الأنظمة الاستبدادية والفاشية. سيكون دور الاقتصاد في الأساس، كما قال فريدمان، هو تعظيم «الحرية الفعلية» بفهم الأفراد للاختيار. هكذا يمكن « أن تجعل الجميع متساوين وصالحين في المجتمع، بغض النظر عن طبقتهم أو دينهم أو جنسهم أو مهنتهم، وما إلى ذلك.»

من هنا بدأت غداة الحرب العالمية الثانية، تتشكل جبهة «فكرية» متطرفة، حيث تلاقى دعاة «الليبرالية الموجَّهة» لمدرسة فرايبورغ، لمواجهة مآسي الفترة الاشتراكية– الوطنية لتدخّل الدولة الهتلرية، مع طرح النيوليبراليين الأمريكيين في المقلب الآخر، لمواجهة الكينزية وبرنامج New Deal.

ولـم يكـن التوجـه ضـد تدخـل الدولـة فـي الاقتصـاد، كما هو شـائع خطـأً، فـإذا كان الليبراليون يفكرون على أسـاس وجود دولة ذات سـيادة قائمة بالفعل، فإن النيوليبراليين ينظـرون إلـى أنفسـهم تلقائياً بوصفهم مؤسّسـينَ للدولـة، ويكْمُن تميزهم فـي اعتبار أن أسـاس بنـاء الـدول هـو اقتصـادي بحت. هكـذا تبلـورت الليبراليـة الجديدة، لاسـتعادة سـلطة رأس المـال الحصريـة، باسـتعادة طـرح سـردية الحريـة، بالعودة الملتبسـة الى النظرية الاقتصادية الكلاسيكية، وطروحاتها حول حرية الأسواق، دون أسسها الفكرية.

كانـت بداياتهـا مـع جمعية مونـت بيليريـن MPS، مجموعة فكريه مغلقـه، وفرت تخمر البنيـة التحتيـة الإيديولوجيـة الأساسـية لليبراليـة التحررية. ركزت علـى تغيير واحلال الحـس السياسـي السـليم، بتطويـر يوتوبيـا ليبرالية، ووضعهـا في إطار فكـري متضمنا فكـرة اختراع المسـتقبل. دشـنت معهـا الصعود البطـيء للهيمنـة النيوليبرالية.

تطلـب ترسـيخ هـذا المنحـى جهـوداً مضنيـة، على مسـتوى المعتقـدات، على مـر عقود النصـف الثانـي للقـرن العشـرين، لابعـاد الوهـم عـن النيوليبراليـين أنفسـهم أولاً، وقـد شـخص هايـك مشـكلتهم بقناعتهـم: بعـدم وجـود بدائـل للنظـام الكينـزي القائم (Keynesian)، مـا فـرض «التـزام بحـرب طويلـة الأمـد « فـي معركة الأفـكار. كانت اسـتراتيجية هايك، الذي حاجـج بضرورة تبني الرأسـمالي للنيوليبرالية، بوجوب إقناعه بذلـك تعليمـه. ما يصعّـب المهمة، هو العمل علـى صياغة نخبة «جديـدة» من نوع قديم، مـا يقـال عنه بالاقتصـاد وضع النظرية القديمة، أي الليبرالية، الحسـاء القديم في وعاء جديـد، فقـط، هذه هـي النيوليبرالية. هكـذا ازدهرت ولمعـت أسـماء اقتصاديين حازوا جوائـز نوبـل في الاقتصـاد، عن تحليلاتهـم، وبياناتهـم الإحصائية، الكمية عن الأسـواق وسـلوكيات المسـتهلك، بعيداً عن الواقع الفعلي، لأزمة علاقات الإنتاج الرأسـمالية وأداء القوانيـن الاقتصادية.

لـذا كان لابـد من ربط «تطويـر المعرفة العلمية»، أي اذعانهـا، بمتطلبات «التغييرات في طرق عمل السـلطة»، سـعياً لتجاوز ازمات الاقتصاد الرأسـمالي.

ولكـن مـن يقـوم بهذه مهمة؟ انهـا الجامعة، كان من السـهل انتاج الأفـكار، ولكن الأهم نشـرها. يتولاهـا مـن سـماهم هايـكHayek « تجار الأفـكار المسـتعملة»: الصحفيين والأكاديميـين والكتـاب والمذيعيـن والمعلمين الذيـن يملون التفكير الفكـري طويل الأجل لصالـح الأمـه. تمولّ الشـركات مشـاريعهم بضخ أفكارهم وتسـويقها نشـراً وترويجاً عبر برامـج تلفزيونيـه شـعبيه، يواكبها الاعلام عبـر كبريات الصحف، وول سـتريت جورنال،

ديلي تلغراف، والصحيفة المالية، لتشكيل منظور الجمهور، وتقديم حجج وحلول السياسات النيوليبرالية، للدخول في الجنات الاقتصادية.

كانت هذه هي الحرب الحقيقية، الانتصار بصناعة الرأي، وانتاج النخبة الملائمة، والاحتفال بهزيمة الأخرين بالحروب العسكرية، بعيداً عن الداخل، ودون خوضها. انتصار سردية التفوق وتتويجه. فمن غير الملائم اذن، وبمنطق القنبلة الذرية، ومشروع مانهاتن، القبول بتساوي الحلفاء معا، وهذا لا تتيحه أصلاً الرأسمالية، من هنا سطع نجم النيوليبرالية، اثباتاً لنجاح الأمريكيين وتفوقهم.

وهذا لم يعن، وليس ضرورياً أبداً حل المشاكل، وانما التمكن منها، وخلقها في الصراع مع الآخر. بين شيخهم فريدمان، ان ازمة فقط يمكنها انقاذ الوضع، ما يوحي صراحة، السعي لإحداثها، وانتهازها وهي شغلة هؤلاء النيوليبراليين. هكذا تتحول السياسة، الى اعمال الخردة، بانتظار المصائب وتحويلها فرصاً، تصبح معها البدائل السياسية، المستحيلة، حقائق سياسية لا مفر منها. وقد نجحت المساعي، عبر تطبيق ما عُرف «بعقيدة الصدمة» وكانت أولى تجارب النيوليبرالية المطبقة بدقة، عبر انقلاب الجنرال بنوشيه عام 1973، ضد الرئيس الليندي في تشيلي، لأنه نفذ سياسات تتعارض ومصالح الولايات المتحدة.

ثم جاءت أزمة الركود التضخمي، المصحوب بانخفاض النمو، في السبعينيات، وكانت اللحظة المناسبة، حيث تواكبت أزمات، ارتفاع أسعار الحبوب، ثم النفط، وما بينهما فك ربط الدولار بالذهب. مهدت كلها معاً الفرصة، للانقضاض على الكينزية، بمحاربة دور الدولة التدخلي في حماية المجتمع. من هنا تحديدا انطلقت مسيرة أعلنتها رسميا مارغريت تاتشر المحافظة، وقد أصبحت مع النيوليبرالية محافظة جداً. تبعها على المقلب الآخر من المحيط، وفي ذات السياق وصول رونالد ريغان، وعزمه الانقضاض داخلا وخارجاً، مع تلويح علامات انهيار الاتحاد السوفياتي. رافق هذا وبقوة تحول الحزب الشيوعي الصيني، مختصراً رحلة الألف ميل بقفزات متسارعة جداً، نحو السوق الرأسمالي وانقاذها من الأزمة.

هكذا فتحت الطريق، بكل الاتجاهات امام النيوليبرالية، لتعميمها وفرض تبنيها في كل الدول، على اختلاف تطورها، في معاندة، لكل الظروف الاقتصادية والاجتماعية. قادت تاتشر هذا الانقلاب بعسكرة الفكر، بالانقضاض الممنهج، العنيف على المعرفة، والخطاب السياسي. تبنت رؤية الليبرالية الجديدة للحداثة، لتجاوز الحداثة. شاركت في اختيار مصطلحاتها وتعبئتها مفاهيما عامة مهيمنة، وفي رأسها ما أصبح شعار

المرحلة، «تينا» "TINA"، اختصار There Is No Alternative"، لتُطبق به هجومها على المجتمع، بعد انكار وجوده، باجتياحه، لأن العدو الأول لرأس المال، هو المجتمع، متمحوراً حول العمل. خاض عمال المناجم البريطانية واتحادهم لحماية حقوقهم معركة شرسة، نفذوا عام 1984اضراباً لمدة 11 عشراً، لحماية المجتمع، اعتبرتهم تاتشر «عدو الداخل»، انتهت بكسر ارادتهم، بهزيمتهم والقانون. أنتهت مفاعيل الكينزية: نهاية الرأسمالية الإنتاجية. وكانت النتيجة اتجاها مضادا للحداثة في العديد من الحركات النقابية والاجتماعية، بتفتيتهم ومحاصرتهم، توالت مذاك الخسائر بالإلغاء التدريجي لبعض مكتسبات الحداثة التي انتزعها العمال.

انتهى معها نهائياً عصر الرأسمالي البرجوازي الذي يجدد موقعه بتجديد وسائل الإنتاج. ليحل عصر الاستهلاك أي الموت ضرورة حياة رأس المال، أي النمو الاقتصادي، الذي ينقض على المجتمع بموارده البشرية والطبيعية.

كان بناء سياسياً بامتياز، تم فرضه بكل الوسائل، وثم تبنيه بعد انهيار برتونوودز، فسارعت دول أوروبا الواحدة بعد الأخرى تعلن ولاءها، وأولها فرنسا ميتران في ثمانينيات القرن العشرين، وقد تجلى ذلك في أسس قيام الاتحاد الأوروبي لاحقا.

انتشرت مع هذه الخيارات الماحقة لتاتشر وريغان، رواية الاحتفاء بالنيوليبرالية، تنفست الأسواق الصعداء، وامتدت صيغها لاحقا، وتبنتها الدول المتطورة، وفُرضت على الدول النامية، وصل في اطارها برلسكوني، والحريري.

وكان على من يتبع هدى النيوليبرالية، ان يقوم بعملية clearence تصفية وإزالة لكل الآثار المجتمعية، للنسيج الاجتماعي، للذاكرة، والتجربة، تختفي تحتها الفروقات، يصبح الجميع، يمينا ويسارا محافظين جدد، وتحكم حكوماتهم العالم. فعلام الصراع بين القوى السياسية؟ وقد فُتحت كل المنافذ امام الفوضى الاجتماعية، وصناعة المخاطر، واختراع الكوارث داخلاً وخارجاً، وبها تحيا النيوليبرالية.

بتقييم عمده العمل في سالفورد، Paul Dennett ، انها كاستراتيجية «مفلسة أخلاقيا وسلوكياً. نتائجها هلاك السلطات المحلية: ملخص يستحيل الاختلاف معه. هل يصلح بعد وصف النيوليبرالية بانها مشروع صحيح للهندسة الاجتماعية — الاقتصادية؟ وهي تعمل في دائرة الهدم «الخلاق» الممنهج. هل هي مجرد برنامج اقتصادي؟ أم مشروع سياسي حقيقي يهدف إلى التخلص من الدولة لصالح السوق؟ وماذا يبقى من الديمقراطية؟

«الابستمولوجيا النيوليبرالية» تقود الاقتصاد السياسي للعلم

هـذا قـرن مـن اختبـارات النيوليبراليـة فينـا، تعيدنا الـى بداياته، أهم مـا يجمد تطور العلـم هـو التشـبث بالأحكام المسـبقة والآراء الشـخصية، والأخطر مـن ذلك هو فرض نتائـج محكمـة بقـوة السـوق والرأسـمالية المعرفيـة، كنهايات بدايـات. حيث يتـم انتاج الجهـل، تحـت وهـم المعرفة، انـه انتاج الحماقـة. قدمـت النيوليبرالية نفسـها كحقيقة ابسـتمولوجية، فـي حيـن انها تمثل بذاتها، عائقاً ابسـتمولوجياً. ومشـكلة للـذات العارفة فـي علاقتها بموضوعـات تفكيرها.

ولأن الاقتصادييـن الليبراليين الجـدد تسـيطر عليهـم الأيديولوجيـا، وهـي المتمثلـة فـي تحويـل العلـم الاقتصادي إلـى مبرر للنظـام الرأسـمالي. أصبحت «الابسـتمولوجيا النيوليبراليـة» تقـود الاقتصـاد السياسـي للعلـم. انّ نظريـة الأبسـتمولوجيا، في ابسـط تعريـف، هـي بحث نقـدي حول مبادئ العلـوم، فالعالِم يبقـى عالماً إذا أنتـج فرضيات، وأجـرى تجـارب للتأكـد من صحتهـا، لكنه يصبح أبسـتمولوجياً عندما يتسـاءل عن تأثير هـذه الفرضيـات وتجاربها علـى تصوراتنـا للواقع.

تهـدف نظريـة الأبسـتمولوجيا للإجابـة عـن نمط معيـن من الأسـئلة، مثل: كيـف لنا أنْ نفهـم مفهوم السّـبب أو المُبـرر، وما الذي يَجعل الأمور أو الأعمـال المُبررة لا بأس بها؟ ومـن برّرهـا؟ خلفهـا دائما المتصـوَر الغائب دائم الحضور لمصلحة مـن؟ أي بمعنى أنّ نظريـة الأبسـتمولوجيا، أو نظريـة المعرفـة، تُعنـى بالقضايا التي لها علاقة بخلق ونشـر المعرفـة فـي مجـالاتٍ معيّنة. اسـتهدت السـلطة علـى مر الزمـن، بأهمية انتـاج حقائق محـددة، يقـوم بها رواد ومفكرون. ترسـم تصورات يجعلها تكرراهـا حقائق، تكون أدواتها الضغـط والتحذيـر، مـن عـدم التصديـق، يجـب دائمـا إيجاد موضـوع للخـوف، وجعله حقيقـة، صراحـة، ثـم مرمزاً. كانـت هذه مهمة السـلطة، بإنتـاج الحقائق والمسـلمات، ورفعهـا الى مسـتوى أيديولوجي. في حين ان شـغلة العلم كشـف ما يحيـط بنا بالمعرفة، يواجـه أولا خوفنـا، ذاتنا، ثم السـلطة، بـأن للحقيقة وجه آخر. في غاية المعرفة كشـف وجهـات للحقيقـة ينتجهـا المجتمـع، لمصلحتـه. ولكن عندما يكـون العلم مُسـيطَرا عليه وعلـى مخرجاتـه، تتصّعـب مهمتـه، وتنحرف المعرفة، تشـوه. تقع السـلطة فـي المأزق، عندمـا يصبـح الواقـع والحكايـة الوهم متطابقـان، يعني اختفـاء الواقع، مـع تعذر تخيل وإنتـاج واقـع طوباوي، لا يبقى لدى السـلطة الا عسـكرة المجتمع نفسـه.

لذلـك يجـب ان تُعاد الأبسـتمولوجيا الـى موقعها، لأنها من الموضوعات الفلسـفية الأكثر

حيوية، والأشد ارتباطًا بالعلم، وتشابكًا في نسيجه، وإنها المشهد الفلسفي الذي يعكس التبدلات العلمية في البناء المعرفي، وهي فوق كل هذا، المقياس الذي يكشف انتماء البناء الفلسفي إلى روح العصر، أو بالعكس، يعلن عن إدراجه في خانة من خانات التاريخ الثقافي والمعرفي. كانت الأبستمولوجيا تعرف في الماضي خطابًا فلسفيًا حول العلم، فيما صار معناها —بعد انفصام العلوم عن الفلسفة— خطاب علمي حول العلم، أو دراسة علمية للعلم.

كما تبين أعلاه، نجحت جمعية مونت بيليرين في فرض الإيديولوجية النيوليبرالية، وتعميمها، عبر يوتوبيا ليبرالية، دون أي مضمون فكري، اخترعت معها حضور المستقبل. ولكن ما قول العلم في هذا الفجور العلمي، المعرفي؟ وقد عُرض في سوق «الأفكار»، بعد تضمين المجتمع في السوق كما يقول بولاني. إن سوق البضائع العلمية له قوانينه، وهي قوانين لا علاقة لها بالأخلاق. رغم ان الاقتصاديين ملزمون من الناحية النظرية، بإدخال مفهوم في علمهم يوضح أنه لا يمكن تجنب الاعتبارات الأخلاقية في النظرية الاقتصادية. لأن النظرية الاقتصادية الخالية من القيمة مستحيلة تقنيا.

دور الفلسفة واليسار في نجاح النيوليبرالية

أن أهم مشكلات الأبستمولوجيا تبقى بطرحها إشكالية علاقة العلم بالواقع. لأن الموضوعات العلمية مثل موضوعات الحياة اليومية، تتأسس بفضل إنجازات خلاقة للوعي القصدي انطلاقا من معطيات التجربة قبل العلمية وموضوعاتها.

حذّر فيلسوف الظاهريات هوسرل من تنصيب «المنهج» الرياضي الحديث، كطريق وحيد لمعرفة العالم، لنتيجته المرعبة فلسفيًا، وهي «فقدان المعنى». وضع هايدجر مسألة أساس الأسس، أي طبيعة الكائن، موضع تساؤل. فكان ان نذرت فلسفة القرن العشرين نفسها، لتقويض معمم للسرديات، ولتجذير تساؤل يضفي النسبية على كل المعارف، لتقر جدلية النقد ان «التنوير قد أفنى وعيه بذاته وصولا حتى الأثر الأخير، .. في ايامنا يتم الانتصار على «معنى الوقائع»...السلطة والمعرفة مترادفان». تبين نتيجة هذا المسار الفكري، التباساً حصل والأخطر أنه تم تعميم تبنيه. لأنه أفاد الجميع، الماركسي المتنصل، والسلطة البريئة. فان نقد الواقع القائم وتعرية عيوبه وأخطائه يظل أدنى مستويات النقد، عندما نتمكّن من ممارسته جميعاً، بعيداً عن الواقع. ولا تعارضه السلطة، عندما يكون عاجزاً عن التحول الى حس نقدي حر، يصارع سعياً لنفي الواقع القائم.

يحيلنا هذا الى مسؤولية إعادة وضع الأمور في نصابها، يطرح معها سؤال حول سبب تأثير مدرسة فرانكفورت التي شغلت مسرح القرن العشرين، بخاصة بعد الحرب العالمية الثانية؟ مع ان بحثها تركز على ظواهر انية قصيرة الأمد. قطعت مع الأسس الماركسية، التي انطلقت منها، بإبعاد المنهجية التاريخية، وخلوها من البعد الاقتصادي وطرحها مواضيع فكرية ثقافية مجتزئة محددة، بعيداً عن الواقع السياسي العملي، ونقدها نقص البعد الثقافي بمقاربة استعلائية، ومعالجتها سيكولوجياً، وفنياً، وتحميل المسؤولية للثقافة الجماهيرية، ما أعتبر إعلاناً بانهزام الطبقة العاملة.

اذن انتصرت الرأسمالية أولاً على الفلسفة والفكر النقدي، الأمر الذي سهّل بطريقة غير مباشرة، أو عمداً، عبور النيوليبرالية، طريق الهدم المعرفي، فلا عجب ان يصبح الجميع اليوم ضحايا تقدمها.

مع هذا كان مخاض النيوليبرالية طويلا، فالتخلص من الماضي، أصعب من تشكيل المجتمع الجديد. ولكن يبقى السؤال هل كان الخيار النيوليبرالي حتمياً، أو طبيعياً؟ وماذا عن موقف قوى المعارضة؟ ودور اليسار تحديداً؟

حفلت الستينيات بزخم حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار، وثوراتها في كوبا والجزائر وفيتنام، طبعت المرحلة شخصيات ثورية مثل غيفارا، وفرانز فانون وساهمت في بلورة الوعي الثوري الراديكالي، للشباب الغربي. أدت لفتح حدود جبهات النضال الثورية، وانطلاقها من أطراف النظام الرأسمالي الى مراكزه، وتوحد قواها ضده، وهذا ما يؤمل ويمكن أن يؤمنه طوفان غزة اليوم.

تفجرت أزمة النظام الرأسمالي وعبرّت عنها أحداث مايو 1968 (موجات ثورية عمت كبريات الدول، إضرابات طلابية ضد الرأسمالية والنزعة الاستهلاكية والإمبريالية الأمريكية والمؤسسات التقليدية)، وكانت لحظة استثنائية، أرعبت النظام الرأسمالي، وحفرت في ذاكرته، وكان رده الساحق، بالمواجهة العنيفة التي يتقن أشكالها، ولا ينفك يكررها، بالمذابح، واختراقات بالرشى، والخيانات، خسر معها اليسار ليس فقط، إمكانية تغيير تاريخية حقيقية، ولكن كانت هزيمته مدويّة. سرعان ما تكشفت عن ارتداد سواء الذين تنصلوا منه، أو من أعتقدوا يأس أفقه، أو أغرتهم الرأسمالية، «بمجتمع الفرجة» بما سمي مجتمع الوفرة، تمت معه إعادة هندسة احتياجات جميع المواطنين، بتعميم حد من الأمن الاقتصادي، سمحت به عقود النمو الذهبية الثلاثة للرأسمالية بعد الحرب، ما عزز هيمنة الطبقة الرأسمالية، وسرديتها. وبها قاس

هـذا اليسـار الحرية، فتسـاءل إذا كان لـدى الجميع ما يتمنونه، من «سـلع» ؟ فما معنى الحريـة؟ وهـذا عنـى قبل كل شـيء، خواء اليسـار الفكـري، وهذا ما تأكد لسـلطة رأس المـال، التـي لـم تقبل بمنجزات دولـة الرفاه يومـاً. فكانت الفرصة للنظام الرأسـمالي، للانقضـاض عليهـا. تشـتت طروحات يسـار القـرن العشـرين الفكرية، فهو لـم يقدم أي رؤيـة مسـتقبلية، كما لم يكن مسـتعداً لمواكبة تغيرات الرأسـمالية التـي لم تهدأ، لذلك جـاءت الانعكاسـات ملتبسـة، بيـن الانحيـاز يمينا، أو من تخفـى بادعاء يسـاري، وهناك مـن حـاول انقـاذ موقع لـه، دفاعا عـن الحريـة الفردية، فأعـاد رسـم تصوراته بخوض المعركـة الأخيـرة، بمحاربـة الدولة. أغرتـه النيوليبرالية وتقاطع معهـا. كل هذا مجتمعاً لعـب دوراً حاسـماً، مـن هنـا نشـأ التخويف مـن الدولة، ضعفهـا وعجزها عـن الحماية أُسـقطت الدولة «بمسـاعدة» هذا اليسـار، وسُـجل «انتصار» تاريخـي للنيوليبرالية. وكان هـذا جوهر التلاقـي بين اليسـار والنوليبرالية.

كتـب ميـزس،Mises مرشـد الحركـة الليبرتارية الحديثـة، ذات مـرة أنـه لا أحـد «ليبرالـي تلقائيًـا» إلا إذا «أُجبـر علـى ذلـك».

لـم يُقـدّم أحد وصفًا أفضل لهذه الفكرة من ميشـيل فوكو. لإنشـاء مجتمع سـوقي، عليك أولًا بنـاء نظـام سـوقي، وثانيًـا، تعليـم (أو إجبـار) الناس علـى التصرف وفقًـا للمبادئ المنشـودة لهـذا النظام. كانت اسـس فوكـو هما الأوردوليبرالية الألمانية، اقتصاد سـوق ودولـة رفاه، والنيوليبراليـة الجديـدة لصبيان شـيكاغو، التي أمنت انقلاب تشـيلي.

لا تدعـو النيوليبراليـة إلـى اسـتقلال السـوق فحسـب؛ بـل أيضـاً إلـى توسـيع النموذج الاقتصـادي ليشـمل جميـع مجالات التفاعـل الاجتماعي. بيّـن فوكـو ان «النيوليبرالية لم تعـد تحيـل حصريـاً علـى قابليـة للحكم قائمـة على حريـة الأفـراد، بل هي «فـن يحكم عقلانيـة المحكوميـن أنفسـهم» هكذا فـأن النيوليبرالية ليسـت إيديولوجيـا تابعة لنظام إنتـاج؛ بـل هـي عقيدة سياسـية وأخلاقيـة حقيقية.

وجـه أبحاثـه مطلـع ثمانينيـات القـرن الماضـي، نحـو «الحوكمة» مـع تخلّيـه التدريجي عـن وجهـة النظـر المرتبطـة بالثورة وحتـى عن التحليـل الطبقـي. ««يمكننـا القول إننا بحاجـة إلـى اقتصـادٍ لا يكـون قائمـاً علـى الإنتـاج وتوزيـع الثـروات، بـل إلـى اقتصـادٍ قائـمٍ علـى العلاقـات السـلطوية». يتعلّق الأمر بالصراعات ضد السـلطة «بما هي تسـتغلّ النـاس اقتصاديـاً»، أقل منه بالصراعات ضد السـلطة في الحياة اليومية المتجسـدة في الحركـة النسـوية، وتحـركات الطـلاب، والمعتقلين، و«البـدون» إلخ

مـع «رفضـه المتنامـي للاسـتراتيجيات الاشـتراكية والشـيوعية القديمة. بالنسـبة إليه، «ليـس هـدف هـذه الحـركات جميعهـا هو نفسـه هـدف الحـركات السياسـية أو الثورية التقليدية: لا يتعلق الأمر بتاتاً باسـتهداف السـلطة السياسـية أو النظام الاقتصادي». لقد ولّـى زمـن «المعارك السـلطوية والمؤسسـاتية الكبري»»

غالباً ما يعتبر فوكو مخترعًا أو على الأقل مروجًا لمفهوم «التوقف». اعتبر الابسـتمولوجيا عبـارة عـن بنـى معرفيـة متعـددة ومتغايـرة، —دون تحديدهـا—، أو مـن جهـة ما هي وحـدات معرفيـة متقطعـة وكل وحـدة معرفية لهـا نظام فكري خاص بها وهي ما أسـماه «الإبستيمية».

يتحـدى هـذا التحليـل النزعـة إلى معاملـه المعرفة على انها مسـتمرة وتقدميـه وموحده بمفاهيـم مشـتركه. انتقـد فوكو ترتيب الأشـياء، اذ تصبح تاريخ «مجمـد» غير قادر على شـرح التغيير بيـن كل تمزق.

تبـدو قطيعـة فوكـو متقاطعـة النتائـج مـع طـرح باشـلار «يتضـح فـي مفهـوم باشـلار للديالكتيـك والقطيعـة الابيسـتيمولجية أنه يُلغي النشـاط الإنسـاني، البراكسـيس، المعرفي فـي عملية تطـوّر المعرفة والتقدم العلمي وارتباطهما بالواقع ومعرفته، إنها مشـكلة القطيعة الابيسـتيمولوجية الباشـلارية القائمـة علـى السـلب المطلـق (الميتافيزيقي) لإمـكان تغيير الواقـع، لا يُظهـر حركـة التجـاوز والإبقـاء الديالكتيكيـة المادية فـي عمليّة التطـوّر العلمي وتقدمـه وشـروطها المادية التاريخية الملموسـة». وهو موقـف مثالي وضعي يلغـي، إرادوياً، وجـود، أو حتـى إمكانيـة وجـود أو اكتشـاف أي معاييـر أخـرى غيـر معيـاره، وهنـا يكمـن التعسـف فـي فـرض المعايير الـذي يدل علـى خلفية أيديولوجيـة قمعية تسـتخدم "العلم" خدمـة لمصالـح الطبقـة البرجوازيـة المسـيطرة ضـد فهم العالَـم من أجـل تغييره» .

لكـن «الإبيسـتيمي ليـس لحظة حضاريـة (على الرغم من أن فوكو يشـير إلى ذلك)، وهو مفهـوم لـه معنى أوسـع مـن معنى حقبـة تاريخية، بالنسـبة إلـى نوربير إليـاس، «تتمثل سـيرورة الحضـارة في تعديل الحساسـية البشـرية والسـلوك في اتجاه محـدد» (دينامية الغـرب، ص.181). وسـتأتي هذه السـيرورة من حقيقة أن الاعتمـاد المتبادل بين الناس يولـد نظامـا محددا. وتقتصر المعرفـة، من جانبها، على طريقة التفكيـر، بقدر ما تأخذ شـكلا محـددا فـي وقـت معين، وهـذا يعيدنـا إلـى الحـذر الابيسـتيمولوجي المتمثل في اسـتعادة السـياق الحضـاري الذي يتشـكل فيه الفكر الفلسـفي والعلمي فـي حقبة ما».

سـعى فوكـو في دروسـه عام 1979عن الليبراليـة الجديدة، لابتكار فـن رفض الخضوع،

عـن طريـق تأويـل الليبرالية الجديـدة، وإعـادة صياغة خطـاب النظرية النقديـة. اعاد طـرح مفاهيـم كلاسـيكية كالدولـة والمجتمع والسـلطة، مراهنـا على اختـراق المفاهيم الليبراليـة لصفوف اليسـار، أو مـن عاند منهم.

ابتكـر مفاهيـم ومصطلحـات مرحلـة التغيـر ضمن عملـه « الكلمات والأشـياء» انتشـرت فـي ميادين معرفيـة عـدة، أصبحـت أكثـر حضـوراً فـي اللغـة المعاصـرة، وأكثـر من يتداولهـا، ويعممهـا، ويفرضهـا، الثقافـة النيوليبراليـة، لعل أهمها، ما شـاع اسـتعماله، مثـل «الحوكمـة»، و«الضبـط» ويقابها اليـوم تحديداً، «الامتثـال»، و«المعاييـر»، و«العناية بالـذات»، وقـد فجـرّت النيوليبرالية مع هذه الأخيـرة صندوق «بانـدورا»، إضافة الى ما اعتبر انجـازاً مهما «البيوسياسـة».

حسـم فوكـو تبنيه النيوليبرالية، عندمـا نحى المتن متبنياً الهامـش، عندما نحى العمال واسـتغلالهم واسـتبدلهم، بتقديم تحيزه الحاسـم للمهمشـين، وكأن هؤلاء يسـقطون من السـماء. قـدم دفاعـه عن الفرد، وحريتـه، متوافقاً مـع النيوليبرالية، ولكـن الفرد الذي يعنيـه، وهـو المهمـش هو نتـاج للمجتمع وضحيـة لاعدالة النظام، ولا يمكـن ان يكون هو ذاتـه فـرد النيوليبراليـة، الخارج على المجتمع، يتسـيده فكيف يكونـا ذات الفرد؟ «إذا كانـت الليبراليـة تفتـرض وجود الفرد، فإن فوكـو يوضح أن الفرد لم يكـن كيانا مكتملا موجودا قبل نشـأة السـلطة، بل كان من إنتاج هذه السـلطة نفسـها.

وفـي صراعه مع السـلطة تمكنـت النيوليبرالية منها، ففي حوار جمعه وتشومسـكي بيّن « اننـا نعيـش تحـت نظـام دكتاتورية طبقية، أي تحت سـلطة طبقة تفرض نفسـها بالعنف، حتـى عندمـا تكـون أدوات هذا العنف مؤسسـاتية دسـتورية، وفي هذا المسـتوى لا وجود للديمقراطية برأينا».

فما الجديد هنا، وهذا جوهر وشـرط عمل النظام الرأسـمالي، يعتبر فوكو ان « السـلطة متركزة في أيدي الحكومة، تمارسـها من خلال ..مؤسسـات معينة، مثل الإدارة والشـرطة والجيـش، وجهـاز الدولـة. ... وهـي مصنوعـة للتعبيـر عـن عـدد محـدد من القـرارات ونقلهـا باسـم الوطـن أو الدولة، لتطبيقهـا ومعاقبة من لا يمتثلون لها» ويضيف «السـلطة السياسـية تمارس نفسـها أيضا من خلال توسـيط عدد محدد من المؤسسـات التي تبدو كأنهـا غيـر مرتبطـة بالسـلطة السياسـية ومسـتقلة عنهـا، ك «الأسـرة، ..وأن الجامعة، وكل الأنظمـة التعليميـة بشـكل عـام، التـي تبـدو أنها تنشـر المعرفة ببسـاطة، مصنوعة للحفـاظ علـى طبقـة اجتماعية محددة في السـلطة، ولإقصـاء أدوات السـلطة عن طبقة

اجتماعيـة أخـرى.. مؤسسـات المعرفـة والتوعيـة والرعايـة، كالطـب، تسـاعد على دعم السـلطة السياسية».

لكنـه تغاضـى عن الأسـاس في سـلطة النظـام، وهذا ما بينه تشومسـكي فـي رده، وقد وافـق فوكـو علـى ما قدمـه، لكنه، أضـاف اليه ما أوضحـه صراحـة: «ان المهمة هي أن نفهـم بوضـوح تام طبيعة السـلطة والارهـاب والهدم في مجتمعنا. وهـذا يتضمن بالتأكيد المؤسسـات التـي ذكرتهـا، بالإضافـة الـى المؤسسـات المركزيـة لأي مجتمـع صناعي، أي المؤسسـات الاقتصاديـة والتجاريـة والماليـة، وبشـكل خـاص، فـي الفتـرة القادمة، الشـركات العظيمة العابـرة للقارات»

فـي تناغـم مـع رؤيـة النيوليبراليـن التأسيسـية للدولة «فوكـو يبين أن تنظيـم المجتمع علـى نحـو نيوليبرالـي يفترض تدخلا متصلا مـن الدولة، لأن تعميم المنافسـة في نظره ليـس عفويـا، وفرضـه يسـتوجب إعادة تشـكيل لا للبنـى الاقتصادية وحدهـا، وإنما أيضا للسـلوكيات البشرية خاصة

الا يعبـر هـذا عـن طرح ميزس، أعـلاه، بالنتيجة، يمكـن القول ان فوكو سـاهم بتقديم دليـل عمل مسـاعد للنيوليبراليـة، يعبر عنه اليوم في ما يسـمى «اقتصاد العربة»، "gig economy" أو «اقتصـاد العمـل الحـر» وهـو حقيقـة «اقتصـاد العمـل المؤقت»، حيث يصبـح العامل رب عمل نفسـه، مسـؤول عـن تدبيره، وانجـازه، وتسـويقه، وتحمله وحيدا كل تكاليفـه، واعبائـه، وهـذا تحديداً يبين كلفة الحياة في النظام الرأسـمالي اليوم، هي العمـل لأجلـه، التي يتحملها الناس مجتمعين، على اختلاف مواقعهم، أي الاجتماع، في ما تعـود الأربـاح حصراً لرأس المال وحده. صحيح، هذه عودة لرواية الاقتصاد الكلاسـيكي، وحريـة التعاقـد، مـع سـميث، ولكن مـع تنحية العمل مـن مكانه، كمنتج ومقيـاس للقيم. صحيـح يؤمـن هـذا النظـام الفرص، لكـن لقلة تتمكـن منها، في المنافسـة الشرسـة، تحيـل من لا يقتنصهـا الى الهامش.

سـاد اعتبـار الطبقـة العاملة بعد الحـرب العالميـة الثانية، منتهيـة الصلاحية ومندمجة تمامـاً داخـل النّظـام. بعـد «تبرجزهـا، فلم تعـد عاملاً من عوامـل التغييـر الاجتماعيّ، لكـن، علـى النّقيض مـن ذلك، كابحـة للثورة.

لعـل هـذا ما يفسّـر نقد فوكـو الراديكالـي للضمان الاجتماعـي، وهو يصفه بـأداة اتمام "البيـو سـلطة" لا بـل أنـه تبنّـى الرؤيـة النيوليبراليّة لنقد اليسـار، التي تجسـدت في التحـول من سياسـة هدفـت إلى مكافحة اللامسـاواة، قائمـة على الضمـان الاجتماعيّ،

إلى سياسة تهدفُ إلى محاربة الفقر، ضمن مخصّصات ميزانيّة محدّدة، عبر «اعانات» و«مساعدات اجتماعية»، تنخفض عاماً بعد آخر، لفئات سكّانٍ مُستهدَفين، تزداد أعدادهم، يُدفعون للهامش اللانساني، أي التنصل من المجتمع، مع طرح الدفاع عن المجتمع.

توج هذا الجهد ما عرف ب "فوبيا الدولة" الذي انتشر، وتبناه اتجاهات عدة وتقاطعت في الراديكاليات، يساراً، عبر عنه غي ديبور، ويميناً أخذ به فوكو ثم عاد عنه، فرفض وضع الديمقراطيات الغربية والدول الفاشية على قدم المساواة. ظنّ أنه وجد في الليبرالية الجديدة حلاّ وسطا: «حُكمٌ قليلٌ من السوق خيرٌ من حكم مفرط من الدولة»، ولكنه أخطأ التقدير، فباسم حضور أقل للدولة، وقع الترويج لحضور أكبر للسوق

لا غرو أن الكثيرين يعتقدون اليوم، أن التحديات التي تواجه المجتمع الصالح تكمن في عيوب مؤسسات الدولة وتصرفات القائمين عليها، لا في الرأسمالية. «نحن لم نفقد دولة الرفاه الاجتماعي وحسب، بل فقدنا كذلك قدرتنا على التفكير بشكل مختلف، بالتفكير خارج فئات النيوليبرالية.»

يعتقد نيكلاس أولسن أن نقد اليسار للدولة كان حاسمًا في انتصار النيوليبرالية.

المستهلك الديمقراطي يزيح الطبقة العاملة

أعادت الليبرالية الجديدة صياغة مفهوم التنمية، بإدخال صفة الاستدامة عليها، وهذا يعني تكليف الناس، بعد تحويلهم الى مستهلكين ملائمين، بمهام واضحة، وبأهداف نهائية هي الاستهلاك بعينه، واعاقة عملية ايض الطبيعة باستنزاف مواردها، وهذا شرط لإنقاذ انتاج النظام الرأسمالي نفسه، الذي يستخدم مساحات الحداثة المعرفية كأسواق لليبرالية الجديدة، مشرعا فوضى التجاذبات، مستفيداً منها. والنتيجة هي تقويض معالم الحداثة دون اتجاه واضح. تصبح الفوضى وقبولها الشرط الأنطولوجي لكل السياسات وهذا وضع مناهض للابستمولوجيا، لان تشكيله يتم من قبل الاقتصاد المعرفي الجديد، كبديل مزور لعلم المعرفة. تتحول التنمية المستدامة في النهاية إلى واحدة من أخطر أيديولوجيات القرن الحادي والعشرين، وقد تم فرضها وتعميمها، ضمن برامج الأمم المتحدة. تفقد المجتمعات حيواتها بعد تشوهها، بتحويلها الى آلات استهلاكية، وتُشل قدراتها، على إدراك ما يجري، فتعجز عن المواجهة، بعد انكشافها

وتفتتها أفراداً، كأنها روبوتات مبرمجة، يسهل احلالها بأخرى صناعية.
كانت الحركات العمالية والنقابية على اختلافها، قد انتزعت حقوقاً وامتيازات في خضم الصراع الطبقي ضد احتكار الشركات الكبرى وهيمنتها على الاقتصاد الرأسمالي الصناعي. وهذا أول ما انقضّت النيوليبرالية عليه، للقضاء على مكتسبات العقد الاجتماعي للعمل، بتعميمها لثقافة تفوّق افراد بعينهم، ولخاصية فيهم، تمثلها العقلانية اللاعقلانية النيوليبرالية، تلغي بموجبها الديمقراطية، وتُحيلها إلى السوق.
مفكرون من اتجاهات مختلفة، وحتى الماركسية منها، سهلوا الطريق، «ففي مجال النقد الثقافي، كان توم وولف، ومارشال ماكلوهان، ويورجن هابرماس، ورولان بارت، هم من كسروا في ستينيات القرن العشرين تقليداً طويلاً من القلق بشأن الآثار الضارة للاستهلاك الجماعي، وبدأوا في النظر إلى ديناميكيات السوق في ضوء أكثر إيجابية، مؤكدين على عناصر المتعة واللعب والتبادل الرمزي باعتبارها جوهر ثقافة استهلاكية نابضة بالحياة ومحررة وفردية محتملة».
عمد الليبراليون الجدد، منذ البداية، ولتحقيق «التفوق الأخلاقي»، الى الهجوم على الفكر الاشتراكي، باستقطاب وإعادة وصف المثل اليسارية، من أجل إضفاء الشرعية على مشاريعهم السياسية. شنوا هجوماً «تحررياً» معاكساً، يمينياً، تم معه اختراع المستهلك الديمقراطي الكفؤ السيادي النيوليبرالي، يحققه في السوق بمقتضى الكفاءة والحرية وريادة الأعمال والديمقراطية. مفهوم تبنته أحزاب يسار الوسط، باعتباره دافعًا وأداةً لإصلاح القطاع العام. باستحضار واعادة تعريف مشروع اليسار، لكن بحماية المستهلكين بدلًا من الطبقة العاملة، واعتبار السوق المكان الأمثل لازدهار حرية الفرد، والذي تعجز عنه الدولة.
هل يمكن للمجتمع اخضاع هؤلاء للمراجعة النقدية بعد وسؤالهم عن حريتهم الفردية اليوم؟ هل تأكدوا أن المخاطر الكامنة في النيوليبرالية، تهدد الحرية الفردية أولاً. فخلافا للبناء النظري المعتاد، حيث يبني التجريد النظرية، وأسسها، وتكون السياسات طرق تظهيرها. تبدو الصورة معكوسة مع النيوليبرالية حيث الجوهر مفقود، مبهم، مطاطي، لا وجود له، تُعبىء فراغاته، طرق تنفيذه من خلال ما عرف لاحقاً ب»وصايا واشنطن العشرة»، التي تفرض تنحي الدولة، أي الحكومات عن كل شأن عام، مع تحديث بيانات عجزها من خلال تدخلاتها، في الاقتصاد وتعميمه في المداولات بوصفها طريقه العمل. بترويج مفهوم ابعاد السياسة عن الاقتصاد.

ابتذال الاقتصاد السياسي: انهيار النيوليبرالية

وهكذا أصبحت الليبرالية التحررية شكل وجودنا، الطريقة التي يقودنا بها إلى التصرف بأنفسنا، والارتباط بالآخرين وبأنفسنا. صدقت تاتشر لم يعد هناك مجتمع، بل حالات فردية، متشابهة متنافرة. التحق الجميع بهذه الرؤية العالمية، ليس فقط السياسيين وقاده الاعمال والنخب الإعلامية والأكاديميين، بل أيضا العمال والطلاب والمهاجرين والآخرين. وبعبارة أخرى، تخلق الليبرالية التحررية المواضيع. ونحن نعلم جميعا اليوم ان «الحداثة» المعاصرة ببساطه هي النيوليبرالية، تُترجم إلى تخفيضات في الوظائف، وخصخصة الخدمات الحكومية، وخفض مستويات الحياة. نحن شُيدنا كمواضيع تنافسيه، وهو الدور الذي يشمل ويفوق الموضوع الإنتاجي للرأسمالية الصناعية. أنه الموضوع الجديد للاقتصاد السياسي: انتاج الأفراد/الزبائن الملائمة للسوق وبعلاقات طوعية.

فإذا كنت «لا تدفع لمُنتَج، لأنك المُنتَج you are the product، كما تقول Zuboff انت جزء من مدخلات المُنتج الحقيقي»، فبينما تتصفح أنت الفيسبوك، تؤمن آلية الإنتاج الرأسمالي البياناتي، من عدة نواح مختلفة، ومتداخلة. فكل معلومة، أو كلمة يكون لها وظيفة محددة، تدخل في بيانات يتم تخزينها، هكذا تؤمن أنت المواد الخام. اكتشف الرأسماليون المراقبون ان أكثر مصادر البيانات التنبؤيه ربحية هي عندما يأتون، ويتدخلون في حياتك، في تصرفاتك في الوقت الحقيقي المباشر الحي، لتشكيل عملك في اتجاه معين، الذي ينسجم مع نوع من النتائج التي تضمن انتاجك كزبون مطلوب. ويتم تصنيع التنبؤات حول مستقبلك وبما ستفعله كمنتجات، يتم بيعها في أسواق المزايدة التنافسية الشرسة، للذي يدفع السعر الأعلى لهذه المواد. من ناحية ثانية، تغريك، لكنها تورطك، بتأمين مشاركة أسرار تجربتك الخاصة، وصولا ل«التنبؤ بولائك» الذي يسمح باستمرار تدفق المواد الخام، ومن ناحية أخرى، تؤمن انت المستهلك السيادي، وتتحمل مسؤولية تصريف ما ساهمت انت بانتاجه.

هذا هو المكان الذي يصنعون فيه أموالهم، بحيث يمكنهم تغيير مستقبلك، تصنيعك بما هو ملائم.

فماذا تنتج هذه الشركات؟ بمساعدتك تحولت كل المعلومات عنك، الى مشاعات، وافقتَ أنت، وسُمح لهذه الشركات بجمع كل المواد الخام في العالم، تستحوذ عليها، دون حق، تصبح ملكاً لها، لكنها ملكية توليدية، ريعية. انها تبيع القيمة المضافة على

المـواد الخـام. بـدون المـواد الخام، ليـس لديهم شـيء، اذن انـت تنتج وتؤمن اسـتمرارية النظـام الرأسـمالي، وقد تحولت الرأسـمالية فـي جوهرها الى رأسـمالية المراقبة الطفيلية مـع المرجعيـة الإنتاجيـة الذاتيـة، يُعاد معهـا تعريف ماركس للرأسـمالية بصورتهـا الأصلية كمصـاص دمـاء يتغـذى على العمل، ولكـن مع منعطف غير متوقع، فبدلا مـن العمل، واضافة الـى العمـل، تتغـذى رأسـمالية المراقبـة مـن كل جانب من جوانـب كل تجربه لكل إنسـان.

لكـن الشـركات التي لـم تتعاقد أنت معهـا، تقوم بعملية اسـتيلاء علـى معلوماتك، لكنها تقنعـك بأنهـا تحمـي خصوصيتك، «نحـن لا نبيع معلوماتك الشـخصية» وقـد ترافق هذا اليـوم بقوانيـن حق الوصول الـى المعلومات، وهي المعلومات التـي تكون انت قد قدمتها، ولكنـك لا تملـك حـق الوصـول لمعلومات بمـا يحدث بعدما تصـل معلوماتـك، فلا يوجد خدمـة مـا بعـد الحصـول علـى المعلومـات، مـاذا يحـدث لنا، مـن ضرر؟ وانكشـاف؟ واسـتغلال. تتـوازى البروتوكـولات المسـتخدمة لاعمـال «التنبـؤ» بمظاهـر تغيـر المناخ، بالسـلوكيات المعاديـة للمجتمع و«الإرهـاب»، أليس هذا تطور لتطبيـق نفس الخوارزميات علـى البيانـات الحيويـة الأخرى للسـكان، التـي تراها السـلطة، كاضطرابـات اجتماعية وحـركات سياسـية جديـدة؟ أليـس هكـذا تنفذ الإبـادة والتطهيـر العرقي في فلسـطين، وقبلهـا العـدوان والتفجيرات فـي لبنان.

هكـذا كان علـى الاقتصاد السياسـي ان يؤمن التفاعـل بين «المعرفة» والسـلطة، باختفاء التفكيـر النقـدي، بـان يعيد الانسـان وراءً، قسـراً الى مـا يعجز عن تجـاوزه، يظل يدفع القهقـرى أبـداً صخـرة سـيزيف، الى حـدود التشـكل دائم لحـالات البدايـات للحاجات الأساسـية دون وظائفهـا، مـن الطعـام والمسـكن، بما يتـلاءم واملاءات السـوق تتقدمها صنـوف اسـتهلاكية تفـوق القـدرة، تدمر وتعبـث بالصحـة والتعليم، ليؤمن بعد تسـليعها جميعـاً اليـة عمل النظـام. يغلفها صناعـة رأي الموافقة دون الفهم، تصنـع تعودا جديدا لعـدم التفكيـر، وفق تشومسـكي يتم صناعـة الوعي.

نحـن لا نعيـش فـي "مجتمـع المعرفة"، بل فـي "اقتصاد المعرفة". شـددت الحكومات خـلال التسـعينيات، علـى دور الجامعـات فـي "مجتمـع المعرفـة، بتمويلهـا للبحـوث الجامعيـة، ب"تشـجيع" "التميـز" وتركيـزه علـى قيـاس ومكافـأة "أثـر" (impact) البحـوث الاقتصادي.

يتـم ربـط الاقتصـاد السياسـي للبحـوث ضمنيّـا بمـا يتناسـب ومسـاهمته المباشـرة فـي النجـاح الاقتصـادي، بالاسـتجابة للطلـب مـن الاقتصـاد العالمـي، يتـم مـن خلال

"الحاكميّة الأكاديمية" academic governmentality وبمصطلحات فوكو، انه التّطبيع" والانتشار الكلّي لنظام "الحقيقة الاقتصادية" economic truth حيث تنتج مجموعة من "القيم"، تعبر عن أيديولوجيا النيوليبرالية، يكون الطلاب زبائنها. في نظرة نقدية خاصة للجامعة الحديثة. يقول تشومسكي:

لقد بات واضحا تماما دور الجامعة في تلقين الشباب في المجتمعات الحرة... [التعليم الجيد] يغرس الاتفاق الضمني العام الذي لن يقوم بذكر حقائق [محددة] أو حتى التفكير [بها]. والنتيجة هي أنّ من يحاول أن يتحدى العقيدة السائدة يجد نفسه قد أسكت بفاعلية مدهشة في المجتمعات الحرة.[4].

يتم تطويع الدماغ وتعميم الجهل الجماعي، عبر بنى وهياكل تسلسلية، تحكمها سلطة ينفذها نزولاً لامركزياً لتقليص دور السلطات المحلية، من خارجها، عبر ما يسمى المسؤولاتية responsabilization، وباضافة الحاكمية، تكتمل أعمال المؤسسة الرأسمالية. حيث تُصبح انت، تحديدا، دون اتخاذ رأيك، مُنسئلاً عن قضايا هي أصلا قضايا المجتمع العامة، ومسؤولية الحكومة. يختبرها الجميع وفي كل الدول، تضيع معها حدود السلطة ومسؤولياتها، تتداخل وظائفها مُبهمة، بين قضايا المشاركة بالإنتاج لصالح القطاع الخاص، والاستحواذ، والمنع، وممارسة السلطة. وقد اختبر اللبناني تحويل سلع عامة كثيرة الى عاتقه، مثل اشتراكات مواتير الكهرباء، والمياه، حيث يصبح لكل سلعة سوق مواز. اضافة للرعاية الصحية وللتعليم، اضيفت الى اللائحة مؤخرا قضايا الأسواق الطبيعية، فلا توجد سوق طبيعيه لعموم المشاعات (المياه، الهواء النقي، الأرض) والمساحات العامة. ولكن على الدولة، وكما قامت تاريخياً، بانشاء أسواق الرأسمالية الصناعية، ان تقوم اليوم بخلق أسواق «طبيعيه» وادامتها. فالليبرالية التحررية تطالب الدولة بالدفاع عن حقوق الملكية الخاصة التوليدية، وعقودها، وفرض قوانين لمكافحة احتكار الدولة، لبعض الخدمات العامة، وقمع المعارضة الاجتماعية. مع سيطرة اقتصاد المعرفة، عبر التكنولوجيا الرقمية، والسحابية، أصبح النظام الرأسمالي يعتاش أكثر وأكثر على تحقيق الريع، وهذا يشرح عمق التحولات في الرأسمالية، ما دفع عدة اقتصاديين لتقييم المرحلة الرأسمالية الراهنة، بانها خليط من ارتدادات رجعية الى اقطاعية—تكنولوجية، متواكبة مع رأسمالية الدولة الحمائية، كقرار الحكومة الأميركية مؤخراً، بأن يكون لها حصة 10% من شركة انتل اميركا.

حماية رأس المال

كان التضخم والاستدانة، العامة والخاصة، مجرد حلول مؤقتة، استعانت بها السياسة الاقتصادية للنيوليبرالية، للحفاظ على صورة رأسمالية النمو من خلال التطور المادي الاستهلاكي للجميع. ما أدى الى عدم استقرار التفاعلات بين الاقتصاد الإنتاجي الحقيقي الخاضع للقيود المادية، والنظام المالي الذي لا يتسم نموه بأي قيود مادية. فجرّت هذه العلاقة أزمة الرهن العقاري الثانوي الأمريكية في عام2008، بسبب الإفراط في تداول المشتقات المالية (رأس المال الوهمي) والتي تطورت سريعًا إلى أزمة مالية واقتصادية طالت معظم الاقتصاد العالمي. وهذا التفجر ما تشرحه معادلة ماركس الشهيرة لرأس المال الوهمي، حيث يولّد المال مالاً، أو وفق المعادلة نقد يلد نقداً، أي، ن— ن›، على أن يتم مقابلة المستحق عليه، بتحقيق فائض القيمة في المستقبل. وبينما قد تكون هذه الاستثمارات مربحة لبعض حاملي النقود، الا ان المضاربات على ذات المنتجات المالية، والتضخم المتكرر في أسعار الأصول أدى الى تفجر هذه الأزمة في الأسواق المالية، التي حُمّلت نتائجها تشريعاً وتنظيما واداءً، لصغار المقترضين، العاملين في خدمة رأس المال، وقد اختبرتها معظم دول العالم، بمستوى أو بأخر. وفي سياق اختبار أدواتها أتى الانهيار المصرفي اللبناني. كشفت كيفية ومدى رخاوة المجتمعات في مواجهة هذه الكوارث، وتصديقها، لا بل بحثها عن أسباب تخفيفية، مع ان المخاطر تصبح عينية وليست نظرية، ولكن الناس تمعن في هذا الطريق— القدر، تُبعد لا بل لا تتصور تحميل المسؤولية للنظام العام الرأسمالي الدولي، وفروعه السياسية والمصرفية في كافة الدول. كانت ردة الفعل عن الافلاسات المصرفية، ردات فعل زبائنية لمودعين، لم ترتق الى المستوى الاجتماعي العام، ما أوحى للرأسمالية بأهمية تسهيل الأزمات المتلاحقة، لمواجهة الأزمة البنيوية الأساسية للنظام، بتفجيرها تباعاً ضد ومن ليس له علاقة بها، مع تحميل نتائجها كلية للمجتمع.

ليؤشر هذا لنهاية، اقله عدم إمكانية حدوث فترات سكون بعد الآن، لن تتمكن الناس، من استعادة أنفاسها، لتحمل الصدمات. هكذا ما انفكت الأزمات الكارثية الفجائية، تتوالى، من افلاس المصارف ورغم التحذيرات المنفردة أو الجانبية، لبعض المفكرين، كمثل تنبؤ الاقتصادي نوريل روبيني بحدوث الأزمة المالية. ولكن طبعا هكذا أصوات تغرد خارج السرب، وتشوش على رواد الأعمال، الذين يتقاضون بدلات

أتعـاب خيالية، للقيام بأعمالهم التدميرية، لما بنته الرأسـمالية الصناعية، فيتم تسـريح الموظفيـن، افـلاس الأعمـال، لأن المحاسـبة محدودة والمكاسـب ضخمة. هكـذا اختبر العالـم مجتمعـاً، مصائـب الواحدة تلو الأخرى، مـن كورونا، الى كوارث طبيعية من شـغل رائـدي أعمـال هـذا النظـام، إضافة الى نشـر الحـروب، وغيـاب من يفترض مسـؤوليته عـن النظـام، الـى الجانب الطبيعـي، الأصلي في الرأسـمالية، وهوالميل إلـى خلق الفقر والتفاوتـات الهائلـة علـى الرغم من الإمكانـات الإنتاجية الهائلة التي تُطلقها الرأسـمالية.

غزة تسقط النيوليبرالية

الديـون الضخمـة وعجـز الموازنـة، والمهاجـرون والارهابيـون وغيرهـا مـن المخاطـر المزعومـة التي يسـتخدمها المحافظـون للإبقاء على حالة قلق المجتمعات الرأسـمالية، هـي ليسـت الا صـورة للإيديولوجيا النيوليبرالية، وللعجز الأخلاقي للسـلطة السياسـية، تعكس حقيقة نظام الحضارة التافهة، التي لتبرير عجزها أعادت مجتمعاتها، كما في كل مـرة الـى حالـة الطوارئ، ترفع موزاناتها العسـكرية (فرض مؤخراً الناتـو على دوله رفع مسـتوى الانفاق العسـكري الى 5% مـن الناتج المحلي)، مرفقـة بالتحذير من مخاطر جماعـات تتهـدد المجتمع، فتوظـف لتبرير تخفيضـات الحصة المجتمعية فـي الموازنات العامـة، باجـراءات افقار شرسـة، تواكبها اعتداءات خارجية، تحاكـي تجاربها التاريخية، عبـر سلسـلة حروب منتشـرة في العالم، تطـال «الحلفاء» قبل الخصوم، لأن الرأسـمالية اصـلا لا تقبـل آخـراً، لا تعتـرف بـه حتـى مستسـلماً، لان هـذا بمثابـة اعتـراف بمتواز ولـو كعـدو. تاريخيـاً، يسـعى النظام الرأسـمالي العالمـي لجعل جميع الـدول، في حالة خضـوع، وان بمسـتويات مختلفـة. في هذا السـياق تأتي حروبه والاعتـداءات ضد الجميع مـن تفجير أنابيب السـيل الشـمالي، ضـد ألمانيا، الى قطر، الى الاستشـراس في تنفيذ مشـروع الشـرق الأوسـط الجديد، وآخر حلقاتـه العـدوان والتطهير العرقـي والإبادة في غزة، وهذا أولا وأخيرا شـغل البلطجة النيوليبرالية لمقتضيات انقاذ النظام الرأسـمالي. ومواجهـة تعثر مشـكلة النمو الاقتصادي، منذ السـبعينيات، وبـروز دول مواجهة كالصين. «يشـير العـدوان الإسـرائيلي علـى غـزة إلـى انتصـار التعليـم علـى الطبيعـة، ويثبت أن التقـدم التكنولوجـي لا يعنـي التقدم البشـري. انهـا القاعدة للانحـلال الأخلاقي، تقبله وتمارسـه أغلـب الحكومـات الغربية فقط لأن اليهـود— في رأيهم— هـم الذين يرتكبون هـذه الفظائـع— سـواء أكانت قتـلًا جماعيًّـا، أم تطهيرًا عرقيًّـا، أم إبـادة جماعية. ومع

ذلـك، فـإن قليـلًا من النـاس يدركون أن قرنًا من اسـتعمار فلسـطين قد حـول اليهودي إلى إسرائيلي لا يرحم».

لكـن غـزة تقـف، صبـاً كنهـر الغيـظ ، كآخر أسـوار الدفـاع عـن روح الانسـان. يجادل الكاتـب ميشـرا بـأن الإبـادة الجماعيـة فـي غـزة تُمثـل «اللحظة الحاسـمة فـي القرن الحـادي والعشـرين» ويُسـلّط الضـوء علـى الهوة بيـن الروايـة الغربية لمذبحـة النازية لليهـود باعتبارهـا فظاعـة فريـدة، والذاكـرة الجماعيـة للشـعوب المُسـتعمَرة سـابقاً، التـي تـرى فيها أصـداءً لإباداتهـا الجماعيـة المحلية. كتب إيمي سـيزير عـن المواطن الغربـي عـام ١٩٥٥: «... مـا لا يُمكـن أن يُغفر لهتلر ليس الجريمة ضد الإنسـان في حد ذاتهـا، وليـس إذلال الإنسـان بحد ذاته، بل الجريمة ضد الرجـل الأبيض، إذلال الرجل الأبيـض، وتطبيقـه علـى أوروبا إجـراءات اسـتعمارية كانت حتى ذلك الحيـن حكراً على عرب الجزائر، وعمال الهند، وسـود أفريقيا.". ويشـير ميشـرا إلى أن مشـاركة القوى الغربيـة،— ومعظمهـا عنصـري بشـكل رسـمي أو غيـر رسـمي — في حرب ضـد هتلر كانـت معركـة «ضد عقيدة سـيموتون جميعهـم دفاعًا عنها على أرضهـم. فلا أحد منهم يذكـر مذابـح ليوبولد، وهـذه لا آثر لها

بالنسـبة للكثيريـن فـي دول الجنـوب العالمـي، تُعـدّ الإبـادة فـي غـزة مثـالاً أخـراً على عـدم خضـوع الغـرب للقانون الذي سـن مـواده، الا لعقاب الدول التـي لا تمتثل، لحملات القتـل الجماعـي ضـد غيـر البيـض فـي العالـم. بـل يـرون نفاقًـا صارخًـا فـي تسـاهل الطبقـات الحاكمـة الغربيـة تجاه «إسـرائيل». بـؤس هذه الثقافـة والذرائـع الزائفة، وقد أصبحـت لزومـا لا لـزوم لـه، مع اذعان العالـم بمجمـل حكوماته ومشـاركتها، صمتاً، أو صراحـة، على تدمير «إسـرائيل» لغـزة، لتحقيق وعد ترامب بإخلاء «موقـع الهدم» الناتج مـن سـكانه، كمراهنـة كازينـو لتحويلـه إلى ريفييـرا، كمثل إبـادة الشـعوب الأصلية، في أميـركا، نصبـح كلنـا الهنـود الحمر الجدد. أيجب ان يُباد شـعب مباشـرة علـى الهواء، كـي يـرى العالـم الغربي، سـخافة حضارته، وشـر تفاهتهـا، الذي لم يلفـت حنة ارندت، التـي انشـغلت، بأسـس التوتاليتاريـة، فـي المقلـب الآخر، ولـم تسـتطع ان تحفر، تحت قنـاع هـذه الحضـارة الغربية التافهـة، الفارغة، وافلاسـها الأخلاقي التأسيسـي.

يُبين ميشـرا، إن عنف إسـرائيل المُفـرط وتصاعد العدوانية الغربيـة، هما من علامات الانحـدار الإمبراطـوري. كانـت بريطانيـا فـي كينيـا شـديدة الوحشـية في خمسـينيات القـرن الماضـي، عندما كانت شـمس إمبراطوريتها تغرب. ويتوقع كثيرون، من الأسـماء

المرموقة الواردة في الهامش رقم 50، نهايةً مستحقة للنظام الصهيوني المُرتكب للإبادة الجماعية.

لكن، ما هذه المهزلة؟ هل يجب ان يتحمل العالم ويدفع ثمن «انحطاط» الغرب، مثلما تحملوا ديون الولايات المتحدة؟

هذا كله يبين ان المعركة في جوهرها هي مع النظام الرأسمالي العدواني، الهمجي.

ان نقد الرأسمالية اليوم، اما منكفئ او منقطع باستثناء حالات مستمرة لنعوم تشومسكي، أو ديفيد هارفي الاميركيين.

ان الحداثة هي بمثابه «اكتشاف المستقبل» وتحرير الانسان ستظل هذه أولويات الحداثة اليسارية، وتتطلب بناء منصة لمواجهة الرأسمالية، لاستعادة الحياة، تسمح بقيام وازدهار طرق معيشة متعددة.

اليوم تعلّم غزة العالم، معنى الدفاع عن الوجود، يكشف صمودها رقيها الإنساني وأخلاق شعبها التضامني، فليس هناك شيء أبداً للبيع في غزة، تغبطها الأمم، توقظ انسانيتهم وتدفعهم للشوارع، والبحار تضامناً، وهذا ما يزيد عدوان الحضارة الهمجية شراسة على غزة، لأنها تفضح صورة غربه، وتنذر بغروبه، لا تستطيع ذراعه القذرة «إسرائيل» إخفاء حقيقته، تماما كحال الرأسمال الوهمي. أجل غزة تعري الغرب وتهزمه، أجل غزة تنقذ الإنسانية.

وما امتلاء شوارع مدن العالم بناسها، الا محاولة منهم لإنقاذ انفسهم أولا، من هذا الليفاثيان، باستعادة المدن، والشوارع لمواجهة خلّو الحياة المعاصرة من المعنى، وزوال الإنسان. كتب ديفيد هارفي في ما يتعلق بالبنية التحتية الحضرية ، «المشاريع المتعلقة بما نريده من المدن تغفل، ما الذي لا نريده ان تصبح عليه، مدننا. أليس هذا أول التحدي على الأقل، لنحدد الحياة التي لا نريد ان نعيشها، وفق قواعد السوق.

الهوامش

1 – مساهمة قُدم الجزء الأساسي منها في تونس، بتنظيم قسم الفلسفة، نشاط تحت عنوان اللاعدالة الابستيمية، 7/11–6عام 2019.

2 – أن العلم ليس التكنولوجيا، فالتكنولوجيا تنتج أشياء أما العلم فينتج أفكارا، وهو "أخطر ظواهر الحضارة الإنسانية، وأكثرها تمثيلا لحضور الإنسان، الموجود العاقل، في هذا الكون" راجع الخولي منى، "فلسفة العلم في القرن العشرين. عالم المعرفة – المجلس

الوطنـي للثقافـة والفنـون والآداب، عام 2000

3 – هوركهايمـر ماكـس، أدونـو ثيودور، جدل التنوير شـذرات فلسـفية، ترجمـة د.جورج كتورة، دار الكتـاب الجديـد، ط2006، بيروت، ص18

4 – هوركهايمـر ماكـس، أدونـو ثيودور، جدل التنوير شـذرات فلسـفية، ترجمـة د.جورج كتورة، دار الكتـاب الجديد، ط2006،ص،25

5 - Matteo Pasquinelli, The Eye of the Algorithm: Cognitive Anthropocene and the Making of the World Brain

6 – دخـل شـاعر الثورة الروسـية مایاكوفسـي عربة قطـار، وفقاً لاحدى الروايـات، لم يكن فيها جليـس آخـر سـوى امـرأة شـابة، وليدفـع عنهـا القلق قـدم لها نفسـه قائـلاً "انا لسـت رجلاً، انـا "غيمـة في سـروال" أصبحـت أول اعماله ومن أهـم قصائده قبـل الثورة، وأنضجهـا، بدأها عـام 1914، وعمـره اثنتيـن وعشـرين سـنة. كان عنوان القصيدة فـي البداية: «الحـواري الثالث عشـر». لكـن الرقابـة لم توافـق على هذا العنوان، فاضطـر لتغييره إلى: غيمة في سـروال قاصداً التهكـم علـى الرقابـة والسـخرية منها، من ناحيـة، ومن النـاس الرخوين من ناحيـة ثانية. حدّد مایاكوفسـكي نفسـه مغزى القصيدة، ومضمونها فكتب: (فليسـقط حبكم. فليسـقط فنّكم. فليسقط نظامكـم. فلتسـقط ديانتكـم) أربـع صرخـات لأربعة مقاطـع. خرج مایاكوفسـكي، عـن المألوف، فحطّـم الـوزن والقافيـة، وحافظ على الإيقاع، مسـتفزاً مشـاعر الجماهيـر محرضاً لها.

7 – العالم الأميركي اوبنهايمر روبرت ، 1967–1904، أبو القنبلة الذرية

8 – مشـروع مانهاتـن،1942 الربـط المنهجـي بيـن التمويـل العسـكري والاداره والتعاقـد والصناعـة والجامعـات ومختبـرات البحـوث الحكوميـة والعديـد مـن الشـركات المصنعـة، النمـوذج "لهـذه" النظـم التكنولوجيـة الضخمـة ". "نظـام الحرب البـاردة" فـي العلوم، وهي التسـمية التـي تؤكد هيمنـة الجيش علي برامج التمويل والبحـوث العلمية. (Mirowski, 2011 وهـو نظام(تكنولوجي–اقتصادي) Fordist اقتران العلم باحكام بالإنتاج الضخم مع الاسـتهلاك الشـامل، واسـتقرار العلاقـات الاجتماعيـة أو طريقـه التنظيـم (اجاليتـا ، 1987. جيسـوب ، 2002). تحقـق التاديـب في العمل من خـلال تامين التعاون بين النقابات البيروقراطية كوسـيلة لأداره العمـل والتحكـم فيه، ولكن أيضا من خلال القوه القسـرية للجيش، يعبىء شـرعنتها النداء الأيديولوجـي، حيـث يختلـط حابل الضروة الوطنية، بنابل مصالح الراسـمالية، فيتعكسـر الانتماء للوطـن، وتتـوزع ناسـه جنـوداً، بثياب عسـكرية ولـو باعمال مدنية، حتـى الجامعات، والرؤوسـاء، تترسـمل علاقاتها جميعها، مؤمنة تراكما، وتصريفا لفوائض النظام الراسـمالي، يظهرها حيازته لحـق الروايـة الوطنـي بما سـمي "الراسـماليه التوافقية" لفتره مـا بعد الحـرب العالمية الثانية في سـياق عسـكره الثقافة، والقوه القسـرية للدولة القومية للأمن، ومكافحة الشـيوعية المحلية.

9 -Google, Apple ,Facebook, Amazon+Netflix

10 - Smith Adam, the Wealth of Nations, 1776, p13 , 26-27

11 - Nicolas Medina Mora, Foreign Correspondence X, Two Freudian essays, some ~personal news~ , and the beginning of a new novel, FEB 12, 2025

12 – فائض القيمة: surplus value، حجر الزاوية في التحليل الماركسي، ينتج العامل قيمة أعلى من القيمة التي يعبر عنها الأجر، يستحوذ عليه الرأسمالي.

13 – راس المال الوهمي الفصل 30 المجلد الثالث لرأس المال، هذه الثروة الوهمية، التي تمثل في الجزء الأساسي منها، ثروة الأفراد، ولكنها تمنح السلطة لرأس المال المالي، يتحكم بها عبر الائتمان. ما يسمى بشكل مبتذل برأس المال الوهمي (القيمة المقدرة لشهادات الملكية) ليس سوى تعبير عن هذا الإزاحة، هذا الانفصال بين العالمين الافتراضي والحقيقي.

14 – فريدريك فون هايك (1899–1992) الفيلسوف والاقتصادي النمساوي ،فرايبورغ Friedrich Hayek اشهر أعماله الطريق إلى العبودية The Road to serfdom1943 ليس كتاباً أكاديمياً، لكن طبع مرات عدة. «حذر من خطر الطغيان جراء سيطرة الحكومة على صنع القرار الاقتصادي عن طريق التخطيط المركزي»، معتبرا التخلي عن الفردية والليبرالية الكلاسيكية سيقود لامحالة إلى القمع الاشتراكي أو الفاشي وإلى الاستبداد وعبودية الفرد" نوبل عام ١٩٧٤.

15 – ميلتون فريدمان) 1912 – 2006(Milton Friedmanاقتصادي أمريكي، نوبل عام 1976 لإنجازاته في تحليل الاستهلاك والمعروض النقدي سياسات التوازن. المشرف على ما عرف ب"صبيان شيكاغو" النيوليبراليين.

16 - How Neoliberalism Reinvented Democracy, an interview with NIKLAS OLSEN by Daniel Zamora 04.06.2019

17 - The new anarchy: Globalisation and fragmentation in world politics Philip G Cerny, Alex Prichard 2017

18 –جمعية مونت بيليرين (1947 (MPSهي مجموعة من الاقتصاديين والفلاسفة والمؤرخين الليبراليين الكلاسيكيين. "يرون خطراً في توسع الحكومة، لا سيما في رفاهية الدولة، وفي قوة النقابات العمالية."

19 - A major task of the MPS was therefore to educate capitalists as to why they should become neoliberals.

20 – ما أشبه اليوم بالأمس، يبين الدور الأساسي للإعلام، في تسويق برامج السلطة، وقد أضيفت اليه منصات التواصل، والذكاء الاصطناعي، في تصنيع الرأي، وتعليبه، بأحجام مختلفة، في وصفات الحاضر لحل الدولة، تتجلى متطلباتها في وصفات الحوكمة، والشفافية، والتنمية المستدامة، والتنوع، والشمول والحماية الاجتماعية وثقافة قبول الآخر، وبعضها يتناقض في ما بينها، وفرض أمور الحرية

الشخصية الى حق عام، مع تهاوي الحق العام. في سياق هيمنة الثقافة الغربية، تعيق انتشار كتاب ايمانويل تود حول هزيمة الغرب الصادر عام 2024: La defaite de L'Occidente، وهو ليس يسارياً، وقد رُحّب به عندما تنبأ عام 1976 بسقوط الاتحاد السوفياتي.

21 – اتفاقية برتون وودز عام 1944بعد الحرب العالمية الثانية، أنشأت البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وافقت البلدان المشاركة على المحافظة على قيمة عملتها في نطاق هامش ضيق مقابل الدولار وسعر مماثل من الذهب عند الحاجة. أصبح الدولار عملة مرجعية، يعكس التغير في الاقتصاد العالمي من هيمنة أوروبا إلي الولايات المتحدة الأمريكية. انتهت مفاعيلها في السبعينيات مع وقف ربط الدولار بالذهب، ولكن استمر حكم مؤسساتها، يرى الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيرش، ان هذه البنية المالية فشلت في ضمان استفادة الجميع من العولمة، وهناك حاجة الى تحول جذري واتفاقية بريتون وودز جديدة.

22 – العائق الإبستمولوجي هو مجموع الأفكار والتصورات المسبقة أو الخاطئة، أو التي تم استبعادها مع تقدم الفكر العلمي، أو الأفكار التي ترجع إلى المعرفة العامة، والتي تؤثر في عمل العالم دون وعي منه، وتعوقه عن بلوغ الحقيقة الموضوعية للظواهر التي يدرسها. لمفهوم العائق الإبستمولوجي، في نظر باشلار، ضرورة وظيفية في فهم تاريخ العلوم، فليس في هذا التاريخ استمرار فحسب، بل فيه كذلك عقبات واضطرابات، وركود ونكوص توضحها العوائق الإبستمولوجية التي أدت إليها)،

23 – هوركهايمر ماكس، أدونو ثيودور، جدل التنوير شذرات فلسفية، ترجمة د.جورج كتورة، دار الكتاب الجديد، ط2006،ص،25

24 – فيلسوف فرنسي،–1926 1984 ، احتل موقعا كبيرا في الحياة الثقافية العالمية، خاصة الإنكليزية. تغيرت اتجاهاته من الماركسية الى النيوليبرالية، لذا نستعينه قال مرة في نوع من المفاخرة "يمكن وصفي بأني أنارشيست ويساري وماركسي وعدمي ومناهض للماركسية وتكنوقراط في خدمة الديغولية ونيوليبرالي.. ما من نعت من كل تلك النعوت له أهمية في حدّ ذاته، ولكنها مجتمعة، تصبح ذات معنى". وردت عند العيادي.

25 – مايكل فويسيل، ترجمة نجاة النرسي، النيوليبرالية مقابل الليبرالية، مؤمنون بلا حدود، أكتوبر 2021

26 – طرح الحوكمة ليس أكثر من تعمية على الواقع فالمجتمعات ليس شركات يجب التأكد من حسن ادارتها بالتشارك.

27 – دانيال زامورا، ميشال فوكو هل هو نيوليبرالي؟، فصلية بدايات، العدد 12، صيف/ خريف 2015

28 – ظهر في "الكلمات والأشياء" في عام 1966، تم التخلي عنه بعد عشر سنوات، لأن ميشيل فوكو اعتبر أن استخدامه أدى إلى طريق مسدود. جوينيي باتريك (Juignet Patrick،

ميشـال فوكو ومفهوم الإبيسـتمي ـ تقديم وترجمة: أحمد رباص،2017

29 – ربيـع ديركـي، غاسـتون باشـلار فلسـفة الرفض والديالكتيـك والقطيعة الابسـتمولوجية.. مقاربة نقديـة، 22/2/2025

30 – جوينيـي باتريـك (Juignet Patrick ، ميشـال فوكـو ومفهـوم الإبيسـتمي ـ تقديـم وترجمـة: أحمـد ربـاص، 2017

31 – نعوم تشومسـكي وميشـال فوكو، مناظرة عن الطبيعة الإنسـانية، هولندا عام 1971، مقدمة جـون راكان، ترجمـة أمير زكي ، دار التنوير للطباعة والنشـر، الطبعة الأولى، 2015، ص61،

32 – نعوم تشومسـكي وميشـال فوكو م.ن، (مثل فيليبس من ايدنهوفن، الشـركة الشـهيرة التي تأسسـت في هولندا)

33 –أبـو بكـر العيـادي، ميشـيل فوكـو وعلاقتـه بالليبرالية الجديدة واليسـار، مجلـة الجديد، 1/8/2015.

34 – يصبـح انخـراط الأثريـاء كبيـل غايتس وجورج سـوروس فـي المعركة ضـد الفقر فضيلة، فـي حين يتـم خصخصة الشـأن العام.

35 – غي ديبورا فيلسـوف ماركسـي (1928 –1994)وعمله الشهير عن الرأسمالية، La société du spectacle ، "مجتمع الفرجة" الصادر عام 1967، أصبح "ضحية للمشـهد الذي حاربه"، وأُنتحره.

36 – أبو بكر العيادي، م.ن.

37 – Ayn Rand، روسـية الأصـل، هاجـرت بعـد الثـورة، تعتبـر مؤثـرة فـي أهم الشـخصيات السياسـية الأميركيـة. أعتنقـت مبدأ المنفعـة الذاتية، فالإنسـان بنظرها هو غاية وليس وسـيلة، فلا يتوجـب عليـه العيش سـوى لذاته، فالقيمـة الأخلاقية العليـا للحياة تكون في تحقيقـه أقصى درجات السـعادة. أما في الفلسـفة السياسـية فقد دافعت راند عن الرأسـمالية بوصفها منظومة اقتصادية– سياسـية يتعامـل بها بنو البشـر مع بعضهم بوصفهم شـركاء أحراراً يسـعون لمنفعتهـم الذاتية.

38 – دانييـل زامورا، Daniel Zamoraمسـؤوليّة فوكو، حزيـران 21/2019، تعريب عروة درويش، صحيفة قاسـيون.

39 – How Neoliberalism Reinvented Democracy, An interview with NIKLAS OLSEN 4.06.2019 by Daniel Zamora,نيكلاس أولسـن أسـتاذ مشـارك فـي التاريـخ ورئيـس مركز الدراسـات الأوروبيـة الحديثة بجامعـة كوبنهاغن. وهـو مؤلف كتاب " المسـتهلك السـيادي: تاريخ فكري جديـد للنيوليبرالية" ؟

40 – هـذ اللامبـالاة حيال المجتمع تفسـر تحول آخر أعضاء مدرسـة فرانكفـورت، الذي أبدى تحيـزه للعـدوان على غزة، تكفيـرا عن ذنب المانيا، بتحميله للفلسـطينيين.

41 – Daniel Zamora , Nicolas Olsen, 09.19.2019كيـف أدت عقـود مـن الليبراليـة الجديـدة إلـى عصـر الشـعبوية اليمينيـة

42 – ما يعرف بتوافق واشنطنWashington Consensus، ومبادئه العشرة، مسودة طرحها جون ويليامسون عام 1989 تشكل دليلا مفروضا على الدول الفاشلة "لتحرير" اقتصاداتها، ودعوته البنك الدولي وصندوق النقد الدولي لتبني هذه البنود.

43 - Zuboff, S. (2019). The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power. PublicAffairs.

44 – جون بايري، المعرفة كسلطة، المعرفة كرأسمال –/ ترجمة: فؤاد ريان، دراسات 20/02/2017

45 – بين كارل بولاني عام 1944، أن القاعدة الرأسمالية بنيت على ثلاث سلع زائفة هي: الأرض، العمل، والمال، وهذ ليست سلعاً، لأنها لم تنتج.

46 – بُح الاقتصادي الأميركي البروفسور جيفري ساكس وهو يحذر من مخطط الحروب السبعة في المنطقة قبل حتى طوفان الأقصى، وقد حصلت جميعها.

47 – ياكوف م.رابكين، حرب غزة تبلور صورة إسرائيل، مركز الدراسات العربية الاوراسية، 27 أب 2024

48 – من كلمات أغنية بيغ سام، عن غزة "لو مرة بس".

49 – ياكوف م. رابكين، غزة وانهيار الصهيونية، مؤرخ يستعرض كتبًا جديدة من تأليف بيتر بينارت، وأفي شلايم، وبانكاج ميشرا حول المشروع الذي يحرك عنف إسرائيل20 يونيو 2025

50 – الملك ليوبولد الثاني هتلر بلجيكا، استعمر الكونغو، دون ان يطأ ارضها، فاق عدد القتلى من السكان الكونغوليين العشرة ملايين انسان كان معظمهم من النساء والاطفال الأبرياء. طرق التعذيب تفوق أي وصف، ولا يمكن ذكرها.

51 – لكل من يعاندون الحقيقة، ولا يقرأون، يمكنهم متابعة، بعض الحقائق مع بعض الكبار: بروفسور العلوم السياسية جون ميرشايمر، الأستاذ الجامعي نورمان فنكلشتاين، المؤرخون الجدد، ايلان بابية، أفي شلايم، وشلومو ساند، سكوت ريتر، مفتش أسلحة دمار في العراق، الصحافي ماكس بلومنتال، إضافة الى اقتصاديين ماركسيين ريتشارد وولف، ويانيس فاروفاكيس.

52 – حنة ارندت، 1975–1906من أبرز مفكري القرن العشرين، تثاقفت مع فيلسوف النازية هايدغر، واشتهرت بمحاكمة تفاهة الشرالنازي.

التفاوض المباشر وغير المباشر بين الدول المتعادِية وصلته بالتطبيع رؤى مقارنة

أ. د. هلال درويش

أستاذ في جامعة المقاصد في بيروت

المستخلص

يهدف هذا البحث إلى دراسة مفهوم **التفاوض المباشر وغير المباشر بين الدول المتعادِية**، وصلته بموضوع **التطبيع السياسي**، من منظور **فقهي شرعي وقانوني وسياسي معاصر**. ينطلق البحث من أن التفاوض وسيلة إنسانية وسُنّة نبوية لإدارة الخلافات وتحقيق المصالح ودرء المفاسد، بينما يختلف التطبيع عن التفاوض في جوهره ومآلاته، إذ يتجاوز التفاهم المرحلي إلى إقامة علاقات طبيعية دائمة مع العدو. تناول الباحث مفهوم التفاوض في ضوء **القرآن الكريم** والسنة النبوية، مستشهدًا بآياتٍ مثل قوله تعالى: (وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا)، وبنماذج عملية **كصلح الحديبية** ومراسلات النبي ﷺ لملوك عصره، ثم استعرض **أقوال الفقهاء** من المذاهب الأربعة حول مشروعية الهدنة والصلح وفق قاعدة **جلب المصالح ودرء المفاسد**. كما قارن ذلك بالمنظور **القانوني الدولي** الذي يجعل التفاوض الوسيلة الأولى لحل النزاعات وفق ميثاق الأمم المتحدة (المادة 33).

وقد تبيّن أن التفاوض ــ سواء أكان مباشرًا أم غير مباشر ــ **ليس خيانةً وطنية أو شرعية**، بل وسيلة مشروعة لإدارة الصراع متى التُزم فيها بحفظ السيادة والحقوق والمبادئ.

أمـا **التطبيع** فهـو مرحلة مغايـرة ترتبط بتحويـل العلاقـة العدائية إلى طبيعيـة دائمة، وهـو مـا قـد يُعـدّ تفريطًـا إذا تضمّـن تنازلاً عـن الثوابـت أو شـرعنة للباطل.
ويخلـص البحـث إلـى أن **الفصـل بين التفـاوض والتطبيع ضرورة فكرية وسياسـية**؛ فـالأول أداة ظرفيـة لتحقيـق مصلحـة راجحـة، أمـا الثانـي فخيـارٌ دائـم يعيـد صياغة العلاقـة علـى أسـس جديـدة قد تتعـارض مـع الثوابـت الشـرعية والوطنية.
الكلمـات المفتاحية: التفـاوض الدولي، التفـاوض المباشـر، التفاوض غير المباشـر، الهدنـة، الصلـح، التطبيـع، العلاقات الدولية، الفقه السياسـي الإسـلامي.

Abstract

This study explores **direct and indirect negotiations between hostile states** and their relation to **political normalization**, from **Islamic jurisprudential, legal, and political perspectives.** The research argues that negotiation is a human and prophetic means of conflict management, reconciliation, and interest realization, whereas normalization represents a fundamentally different stage aimed at establishing permanent, natural relations with a former enemy.

The paper analyzes the concept of negotiation in light of the **Qur'an** and the **Prophetic Sunnah**, citing verses such as "If they incline to peace, then incline to it" (Al-Anfal 61) and historical examples like **the Treaty of Hudaybiyyah** and the Prophet's letters to the rulers of his time. It also reviews the positions of **classical jurists** from the four Sunni schools who approved truces and peace treaties when serving legitimate interests, based on the principle of promoting benefits and preventing harms. Furthermore, it examines **international law,** which recognizes negotiation as the primary peaceful means of dispute resolution (UN Charter, Article 33).

The study concludes that negotiation—whether direct or indirect—is **not a betrayal** but a legitimate diplomatic tool when guided by justice, sovereignty, and preservation of national and religious principles. In contrast, **normalization** entails transforming enmity into lasting relations and may be deemed unacceptable if it compromises fundamental rights or legitimizes injustice.

Ultimately, the paper emphasizes the importance of **distinguishing between negotiation and normalization:** the former is a temporary and situational tool to protect or achieve higher interests, while the latter implies a lasting political choice that may contradict Islamic and national constants.

Keywords: International negotiation, direct and indirect diplomacy, truce, peace treaty, normalization, Islamic political jurisprudence, international relations.

المقدمة

الحمد لله تعالى الذي جعل للإنسان وسائل للتفاهم والتواصل، وشرع السِّلم والصلح عند الاقتضاء، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ، الذي كان قدوة في التفاوض والحنكة والحكمة السياسية، فأرسى منهج الحوار والمصالحة مع الخصوم والأعداء، وما علمنا من سيرته إلا الدروس المقاصدية العملية في إدارة الصراعات وحلها لتحقيق المصلحة العليا للإنسانية.

إن دراسة التفاوض المباشر وغير المباشر بين الدول المتعادِية وصلته بالتطبيع تعدّ من الموضوعات الحيوية في العلاقات الدولية والسياسات الشرعية، حيث يواجه صانعو القرار تحديًا في موازنة المصلحة الوطنية والسيادة مع حفظ الحقوق والمبادئ، ولا يعني التفاوض إن كان مباشرًا تفريطًا بالحقوق فقد يكون مدخلًا لاستعادتها بقوة العدالة وحنكة المفاوض.

فالتفاوض، سواء تم مباشرة أو بواسطة طرف ثالث، يمثل وسيلة لإدارة النزاع وتقليل الأضرار، بينما يُعد التطبيع مرحلة مختلفة، ترتبط بإقامة علاقات طبيعية وشاملة مع الطرف الآخر، مما يطرح أسئلة شرعية وسياسية حول حدود المشروعية والمصلحة.

ولذلك، يهدف هذا البحث إلى استعراض أسس التفاوض المشروعة، أشكاله المباشرة وغير المباشرة، وضوابطه الشرعية والقانونية، وفصلها عن التطبيع، مستعينًا بالنصوص الشرعية، والسيرة النبوية، وأقوال الفقهاء، وتجارب العلاقات الدولية، لتقديم رؤية لفهم هذا الجانب من السياسة الدولية من منظور شرعي وعلمي وواقعي.

فالمفاوضات إحدى أهم الوسائل والأدوات في العلاقات الدولية لرأب صدع الحروب وحل النزاعات وإنهائها، وقد جاءت نصوص الوحي تحض عليها، وقد نصّ عليها ميثاق الأمم المتحدة ضمن الوسائل السلمية لتسوية الخلافات.

إلا أنّ الممارسة السياسية تُظهر أنّ التفاوض بين الدول المتخاصمة غالبًا ما يحصل عبر وسطاء أي بطرق غير مباشرة، وذلك لأسباب تتعلق بانعدام الثقة أو الخشية من الاعتراف الضمني بالخصوم أو للحصول على ضمانات من صديق للفريقين معًا أو من طرف خارجي يتمتع بسلطة وقوة أو نفوذ أو مصداقية عند الطرفين.

ومن هنا يطرح إشكال: هل تُعتبر المفاوضات المباشرة خيانة وتنازل عن الحقوق أو مخالفة شرعية أو وطنية أو قومية؟

وما موقع التطبيع من التفاوض؟ وهل هناك شواهد فقهية وتاريخية يمكن الاستناد إليها في بناء تصور فقهي شرعي وسياسي لهذا الموضوع؟

المطلب الأوّل:

مشروعية التفاوض المباشر وأدلته الشرعية.

أولًا: الأدلة من القرآن الكريم

1 – قوله تعالى: (وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) [الأنفال: 61]. وقوله تعالى: {**فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ**} [التوبة: 7

الآية صريحة في إباحة الميل إلى السّلم –حيث هو الأصل– إذا رغب العدو فيه، وهو أصل شرعي في جواز التفاوض لعقد الصلح أو الهدنة.

2 – قوله تعالى: (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ) [الأنفال: 58–57].

الآية تدل على أنّ المعاهدات والاتفاقات خاضعة لمعيار المصلحة والأمانة، فإذا ظهرت الخيانة جاز إنهاؤها، مما يعني أنّ التفاوض والصلح مشروطان بتحقيق المصالح ودرء المفاسد وعدم الإضرار.

ثانيًا: الأدلة من السُّنَّة والسِيرَة

1 - **صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ** (6 هـ):

فاوض النبي ﷺ قريشًا مباشرة عبر سهيل بن عمرو، ووافق على شروطٍ قد بدت في ظاهرها مجحفة (منع العُمرة ذلك العام، وردّ مَنْ جاء مسلمًا من قريش إلى مكة...) لكنّها تحققت فيها مصالح مستقبلية عليا: الأمن، انتشار الدعوة، تمكين المسلمين من فتح مكة لاحقًا.

وَكَانَ أَبُــو بَكْــرٍ الصّدّيقُ رَضِيَ اللّهُ عَنْــهُ يَقُولُ: مَــا كَانَ فَتْحٌ فِي الْإِسْــلَامِ أَعْظَــمَ مِنْ فَتْحِ الْحُدَيْبِيَــةِ، وَلَكِــنّ النّــاسَ يَوْمئِذٍ قَصَرَ رَأْيُهُمْ عَمّــا كَانَ بَيْنَ مُحَمّدٍ وَرَبّــهِ، وَالْعِبَادُ يَعْجَلُونَ، وَاَللّهُ تَبَــارَكَ وَتَعَالَــى لَا يَعْجَــلُ كَعَجَلَــةِ الْعِبَادِ حَتّى تَبْلُغَ الْأُمُــورُ مَا أَرَادَ اللّهُ»

أخــرج البخــاري عَــنِ البَــرَاءِ رَضِيَ اللّــهُ عَنْــهُ، قَالَ: تَعُــدُّونَ أَنْتُــمُ الفَتْــحَ فَتْحَ مَكَّــةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْــحُ مَكَّــةَ فَتْحًــا، وَنَحْــنُ نَعُدُّ الفَتْــحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَــوْمَ الحُدَيْبِيَةِ» ممــا يدل على أنّ التفــاوض والهدنــة قد تكــون فتحًا فــي مآلاتها.

2 - **مراسلات النبي ﷺ لملوك عصره:**

مراســلات النبــي ﷺ إلــى ملــوك عصــره، كهرقــل وكســرى والمقوقــس، تمثــل شــكلًا مــن المخاطبــة السياســية المباشــرة التي شــرعت التواصل مــع الخصــوم لإقامة الحجة وتحقيــق المقاصــد الدعوية.

فــي صحيفــة المدينــة (دســتور المدينة) كانت بنــود اتفاقية مباشــرة مع اليهــود لتنظيم قواعــد علاقــة حســن الجــوار والالتــزام بالدفــاع المشــترك، وهو مثــال علــى المفاوضة السياســية المشروعة.

ثالثًا: أقوال الفقهاء في الصلح والهدنة

1 - **الحنفية:**

أجــازوا عقــد الهدنــة والصلــح مــع الخصــوم مــن غيــر المســلمين إذا كان فيــه مصلحة للمســلمين، ولــو لســنوات طويلة.

الجــواز: تجــوز الهُدنــة مع الكفار لمصلحة راجحة للمســلمين، ســواء كان المســلمون في قــوة أو ضعف.

المــدة: لا تجوز الهُدنة لأكثر من عشــر ســنوات، اقتداء بصلــح الحديبية. ويجوز تجديدها إذا رأى الإمام المصلحة.

«وَتَجُوزُ الْمُهَادَنَةُ بِشَــرْطِ تَأْقِيتِهَا... وَلَا تَجُوزُ بِغَيْرِ تَأْقِيتٍ... وَأَقَلُّهُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَأَكْثَرُهُ عَشْــرُ سِــنِينَ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَالَحَ قُرَيْشًــا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْــرَ سِــنِينَ».

الشــروط: يشــترط أن تكــون المصلحــة للمســلمين ظاهــرة، وألا يكــون فــي شــروطها ما يخالــف نصاً شــرعياً.

2 - **المالكية:**

الجــواز: تجــوز الهُدنــة للمصلحة، والأفضل أن تكــون من موقف قوة. وإذا كان المســلمون فــي ضعف شــديد، فتجب الهُدنــة لدفع الضرر.

المـدة: تجـوز الهُدنـة لمدة محـدودة، ولم يحـدد المالكية مـدة أقصى، بـل تركوا الأمر لمصلحة المسـلمين.

«وَتَجُـوزُ الْمُهَادَنَـةُ مَـعَ الْكُفَّـارِ إذَا رَأَى الْإِمَامُ فِيهَـا مَصْلَحَةً، وَإِنْ كَانَ الْمُسْـلِمُونَ فِي قُوَّةٍ، وَإِنْ كَانُـوا فِـي ضَعْفٍ وَجَبَـتْ لِدَفْعِ الضَّـرَرِ... وَتَكُونُ مُؤَقَّتَةً بِزَمَـنٍ مَعْلُومٍ».

الشـروط: يشـترط أن تكـون الهُدنـة مـع دولة أو جماعـة معروفة، وألا تكون على حسـاب مصالح المسـلمين.

«وَشَرْطُ صِحَّتِهَا أَنْ تَكُونَ مَعَ طَائِفَةٍ مُعْتَبَرَةٍ، وَأَنْ لَا يَكُونَ فِيهَا مَفْسَدَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ».

3 - **الشافعية:**

أجـازوا الصلـح إذا كان لمصلحـة راجحـة، وحـددوا أقصـى مـدة الهدنة بعشـر سـنوات اقتـداء بصلـح الحديبية.

مبـررات الجـواز: تجـوز الهُدنة لمصلحة المسـلمين، كضعفهم، أو انتظـار نصر، أو دعوة الناس إلى الإسـلام.

المـدة: تجـوز الهُدنـة لمـدة لا تزيـد على عشـر سـنوات، ... علـى خلاف في المسـألة. والراجـح عنـد المتأخرين التوقيت بعشـر سـنين.

4 - **الحنابلة:**

الجـواز: تجـوز الهُدنـة مع الكفار إذا كانت المصلحة للمسـلمين راجحة، سـواء أكانوا في قوة أم ضعف.

المـدة: تكـون الهُدنـة لمدة محـدودة، وأكثرها عشـر سـنوات. وإذا انقضـت المدة وجب نقـض العهـد إلا أن يجدد.

الشـروط: يشـترط أن تكون الهُدنة مع أئمة الكفر الذين يلتزمون بالعهد، وألا يكون فيها إلزام للمسـلمين بما يخالف الشـرع.... وَأَنْ لَا يَكُونَ فِيهَا إضْرَارٌ بِالْمُسْـلِمِينَ».

رابعًا: الضوابط الفقهية للتفاوض والهدنة

أن يكون الهدف **تحقيق مصلحة معتبرة** للمسلمين، كحقن الدماء أو تقوية الصفوف.

ألّا يتضمن التفاوض **تنازلًا** عن أصل الدين أو تعطيلًا للشريعة أو تفريطًا بالمقدسات.

أن يكون محدد المدة والشروط، لا مفتوحًا دون ضابط.

أن يخضع لقاعدة: " «الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ، وجَلْبِ الْمَصَالِحِ وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ.

القاعـدة الفقهية: « «تَصَرُّفُ الْإِمَامِ عَلَى الرَّعِيَّةِ مَنُـوطٌ بِالْمَصْلَحَةِ» فإذا اقتضت المصلحةُ

التفاوضَ المباشـرَ لحفظ دماء المسـلمين أو تحقيق مصلحة راجحة، جاز ذلك.

خامسًا: في القانون الدولي:

نص المادة (33) من ميثاق الأمم المتحدة

يجـب علـى أطـراف أي نـزاع يكون اسـتمرارُه من شـأنه أن يعـرّض حفظ السـلم والأمن الدوليّيـن للخطـر، أن يلتمسـوا حلـه بـادئ ذي بـدء بوسـائل التفـاوض، أو التحقيق، أو الوسـاطة، أو التوفيـق، أو التحكيـم، أو التسـوية القضائيـة، أو اللجـوء إلى الـوكالات أو التنظيمـات الإقليميـة، أو غيرهـا من الوسـائل السـلمية التـي يقع عليهـا اختيارهم.

وإذا رأى مجلس الأمن أن اسـتمرار النزاع قد يهدد السـلم والأمن الدولي، دعا الأطراف إلى تسـويته بتلك الوسائل.

ملخـص المادة: توجب هـذه المادة على الـدول التي يكـون نزاعها بينها مهدداً للسـلم والأمـن الدولـي، أن تبحث أولاً عن حل سـلمي لهذا النزاع قبـل اللجوء إلى مجلس الأمن.

وتعدد المادة مجموعة من الوسـائل السـلمية لحـل النزاعات، مثل:

المفاوضة: محادثات مباشرة بين الأطراف.

التحقيق: لجان لتوضيح الوقائع.

الوساطة : تدخل طرف ثالث لتسهيل الحل.

التوفيق: لجنة تقدم مقترحات للحل.

التحكيم: طرف محايد يصدر قراراً ملزماً.

التسوية القضائية : اللجوء إلى محكمة دولية مثل محكمة العدل الدولية.

الوكالات الإقليمية: مثل الجامعة العربية أو الاتحاد الأفريقي.

أية وسائل سلمية أخرى تختارها الأطراف.

تهدف هذه المادة إلى منع تصاعد النزاعات وتشـجع على الحلول الدبلوماسـية والسلمية. وهذا يثبت أنّ التفاوض وسـيلة مشـروعة، لا يُعدّ في حدِّ ذاته اعترافًا أو خيانة.

المطلب الثاني:

التفاوض المباشر وغير المباشر بين الدول المتصارعة.

أولًا: لماذا التفاوض غير المباشر بين الدول المتعادِية وأسبابه؟

التفـاوض غيـر المباشـر هـو شـكل دبلوماسـي شـائع، خاصـة فـي المراحـل الأولى من التواصـل بيـن الـدول المتعاديـة أو التـي لا تملـك علاقات دبلوماسـية رسـمية.

الأسباب الرئيسية لاختيار التفاوض غير المباشر بين الدول المتعادية

1 - **انعدام الثقة:**

الدول المتحاربة تكون قنوات العلاقات بينها مقطوعة دبلوماسيًا، فلا وسائل اتصال رسمية ولا تمثيل دبلوماسي.

لذلك يتم اللجوء لطرف ثالث (وسيط) يقرب وجهات النظر، يوفّر حدًّا أدنى من الثقة والضمانات.

إذن: الطرف الثالث يعمل كـ«وسيط ثقة» و«صمام أمان» يضمن أن الرسائل تصل بدقة ويقلل من احتمالية سوء الفهم المتعمد أو غير المتعمد

2 - **تخفيف الضغط السياسي والإعلامي:**

التفاوض المباشر قد يُفسَّر داخليًا كاعتراف أو تنازل، خصوصًا أمام الشعوب الثائرة الرافضة لأي تنازل، بينما التفاوض غير المباشر يُقدَّم كخطوة فنية لا سياسية.

الوساطة تجعل العملية أكثر «تقنية» وأقل رمزية، وبالتالي لا تُفسَّر أو تستغل إعلاميًّا على أنها تنازل سياسي.

3 - **توفير ضمانات دولية:**

الوسيط (دولة أو منظمة دولية) يُقدّم ضمانات بتنفيذ ما يتفق عليه، وقد يكون التفاوض مباشر بين المتصارعين وبرعاية دولية، ومن غير هذه الرعاية أو الضمانات، فإن الاتفاق قد يصبح بلا وزن أو قيمة

4 - **كسر الجمود وإنهاء العزلة:**

السبب: عندما تكون قنوات الاتصال المباشر مقطوعة تمامًا، يصبح أي نزاع عسكري أو أزمة دبلوماسية شديدة الخطورة بسبب عدم وجود طريقة للتفاهم.

الحل: الوسيط يمكنه فتح قناة اتصال أوليَّة غير رسمية، مما يساعد في كسر الحلقة المفرغة من العداء ويمهد الطريق لاتصالات مستقبلية مباشرة محتمل.

ثانيًا: هل التفاوض المباشر خيانة أو مخالفة شرعية أو وطنية؟

الأصل في العلاقات الدولية أن التفاوض أداة مشروعة:

كما هو ثابت من فعل النبي ﷺ وقد أثبت ذلك في الأدلة من السُّنَّة والسِيرَة

ميثاق الأمم المتحدة (المادة 33) يذكر: "يجب على أطراف أي نزاع... أن يلتمسوا حله بادئ ذي بدء بطريق المفاوضة...".

هـذا يعنـي أن التفـاوض، بحد ذاته، ليس خيانة ولا مخالفة، بل وسـيلة سـلمية ومنطقية معترف بهـا فقهيًا ودوليًا.

أولاً: من الناحية الشرعية (الإسلامية)

الأصل في التفاوض مشـروع: يقول الله تعالـى: **"وَإِن جَنَحُوا لِلسَّـلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ"** (سـورة الأنفال: 61). هذه الآية تأمر بالاسـتجابة لميول السـلام والتفاوض.

صلـح الحديبية: نمـوذج تاريخـي للتفاوض المباشـر بيـن النبي محمد ﷺ ومشـركي قريـش، رغـم احتـواء شـروطه علـى ما بـدا غيـر مفيـد للمسـلمين ظاهرياً، لكنـه كان مقدمـة للفتـح الكبير.

الضوابط الشرعية:

أنْ لا يتضمـن التفـاوض تنـازلاً عـن الثوابـت الوطنيـة الدينيـة أو حرمـات المسـلمين ومقدسـاتهم.

أن تقدر المصالح والمفاسد بتوازن (قاعدة: ارتكاب أخف الضررين).

ثانياً: من الناحية الوطنية والقانونية

وسيلة دبلوماسـية مشـروعة: التفاوض المباشـر هو أسـاس العلاقات الدوليـة، ومنعه ربمـا حالـة نفسـية عنـد الشـعوب، وليـس من نص شـرعي أو مانـع قانوني يحـول دونه، وتجريـه كثير مـن الدول.

ليس خيانة إذا توفرت شروط:

الشفافية: أن يكون ضمن إطار سياسة دولة معلومة.

المصلحـة الوطنية: أن يهدف لتحقيـق مصلحة للوطن (كوقف حـرب، وحقن الدماء أو اسـتعادة حقوق، أو تخفيف أزمات).

الالتزام بالثوابت: أنْ لا يتنازل عن الأرض أو السيادة أو الحقوق الأساسية للشعب.

الخيانة تكون في:

التفريط في الحقوق الوطنية أو التنازل عن الثوابت.

التفاوض بشكل سري دون تفويض رسمي.

التواطؤ مع العدو ضد مصلحة البلاد.

ثالثاً: من الناحية العملية والسياسية

أداة ضرورية: لا يمكن حل كثير من النزاعات المعقدة دون اتصال مباشر في مرحلة ما.

خلاصة:

التفاوض المباشر ليس خيانة، بل هو وسيلة، والوسائل تأخذ حكم المقاصد
الضوابط المطلوبة للتفاوض: بمعرفة السلطة وإذنها، وللمصلحة الوطنية، وضمن الثوابت، وبشفافية ووضوح، فبذلك يكون مشروعًا ومطلوبًا
. أما إذا كان سرياً، أو تنازلاً عن الثوابت، أو لخدمة أجندة خارجية، فهو خيانة.
لذلك يجب الحكم على كل حالة بظروفها وأهدافها ونتائجها، وليس على مبدأ التفاوض نفسه.

التفاوضُ المباشرُ وغير المباشر مع الأعداء الذين يلتزمون بالعهد والميثاق:

فإذا كان التفاوضُ المباشرُ أو عقدُ الهُدنة جائزين مع أئمّة الكفرِ والأعداء الذين يلتزمون بالعهد والميثاق، فإنّ الواقعَ في قضيّةِ الصراعِ في فلسطينَ مع اليهودِ الصهاينةِ يُبرزُ صورةً مغايرةً تمامًا، إذ يُجمعُ التاريخُ والواقعُ السياسيُّ المعاصرُ على أنّ هذا الكيان لم يلتزم يومًا باتفاقٍ أو عهدٍ مع أحدٍ من الأطراف العربية أو الفلسطينية. فكلّ اتفاقٍ يُبرَم، لا يُلتزم به إلّا مؤقّتًا حين يكون في حالةِ ضعفٍ أو تحت ضغطٍ دوليّ، ريثما تتغيّرُ الظروفُ لصالحه، فينقضُ العهدَ ويستأنفُ سياسة العدوان والتوسّع.
وقد تكرّر هذا النمط من السلوك السياسي في أكثر من محطة تاريخية، نذكر منها على سبيل المثال:
اتفاقات الهدنة لعام 1949م التي وُقّعت مع الدول العربية المجاورة بعد نكبة فلسطين، إذ سرعان ما خرقها الكيان الصهيوني عبر اعتداءاتٍ متكرّرةٍ على القرى الفلسطينية والحدود العربية، مما أثبت عدم احترامه لروح الهدنة ومضمونها.
اتفاقية كامب ديفيد عام 1978م بين مصر والكيان الصهيوني، التي كان من أبرز بنودها الدعوةُ إلى تسويةٍ شاملةٍ للقضية الفلسطينية، غير أنّ إسرائيل استمرّت في بناء المستوطنات وتوسيعها، وضربت عرض الحائط بمبدأ إقامة الدولة الفلسطينية المستقلّة.
اتفاق أوسلو عام 1993م بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، الذي نصّ على انسحابٍ تدريجيٍّ من الأراضي المحتلة ووقفٍ للنشاط الاستيطاني، لكنّ إسرائيل لم تلتزم بذلك، بل كثّفت مشاريع الاستيطان في الضفة الغربية والقدس، واستمرّت في حصار الشعب الفلسطيني والتضييق عليه.

خريطة الطريق للسلام عام 2003م، التي تعهّدت فيها إسرائيل بوقف الاستيطان ورفع الحواجز وتهيئة الظروف لقيام الدولة الفلسطينية، إلا أنّها نقضت معظم تلك الالتزامات، واستمرّت في بناء الجدار العازل ومصادرة الأراضي.

اتفاقات التهدئة المتكرّرة في قطاع غزة، والتي عادةً ما تُبرم بوساطاتٍ إقليميةٍ أو دوليةٍ عقب جولات العدوان، إلا أنّ إسرائيل ما تلبث أن تنقضها وتستأنف القصف والحصار، كما حصل بعد اتفاقات الأعوام 2012 و2014 و2021م.

إنّ هذا السلوكَ المتكرّر من الكيان الصهيوني يؤكّد أنّ التفاوضَ بجميع أشكاله مع اليهود الصهاينة، الذين لا عُهدَ لهم ولا التزامَ عندهم بالاتفاقات، لا يقوم في الفكر السياسي الصهيوني على أساسٍ أخلاقيٍّ أو قانونيّ، بل يُستَخدم كأداةٍ مرحليةٍ لتحقيق مكاسب مؤقّتة، ثمّ يُنقَضُ عند أولِ فرصةٍ سانحةٍ تتيحُ لهم التفلّت من الالتزامات.

ومن ثَمّ، فإنّ التفاوض والتعويلَ على المعاهدات أو الاتفاقات مع هذا الكيان يفتقر إلى الضمانات الواقعية والتاريخية، لأنّ التجربة أثبتت أن نقضَ العهودِ سلوكٌ متأصّلٌ في نهجه السياسيّ والعقائديّ.

وعليه، فإنّ أيَّ تفاوضٍ يُجرى معه ينبغي أن يكون — إن حصل — بوساطاتٍ وضماناتٍ دوليّةٍ صارمةٍ، إذ لا يُؤمَن جانبُهم، ولا يُنتظر منهم وفاءٌ بميثاقٍ أو التزامٌ بعهد، الأمر الذي يجعلُ الانخراطَ في مفاوضاتٍ مباشرةٍ معهم مضيعةً للوقت واستنزافًا للطاقات والمقدَّرات دون جدوى حقيقيّة.

ومن هنا، فإنّ الموقف الشرعي والعقلي كليهما يلتقيان في تقرير أنّ التفاوض مع من عُرِف بعدم الوفاء بالعهود لا يُنتج سلامًا حقيقيًّا، بل يتحوّل إلى وسيلةٍ لتكريس الهيمنة واستنزاف مقدرات الأمة. لذا، فإنّ أيّ تعاملٍ سياسيٍّ مع الكيان الصهيوني لا بد أن يُبنى على الوعي بطبيعة فكره وممارساته، مع استحضار الضوابط الشرعية التي تنظّم العلاقة مع غير الملتزمين بالعهد.

التفريق بين التفاوض والتنازل:

إذا كان التفاوض مباشرًا، لا يعني تلقائيًا اعترافًا بالعدو أو خيانة، إنما يقيَّم بمحتواه ونتائجه:

إن حافظ على السيادة والمصالح الوطنية فهو ممارسة سياسية شرعية.

إن تضمّن تنازلًا عن حقوق جوهرية (مثل الأرض أو السيادة) يُعتبر حينها تفريطًا أو خيانة.

مثـال: مفاوضـات فيتنام وأمريكا في باريس (1973) كانت مباشـرة، وانتهت بانسـحاب القـوات الأمريكيـة، ولم تُعتبر خيانـة من فيتنام.

ثالثًا: أين يقع مفهوم التطبيع من ذلك؟

الفرق بين التفاوض والتطبيع؛ التطبيع يختلف عن التفاوض:

التفاوض:

أداة ظرفية لإدارة الصراع أو احتوائه، قد تكون مباشرة أو غير مباشرة.

لا تعني بالضرورة اعترافًا دائمًا ولا علاقة طبيعية

التطبيع:

هـو تحويـل العلاقـة مـع العـدو مـن حالـة عداء إلـى علاقـة طبيعية شـاملة (سياسـية، اقتصاديـة، ثقافية).

غالبًا ما يثير رفضًا شعبيًا لأنه يُنظر إليه كإلغاء لصفة العداء.

من الناحية الفقهية والسياسية:

يجـوز التفـاوض مـع العدو لدرء مفسـدة أو تحقيق مصلحـة راجحة (مثل هدنـة أو تبادل أسـرى)، وهـذا لا يعنـي قبول شـرعيته أو محو العداء.

أمّـا التطبيـع، فهـو اعتـرافٌ بالعدو وإدخالـه في دائرة العلاقـات الطبيعية، وهـذا غالبًا مـا يُثيـر جـدلًا ورفضًا شـعبيًا لأنه يتجاوز حـدود الضـرورة الدفاعية إلـى التنازلات عن الحقوق المكتسـبة والثوابت.

رابعًا: الأدلة والبراهين

الفقـه السياسـي الإسـلامي: فـي صلـح الحديبيـة النبـي ﷺ فاوض قريشًـا المشـركة مباشـرة، لكنه لم يكن تطبيعًا بل هدنة مشـروطة، مما يثبت شـرعية التفاوض المباشـر عنـد الحاجة.

القانـون الدولـي: ميثـاق الأمـم المتحدة (م 33–38) يقـرّ التفاوض كأداة سـلمية لحل النزاعات.

التجربـة التاريخيـة: أغلب الحروب الكبرى انتهت بمفاوضـات (الحرب الكورية 1953م، حـرب فيتنام 1973م، الحرب الإيرانية–العراقية 1988م).

الرؤية الإسلامية:

بناء على النصوص والآثار وأقوال الفقهاء والتحليلات، يتضح أنّ:

التفاوض المباشر مشروع إذا دعت إليه المصلحة الراجحة، بشرط ألّا يتضمّن اعترافًا بالباطل أو تنازلًا عن الثوابت.

لا يُعَدّ التفاوض في ذاته خيانةً وطنية أو دينية، بل يُقيَّم بحسب مضمونه ونتائجه ومآلاته.

الهدنة أو الصلح المشروط جائزة شرعًا، ولا تعني بالضرورة تطبيعًا دائمًا مع الخصم.

صلح الحديبية يُعَدّ نموذجًا واضحًا؛ إذ كان هدنةً محددة المدة، لا تحالفًا دائمًا ولا إقرارًا بعقيدة الطرف الآخر.

يشترط أن يكون المفاوضون من أهل الثقة والعدالة، مع استناد القرار إلى رأي شوروي جماعي، وتقدير مقاصدي يراعي المآلات والنتائج المستقبلية.

الخاتمة

يتبين مما سبق أنّ التفاوض سواء أكان مباشرًا أم غير مباشر، يُعدُّ وسيلة مشروعة في كلٍّ من الفقه الإسلامي والقانون الدولي، ولا يُعتبر في ذاته خيانة أو مخالفة شرعية أو وطنية، وإنما يتمُّ تقييمه وفق مقاصده ومضمونه ونتائجه ومآلاته.

أمّا التطبيع فهو مرحلة مغايرة تمامًا، إذ يعني الانتقال إلى علاقات طبيعية شاملة، ويختلف حكمه باختلاف السياق؛ فقد يكون مرفوضًا إذا انطوى على اعتراف بالباطل أو تفريط في حقوق الوطن والأمة وثوابتها.

ومن هنا، فإنّ التمييز بين التفاوض كأداة ظرفية مؤقتة، وبين التطبيع كخيار استراتيجي طويل الأمد، يعدّ أمرًا أساسيًّا لفهم أبعاد الممارسة السياسية من منظور شرعي وواقعي.

والفارق الأساس والجوهري بين الهدنة والصلح وبين التطبيع:

أنّ **الأولى**، التفاوض: اتفاق مؤقت لتحقيق مصلحة عاجلة أو رفع مفسدة قائمة،

أمّا **الثاني**، التطبيع: فيعني إعادة صياغة العلاقة على أسس جديدة دائمة، قد تفضي إلى تفريط وتنازلات شرعية وسياسية مرفوضة.

التفاوض يولد ميتًا مع مَنْ عُرِف بعدم الوفاء بالعهود فلا يُنتج سلامًا حقيقيًّا، بل يتحوّل إلى وسيلةٍ لتكريس الهيمنة واستنزاف مقدرات الأمة.

د. هلال درويش

فهرس موضوعات البحث:

التفاوض المباشر وغير المباشر بين الدول المتعادية وصلته بالتطبيع

الرقم	العنوان الرئيسي	العنوان الفرعي	رقم الصفحة
1	**الملخص العربي**		2
		هدف البحث وموضوعه	2
		المنهجية والأدلة	2
		النتائج الرئيسية	2
		الكلمات المفتاحية	2
2	**Abstract**		3
		Research focus and perspectives	3
		Islamic and legal foundations	3
		Key findings and distinctions	3
		Keywords	3
3	**المقدمة**		4
		أهمية الموضوع	4
		الإشكالية الرئيسية	4
		منهجية البحث	4
4	**المطلب الأول: مشروعية التفاوض المباشر وأدلته الشرعية**		5
		أولاً: الأدلة من القرآن الكريم	5
		ثانياً: الأدلة من السنة والسيرة	5-6

6-8	ثالثاً: أقوال الفقهاء في الصلح والهدنة		
8-9	رابعاً: الضوابط الفقهية للتفاوض والهدنة		
9-10	خامساً: في القانون الدولي		
10		**المطلب الثاني: التفاوض المباشر وغير المباشر بين الدول المتصارعة**	**5**
10-12	أولاً: أسباب التفاوض غير المباشر		
12-14	ثانياً: هل التفاوض المباشر خيانة؟		
14-15	ثالثاً: الفرق بين التفاوض والتطبيع		
15	رابعاً: الأدلة والبراهين		
16		**الخاتمة**	**6**
16	النتائج الرئيسية		
16	التمييز بين التفاوض والتطبيع		
16		**معلومات النشر**	**7**

1 - انظر: عبد الملك بن هشام بن ايوب الحميري المعافري، ابو محمد، جمال الدين (ت 213 هـ)، سيرة ابن هشام تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، 1375 هـ - 1955 م، (2/ 322) (2/ 390)

2 - الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، (ت ٢٠٧هـ) المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، الناشر: دار الأعلمي — بيروت، الطبعة: الثالثة - 1409/1989. (2/ 610)

3 - صحيح البخاري» (5/ 122 ط السلطانية) الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ) كتاب المغازي، باب بيعة الرضوان، رقم الحديث: 4178 (بحسب ترقيم فتح الباري — دار طوق النجاة

4 - محمد حميد الله الحيدر آبادي الهندي (ت ١٤٢٤هـ) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم» (ص107). صحيح البخاري 1: 6، 56: 102، 65: 3 (ع 4) - مسلم 32/ -89 طب، ص -1565وقال أحمد محمد شاكر: رواه النسائي في التفسير؛ ج 3 ص -441 اليعقوبي ج 2 ص -83 84.

5 - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة» «كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز عظيم فارس (ص139)

6 - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط (ص135)

7 - سيرة ابن هشام، ت طه عبد الرؤوف سعد» (2/ 108)

8 - انظر: الكاساني، بدائع الصنائع (7/110)

9 - انظر: ابن عابدين، رد المحتار (4/170)

10 - انظر: الخُرشي، شرح مختصر خليل (4/220)

11 - انظر: الدردير، الشرح الكبير (2/137)

12 - انظر: النووي، روضة الطالبين (10/234):

13 - انظر: المرداوي، الإنصاف (4/200):

14 - فإذا كان التفاوض المباشر والهُدنة جائزين مع أئمة الكفر الذين يلتزمون بالعهد، واما الواقع بقضية الصراع في فلسطين مع اليهود الصهاينة فإن التاريخ والواقع يخبرنا أنهم ما من يوم كما في أوسلو أو أي اتفاق آخر قد التزموا به، وإن بدا التزام أحيانًا ففي حالة ضعفهم ريثما تتغير لهم الظروف حتى ينقضوا العهد والاتفاق، فعليه لا بد أن يكون التفاوض متى حصل بوساطات لكون لا عهد لهم ولا التزام بميثاق

15 - انظر: ابن قدامة، المغني" (9/228):

16 - المصالح المرسلة مصطلح أصولي من أهم مفاهيم فقه المقاصد، ومعناه بإيجاز:

هي المصالح التي لم يرد في الشرع دليل خاص باعتبارها ولا بإلغائها، لكنّها تحقق نفعًا عامًا وتدفع ضررًا، فاستنبطها الفقهاء لتحقيق مقاصد الشريعة في حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل.

- التعريف التفصيلي:

المصلحة المرسلة هي: كل مصلحةٍ حقيقيةٍ عامةٍ لم يُشهد لها نصٌّ شرعي بالاعتبار ولا بالإلغاء، وتُحقِّق مقصداً من مقاصد الشريعة.

- شرح الألفاظ:

- المصلحة: هي المنفعة أو درء المفسدة.
- المرسلة: أي المطلقة غير المقيّدة بدليل خاصٍّ من الشرع.

- مثال توضيحي:

- جمع القرآن في مصحفٍ واحد زمن أبي بكر رضي الله عنه.
- وضع السجلات الرسمية للأموال والعقود.
- تنظيم السير أو إنشاء الهوية الشخصية.

كلها لم ترد نصًّا في الشرع، لكنها تحقق مصلحة معتبرة وتوافق مقاصد الشريعة.

- موقف العلماء منها:

• المالكيـــة (كالإمـــام مالك والشـــاطبي) جعلوهـــا مصدرًا من مصـــادر التشـــريع إذا تحققت ضوابطها.

• الشافعية والحنفية تريّثوا في قبولها، وقبلوها ضمنًا إن لم تخالف نصًّا.

• الحنابلة قبلوها أيضًا بضوابط.

- شروط العمل بها:

1. ألا تعارض نصًّا من كتاب أو سنة.

2. أن تكون مصلحة حقيقية لا وهمية.

3. أن تكون عامة لا خاصة.

4. أن تكون ملائمة لمقاصد الشريعة الكلية

وانظر: الاعتصام، للشاطبي (1/ 240)

17 - عبـــد العزيـــز بـــن عبد الســـلام، أبـــو محمد عز الديـــن عبـــد العزيز بن عبد الســـلام بن أبي القاســـم بن الحســـن الســـلمي الدمشـــقي، الملقب بسلطان العلماء (ت ٦٦٠هـ) قواعد الأحـــكام في مصالح الأنـــام، دار الكتب العلميـــة - بيـــروت، ودار أم القرى - القاهـــرة) طبعة: جديـــدة مضبوطة منقحة، ١٤١٤ هـــ - ١٩٩١م (1/ 17)

18 - الزركشـــي بـــدر الدين محمد بـــن عبد الله بن بهادر الشـــافعي (٧٤٥ — ٧٩٤هـــ) المنثور في القواعـــد الفقهية (1/ 309)

19 - شـــرح أســـباب التفاوض غير المباشـــر بين الدول." ChatGPT، 24 May version، OpenAI، 27 Oct. 2023، chat.openai.com.

كيفية الاستشهاد داخل النص (In-text citation):

20 - DeepSeek. الســـنة: 2026م، الشـــهر: تشـــرين الثاني، اليـــوم: الثلاثاء 11 نموذج DeepSeek [إصـــدار النموذج]. تم الاســـترجاع مـــن https://chat.deepseek.com

21 - انظر: قبلان، زياد خليل، التفاوض الدولي وتسوية المنازعات الدولية، ص 179-178...

22 - انظـــر: Lebanese Israeli General Armistice Agreement (23 March 1949 ص: 1 (مقدمـــة الاتفاق). يظهر نص الاتفـــاق أن "no warlike act or act of hostility shall be conducted

23 -B'Tselem، "OSLO: Before and After — The Status of Human Rights" يحتوي على بيانات مثـــل "At the end of 1993، there were 115،700 Israeli settlers..." الص: 2 في النسخة en.palestine .PDF.

24 - الاتفاق المؤقت بيـــن (Palestine Liberation Organization (PLO وState of

Israel يمكنك الرجوع إلى النسخة المتاحة في موقع "Refworld" — تحتوي على الصفحة الأولى، للتوثيق.

25 - انظر: عاشور، محمد عبد الرحمن، التطبيع في الشريعة وأخطاره على القضية الفلسطينية والدول والشعوب العربية والإسلام، ضمن دراسات في التطبيع مع الكيان الصهيوني؛ ص22-23

26 - المادة 38 هي في الواقع جزء من نظام محكمة العدل الدولية، الذي يُعد جزءًا لا يتجزأ من ميثاق الأمم المتحدة. هذه المادة هي أساسية في مجال القانون الدولي، حيث تحدد مصادر القانون التي تطبقها المحكمة في الفصل في النزاعات.

هذا هو نص المادة 38 من نظام محكمة العدل الدولية:

المادة 38

1. وظيفة المحكمة أن تفصل في المنازعات التي ترفع إليها وفقاً لأحكام القانون الدولي، وهي تطبق في هذا الشأن:

o أ- الاتفاقات الدولية العامة والخاصة التي تضع قواعد معترفاً بها صراحة من جانب الدول المتنازعة.

o ب العرف الدولي، كدليل على ممارسة عامة مقبولة قانوناً.

o ج مبادئ القانون العامة التي أقرتها الأمم المتمدنة.

o د أحكام المحاكم ومذاهب كبار المؤلفين في القانون العام في مختلف الأمم، على اعتبار أنها وسائل مساعدة لتحديد قواعد القانون.

2. لا يترتب على هذا النص إخلال بما للمحكمة من سلطة الفصل في القضية وفقاً لمبادئ العدل والإنصاف، إذا وافق أطراف الدعوى على ذلك.

نظرة الغرب على الشرق بين البندقية والصين
رحلات ماركو بولو في العصور الوسطى" 1271 - 1295 م

هنادي أمين

الجامعة اللبنانية — الفرع الرابع
كلية الآداب — قسم التاريخ

عام 1295م، وصل ثلاثة رجال إلى مدينة البندقية، " يحملون متاعهم على ظهورهم، ويلبسون أسمالاً بالية، ويعلوهم العثر(1)، وقد ادعى هؤلاء الرجال أنهم من البندقية، وأنهم قد غادروها قبل ستة وعشرين عاماً، وأخذوا يلقون على مسامع الناس، القصص عن رحلتهم الطويلة التي أوصلتهم إلى بلاط أعظم ملك في العالم.

كان هذا ماركو بولو، الرحالة المشهور في العصور الوسطى، الذي وصل إلى الصين، وعمل في بلاط قوبلاي خان حاكم الصين المغولي، والذي لقبه أهالي البندقية بـ " ماركو الملايين"، بسبب قصصه العجيبة المليئة بالأعداد الكبيرة(2).

ورافقت علامات الاستفهام قصص هذا الرحالة، فما هي حقيقة وصوله إلى الصين، البلد الأبعد بالنسبة لأوروبا، وتحوله إلى مستشار للإمبراطور المغولي، حفيد جنكيزخان، قوبلاي خان.

وعندما طلب من ماركو بولو قبل وفاته، الاجابة عن هذه الأسئلة، قال: " إني لم أذكر في كتابي نصف ما شاهدته"(3).

إشكالية البحث:

هل وصل فعلاً ماركو بولو الى الصين، وهل اعتمده قوبلاي خان مستشارًا له كما روى في كتاباته، أم أن قصصه كانت من نسج الخيال؟ إن كان وصل الى الصين، هل استطاع فعلاً التأقلم في

امبراطورية المغول ليشهد العديد من القصص والتجارب، وليعود بعدها الى البندقية بعد سنين عديدة؟

لعل الفرضيات المتاحة للإجابة على هذه الإشكالية، أن رحلة الصين في ذهن ماركو بولو لم تأتي من العدم؛ إذ كان والد ماركو نيكولو وعمّه ومافيو تاجرَي مجوهرات، وقد مرّا سابقاً بهذه الرحلة إلى الشرق. ومن المرويات إنّهما عاشا فترةً في كنف الخان المغولي قوبلاي خان، حفيد جنكيز خان، الذي تفوّق على جده واستطاع السيطرة على كامل الصين لينقل إليها عاصمة المغول.

هذه التجربة تجعل من الممكن أن يكون ماركو بولو ذهب في هذه الرحلة الممتعة مرة جديدة، وليرتقي بخبرته ومعرفته في بلاط قوبلاي خان، مما أغنى رحلته الى الصين بالكثير من الروايات التي ما كانت لتكون واقعية، أو من نسج الخيال، لولا غناها وتماسها مع الواقع التاريخي لتلك الحقبة من امبراطورية المغول.

إن الفترة التي تحدث عنها ماركو بولو في كتابه، سواء كتبه أم كُتب عنه تثير الاهتمام، حيث من المهم تسليط الضوء على كيفية ارتقاء هذا الرحالة في البلاط المغولي. فقد استخدمه قوبلاي خان مبعوثاً خاصاً لبعض المناطق النائية من آسيا، مثل مناطق بورما والهند والتبت الحالية. وخلال فترة وجوده في بلاط الخان تعلّم ماركو بولو 4 لغات. ومع الوقت ترقّى بولو، يقال ايضًا أنه شغل منصب حاكم مدينة صينيّة، كما عيّنه قوبلاي خان مسؤولاً في مجلسه الخاص، وفي بعض الأوقات عينه مفتشاً للضرائب في إحدى مدن الإمبراطورية الضخمة.

1 - العلاقات الأوروبية الصينية.

كان لطول المسافة التي فصلت بين اوروبا والصين بالاضافة إلى أن وجود الامبراطورية البارثية(*)، الفاصل بين املاك روما وبلاد الصين، قد منع قيام علاقات مباشرة بين الدولتين، اللهم إلا عبر شعوب أخرى كانت تربط بينهما، عبر شبكة الطرق التجارية التي قطعت وسط آسيا، مروراً بالصحاري والوديان والجبال، التي جعلت التواصل بين الدولتين أمراً مستحيلاً حينها(4) فلم يعرف الرومان وجود دولة توازي دولتهم، من حيث الحجم والقوة والقدرات الاقتصادية.

إلا ان بعض المصادر القليلة، أشارت إلى شعوب الشرق الأقصى التي يأتي منها الحرير، وذكرت هذه المصادر ما أطلق عليهم إسم " السيريين " ومعناها " شعب الحرير"، حيث ظن الرومان أن هؤلاء يحصدون الحرير من غابات تقع على " الطرف الخارجي لآسيا"(5).

كما أورد المؤرخ الروماني " فلوروس "، عن سفراء وصلوا إلى روما، ذكر منهم " السيريون والهنود، وهم الذين يقطنون مباشرة بجوار الشمس"(6).

أما بلاد هؤلاء " السيريين " فيوضحه المؤلف والفيلسوف الروماني بليني الأكبر (25– 79م)، فيعين مكان إقامتهم في شمال سلسلة جبال الهملايا، في إقليم " تاريم " وهو يقع في إقليم الإيغور المستقل حالياً الى الغرب من الصين(7).

وهكذا، بقيت معلومات الرومان عن الصين غير واضحة، إلى أن تمكن التجار من تبيان بعض حقائق الصين، فالجدير ذكره، إلى ان فترة حكم الامبراطور " أوغسطس قيصر " إزدهرت بالتجارة البحرية التي ربطت بين العالم الروماني والهند، حيث يذكر أن حوالي المائة وعشرين سفينة كانت تنطلق من مصر باتجاه الشرق الأقصى، لتكون بدايات التأسيس للعلاقة التي ربطت بين اوروبا والصين وليتحول الحرير الصيني، إلى أبرز انواع البضائع التي أسست لعلاقات تجارية وسياسية فيما بعد بين العالمين الشرقي والغربي، وفتحت أعين أوروبا على الشرق الأقصى(8).

وبدأ التجار الرومان يكتشفون شرق آسيا، فيورد أحدهم عام (70م) عن منطقة تقع خلف نهر الغانج، ينتج فيها الحرير ليصدّر عبر إقليم "تاريم"(9). إلا ان هذا المكان، الذي ينتج الحرير بقي لغزاً، فإمكانية الوصول إلى الصين براً، كانت ممنوعة من قبل "الباريثيون" الذين منعوا التجار الرومان من المرور عبر شرق إيران، وذلك بهدف الحفاظ على احتكارهم تجارة الحرير الصيني.

وعلى الرغم من محاولة القائد العسكري الصيني "بان شاوي" من الوصول إلى دولة "البارثيين" ومحاولات الرومان من خلال الامبراطور "تراجان" عام 116م، من القيام بنفس المهمة من جهة الغرب، إلا أن القائدان فشلا في مهمتهما، كما فشلت إمكانية التواصل المباشر بين الدولتين (10).

إلا ان محاولات القائد "بان شاوي" أفلحت في إكتشاف وجود دولة عظمى في الغرب، أطلقوا عليها إسم "داكن" أي "الصين العظيمة" وذلك من خلال التواصل مع رسل الممالك التي كانت على علاقة بالامبراطورية الرومانية(11)، وبغض النظر عن بعض أنواع التواصل القليلة التي حصلت بين بعض التجار وملك "الهان"(*)، إلا أن التواصل المباشر كان يتم فقط عبر التجارة البحرية وبشكل قليل ونادر.

وتورد كتب تاريخ "الهان"، عن العام 166م، وصول مجموعة من الرومان إلى فيتنام، لينقلوا بعدها إلى العاصمة الصينية لمقابلة الامبراطور بشكل رسمي، ويبدو من خلال الأحداث، ان هذه المجموعة لم تكن مرسلة بشكل رسمي من الامبراطورية الرومانية وأن

الصينيين اعتقلوهم ونقلوهم إلى امبراطورهم(12). كما وردت اخبار أخرى عن وصول تجار أوروبيين إلى الصين، إلا انها تبقى ضمن إطار العلاقات النفعية ليس إلا(13).
ومع قيام الدولة البيزنطية، سعى الامبراطور "جستنيان" (565–527م) إلى الحصول على سر صناعة الحرير عن طريق الرهبان النساطرة، الذين كانوا قد أسسوا لأنفسهم تجمعات في الدولة الساسانية، وكانوا يجوبون طريق الحرير، فدخلوا الصين وترجموا الكتاب المقدس إلى اللغة الصينية، فطلب منهم جستنيان الحصول على اسرار صناعة الحرير، ويذكر أن بعض هؤلاء الرهبان قصد بلاد الصين واستطاع نقل بذور من التوت وبيض دودة القز، من خلال إخفائه داخل عكازات مجوفة، إلا أن صناعة الحرير البيزنطية، بقيت على الرغم من ذلك رديئة. لتحافظ بالتالي، طريق الحرير على أهميتها ودورها، طيلة سبعماية عام، حتى بدأ عصر تجارة البندقية، ورحلات المستكشفين ومنهم ماركو بولو(14).

2 - ماركو بولو والطريق إلى الصين.

ولد ماركو بولو عام 1254م، في مدينة البندقية، من عائلة من النبلاء، وينقل أن والده نيقولو وعمه مافيو، قد تعرفا على قوبلاي خان، القاآن المغولي، من خلال علاقتهم التجارية مع الصين (15) وكان ذلك على أثر إنضمام الأخوين بولو إلى مبعوثي الخان المغولي في مدينة بخارى، حيث كانا يتواجدان فرافقا بعثة الخان عاماً كاملاً حتى وصلا إلى بلاطه، فأحسن استقبالهما، وأستفاد من معلوماتهما
عن اوروبا والحياة فيها، وعن ملوكها والبابا والكنيسة، ومدينة روما وما يجري فيها. ليبعث بهما الخان بعد ذلك، كسفارة من قبله إلى البابا، طالباً منه "مائة مُبشّر" (*) بالاضافة إلى زيت من قنديل الناووس المقدس(16).
ومع عودة الأخوين بولو إلى إيطاليا، وجدا أن البابا قد مات، فقصدا البندقية، بانتظار أختيار بابا جديد، وفي البندقية كان ماركو بولو قد بلغ من العمر الخامسة عشر وتوفيت والدته، فقرر والده نيقولو أن يصحبه معه في رحلة العودة إلى قوبلاي خان عام 1271م، مع الزيت المقدس الذي حصلوا عليه، مع عدم تمكنهم من اصطحاب أي مُبشّر، كون أن الكنيسة كانت منقسمة حينها(*).
إلا أنهما اكتفيا برسالة من المندوب البابوي في عكا(17) وبعد ثلاث سنوات وصل آل بولو الثلاثة إلى قوبلاي خان عام 1275م، وهناك أعجب الخان المغولي بماركو بولو، فكلفه بعدة مهمات رسمية من قبله، فكان مبعوثه إلى الأقاليم الصينية المختلفة.
حيث أن الخان الذي كان يعتبر رجاله "حمقى وأغبياء، لعجزهم عن إبلاغه بأي شيء

عن"عادات وأعراق" الأقاليم التي كانوا يزورونها "الا أن ماركو بولو، أثار إهتمام الخان برواياته وقصصه، عن مشاهداته التي كان ينقلها بتفصيل للخان الأعظم(18).
وخلال السبعة عشر عاماً التي قضاها ماركو بولو عند قوبلاي خان، نقل مشاهداته التي ظهرت من خلال كتابه الذي يعتبر من أبرز كتب الأسفار، كما يعتبر مصدراً في العصور الوسطى عن بعض مناطق آسيا الوسطى والدولة الفارسية، وعن الصين الكبرى في عهد الأسرة المغولية(19) التي بدأت بإحتلال الصين مع العام 1257 م حتى العام 1368م وسقوط العاصمة بكين بيد أسرة مينغ الصينية(747م)، ونهاية الحكم المغولي في الصين(20).

2 - **قوبلاي خان** (-658 693 هـ / 1260 – 1294م)
هو قوبلاي ابن تولوي ابن جنكيز خان (21)، كان أخاه منكوقاآن قد عينه هو وأخوه هولاكو، للسيطرة على البلاد المحيطة بالدولة المغولية، فكان نصيب هولاكو المنطقة الغربية من بلاد المغول، فتوسع في فتوحاته حتى دخل بغداد وأسقط الخلافة العباسية عام 656هـ / 1258م .
أما قوبلاي، فكان عليه السيطرة على البلاد الشرقية وممالك الخطا(*) فتوسع حتى دخل الصين (22).
ومع موت منكوقاآن، وقع الخلاف بين أخوته حول من يتسلم السلطة من بعده، وكان أحد الأخوة " أريق بوقا " وهو الأصغر، ينوب عن منكوقاآن في مدينة قراقورم (*) عاصمة المغول، فلما وصل إليه خبر موت القاآن، اعلن نفسه خاناً بمساندة عدد من افراد الأسرة المغولية الحاكمة، خصوصاً وأن أبناء منكوقاآن كانوا لا يزالون صغاراً في السن.
إلا أن جيش الصين المغولي طالب بقوبلاي خاناً، وإنقسم المغول بين الأخوين، لينعقد مجلسين وطنيين للمغول (القوريلتاي) أحدهما عين قوبلاي خاناً، والآخر اختار أريق بوقا عام 1260 م . (23).
إلا أن قوبلاي وبمساندة الجيش وقادته، استطاع أن ينتصر على اخيه وأوقعه في الأسر عام 662هـ / 1263 م (24).
لم يتخذ قوبلاي خان من قراقورم عاصمة له، بل تحول إلى الجنوب، حيث أعاد بناء بكين عام 1267 م، وغيّر اسمها من عاصمة الشمال(بكين) إلى " خان باليك " [مدينة الخان](25) وأخذ يعمل للسيطرة على باقي أنحاء الصين وما يجاورها من البلاد، مثل فيتنام وكوريا واليابان. كما اعلن قوبلاي خان نفسه خليفة لأباطرة الصين، وأسس أسرة يو – وان

عام 1279 م(26)،وتبنى حضارة الصين، التي كان متأثراً بها، وهو بذلك يكون قد تخلى عن قوانين جنكيز خان المغولية(27).

واستطاع قوبلاي خان، وبعد عشرين عاماً من الحروب المتواصلة، أن يسيطر على اقاليم الصين الجنوبية ويقضي على اسرة "سونج" الصينية، عام 678هـ/ 1288 م(28).

وأولى الروابط التي تشكلت بين قوبلاي خان وأوروبا، كانت عبر رحلات آل بولو إلى الصين، وخدمات ماركو بولو للخان، والتي اعتبرها المؤرخون الغربيون، اولى العلاقات مع أسرة صينية حليفة للغرب المسيحي(29).

3 - ماركو بولو وقوبلاي خان : نظرة الغرب على الشرق.

يبدأ ماركو بولو بالتعريف بالخان المغولي قوبلاي، البالغ من العمر الخامسة والثمانين في زمن الرحالة البندقي، فيصفه قائلاً : "لم يكن فحسب شجاعاً مقداماً في القتال، ولكنه يُعدَّ في شؤون الحكمة والعدالة والمهارة العسكرية، أكفأ وأنجح قائد قاد التتار — الدهر كله"(30).

وفي كتابه، يظهر ماركو بولو، إحترام قوبلاي خان للديانة المسيحية، فهو يستقبل آل بولو الثلاثة، ويُسرُ برسالة البابا جريجوري وبهداياه، "وتلقى بالتوقير الواجب الزيت المجلوب من القبر المقدس، ثم أصدر تعليماته بالاحتفاظ به بعناية ملؤها التقوى"(31).

بعدها يتعرف على ماركو بولو، ويضمه إلى أتباع الشرف من ضمن حاشيته(32).

ويتعلم ماركو بولو "آداب التتار وأعرافهم ... وحذق أربع لغات مختلفة تمكن منها قراءة وكتابة" (33).

في الواقع فإن البلاط المغولي، الذي أظهر تأييده للمسيحية، أثار الكثير من آمال حكام أوروبا، الذين اهتموا بتطوير العلاقة معه، وكان لإزدهار التجارة، على ما عُرف بطريق الحرير، الذي كان يمر بوسط آسيا، وبلاد فارس، وأرمينيا وصولاً إلى الصين، أن ساهم في ظهور التجار الأوروبين في تلك المناطق، وخصوصاً في فارس، فظهرت المحطات التجارية الايطالية في تبريز، التي وصلت إليها البضائع من وسط آسيا والشرق الأقصى، كما تنقلت السفن بين الصين والخليج العربي، محملة بالبضائع.

هذا التواصل التجاري، بين الشرق والغرب، رافقه تبادل للهدايا بين حكام أوروبا والخان المغولي قوبيلاي، عبر السفارات التي تبودلت بين الطرفين، بالاضافة إلى الرحلات التي قام بها التجار الغربيون إلى تلك المناطق في الصين (34) لذلك نجحت رحلة ماركو بولو، التي كانت صلة وصل بين هذين العالمين، الغرب والشرق، ولاقت قصصه رواجاً في الغرب،

فكانت كتاباته التي وصفت ثروات الشرق وغناه أثرها الكبير في تشجيع عدد من الرحالة والمستكشفين الغربيين على المغامرة في اجتياز مجاهل آسيا، والبحث عن أفضل وأسهل الطرق للوصول إلى الشرق الأقصى والهند مما ساهم في اكتشاف القارة الأميركية (35) وهو ما أوردته الكاتبة إيلين بور في قولها أن ماركو بولو قد اكتشف بلاد الصين في القرن الثالث عشر وهو على قيد الحياة، واكتشف أميركا في القرن الخامس عشر بعد وفاته(36).

ونعود لماركو بولو، الذي يصور قوبلاي خان، بالشخصية التي تحترم الأديان فهو يأمر بتعطير الانجيل في عيد الفصح، ويقبله بخشوع ويأمر كافة النبلاء بأن يحذو حذوه، ويضيف ماركو بولو، إلى ان الخان كان يفعل نفس الشيء في كل الأعياد المسيحية، وحتى في اعياد المسلمين واليهود والوثنيين(37).

في الواقع، فإنه من المعروف أن بلاط الخان المغولي في قراقورم ومنذ عهد جنكيز خان، تواجدت فيه مجموعة من المرشدين والمستشارين، منهم المسلم والمسيحي والبوذي وعبدة الأوثان(38)، وبذلك فإن الخانات المغول وأبنائهم، كانوا على إطلاع على كافة الأديان من سماوية ووضعية، وعلى الكثير من عادات وتقاليد وأعراف وأنظمة الشعوب المختلفة التي عرفت في عصرهم(39).

وظهر احترام الأديان عند المغول، من خلال قانون الياسا(*) الذي ضمّ بعض القواعد التي أثبتت اهمية وقدسية الديانات واحترام أتباعها، وهو ما أورده الجويني : "... ولما لم يكن معتقداً بدين معين (جنكيز خان) فإنه لم يتعصب لملة على ملة، تاركاً المرء وما يعتقد، في حين أن علماء كل أمة وزهادها مكرمون معززون، ويعدون إكرامهم وسيلة للتقرب إلى الله، وهم ينظرون إلى المسلمين نظرة توقير، ويعزّون الرهبان وعبدة الأوثان أما أولادهم فكانوا مخيرين بالدين الذي ينتمون إليه، فبعضهم تقلد شعائر الاسلام، وبعضهم سار سير النصارى، وطائفة عبدت الأوثان، كما ظلت فئة تعتقد إعتقاد أجدادها القدماء فلم تمل إلى دين معين، ولم تكن طائفة تدخل في الدين وتتعصب له، بل تتقلده وتسير على تعاليمه"(40) .

في الواقع فإن قوبلاي خان، الذي عرف بثقافته وتعليمه، حتى فاق مع أخيه هولاكو أقرانهم من الأمراء المغول، كان معجباً بالديانة البوذية(*)، التي كانت منتشرة حينها في الصين إلا أنه لم يتخلّ، ظاهرياً كما يبدو، عن الديانة الشامانيه (*)، التي هي ديانة المغول.

ونعود إلى ماركو بولو، الذي يأتي على ذكر كيفية اختيار الخان للسراري، فهو يرسل الموظفين المختصين في كل عام إلى بلاد "التانجوت" (*) فيجمعون له أربعماية "من أملح الشواب فتنة وفق تقدير الجمال المبلغ إليهم فيما لديهم من تعليمات، عبر فحص يجري لهن"(42).

بعدها يرسلن إلى الخان، ليجري فحص آخر عليهنّ ليحتفظ " لمخدعه الخاص بثلاثين أو أربعين أو ستين تقديراً أعلى منهن"(43).

ويتسآل ماركو بولو : " ألم يكن أهل تلك الولاية يشعرون بمضض لأخذ الملك بناتهم؟، فيجيب قائلاً: " كلا بكل تأكيد، إذ انهم، على العكس، كانوا يعدون ذلك فضلاً وتشريفاً لهم"، فأبنتهم قد تصبح الامبراطورة وسيكون لها مركزاً مرموقاً في قصر الخان(44).

أما عن مدينة الخان، فيورد ماركو بولو، انه يقع في وسط المدينة "جرس كبير، معلق في بناء مرتفع، يدقونه كل ليلة، ولا يجرؤ إنسان بعد الدقة الثالثة أن يتواجد في الشوارع إلا أن يكون مضطراً تحت دافع ملح"(45).

بعدها يتطرق ماركو إلى ذكر، " عدد العاهرات اللائي يتجرن بأعراضهن مقابل المال.... خمسة وعشرين ألف بغي وقد جعل على كل مائة وكل ألف من هؤلاء البغايا ضباط مشرفون يأتمرون بأوامر قائد عام"، ويشرح ماركو بولو السبب في ذلك، وهو لوضعهم في خدمة السفراء الذين يخدمون الخان، الذين "ولكي يعاملوا بأبلغ تكريم، يؤمر القائد بتزويد كل فرد من أفراد السفارة، كل ليلة بإحدى هؤلاء العاهرات التي يجري تغيرها بالمثل كل ليلة، وهي خدمة لا يتقاضين عليها أي أجر، نظراً لأنها تُعدّ شبه آتاوة عليهن أداؤها للعاهل"(46).

ثم يتحدث ماركو بولو عن شدة الخان في تطبيق النظام من خلال واقعة حدثت أثناء وجوده حيث قام بعض من السكان المحليين المسلمين بقتل أحد مستشاري الخان، والعقوبة التي انزلها بهم، وكيف أن قوبلاي وبعد ان ثبت من خلال التحقيقات أن مستشاره كان سيء السيرة هو وأولاده، أصدر أوامره بنبش قبره وإلقاء جثته في الشارع " لكي تنهشها الكلاب وتمزقها إرباً، كما صادر ثروته، وامر بان تسلخ جلود أبنائه أحياءً_(47).

هذه الطريقة في العقاب، ليست جديدة عند المغول، فمن المعروف أن قانونهم "الياسا" يورد قواعد شديدة القسوة في إنزال العقاب بالجاني، مهما كان، وهي من عادات وتقاليد المغول التي قوننها ونظمها جنكيز خان(48).

ومن المعروف، أن بلاط خانات المغول، عرف الكثير من الوشايات التي قامت بين الوزراء والمستشارين والقادة، الذين كانوا يحقدون على بعضهم البعض، من الأمثلة على ذلك، وشاية الوزير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، على وزير الايلخان أولجايتو محمد خدابنده (ت 716 هـ/1316 م)، حيث أمر الايلخان بقتل وزيره سعد الدين ومن معه في بغداد من نوابه(49) كما قتل الوزير رشيد الدين فضل الله

الهمذاني وولده عز الدين في عهد الايلخان أبو سعيد بهادرخان (ت 736هـ/1335م)،

وأرسل رأسه إلى تبريز " وصاروا يطوفون به ويلعنونه ويقولون أن هذا رأس يهودي بدّل كلام الله"، وذلك بوشاية من الوزير تاج الدين علي شاه(50). كما وفي عهد آرغون بن آباقا(ت690هـ/1291م)، أمر بقتل شمس الدين محمد الجويني، صاحب الديوان، وأفراد عائلته(51).

في الواقع، فإنه كان كل من له غاية في الوصول إلى منصب ما، يعمد إلى إظهار المودة للخان وذكر مساوئ خصمه كي يوغر صدر الخان عليه، فيعينه مكانه حتى ولو كان ذلك عبر تلفيق التهم التي قد تكون نتيجتها الاعدام بحق المشكوك بولائه.

ثم يتوسع ماركو بولو، في وصف حياة الخان، وذكر حرسه الشخصي، الذي بلغ إثني عشر الف فارس، يطلق عليه إسم كاستيان ومعناها " الجند المخلصون لسيدهم" (52) والطريقة التي يعقد بها الخان قوبلاي مجالسه العامة(53) كما يصف عيد ميلاد قوبيلاي، الذي يقع في الثامن والعشرين من أيلول، حيث يحتفل به " جميع رعايا الخان الأعظم وهذا هو أعظم أعيادهم، بعد استثناء العيد الذي يقام في رأس السنة"(54)، وهذا العيد الأخير يقع في الأول من شهر شباط من كل عام،و هم يعتبرونه بداية السنة عندهم، "ولهذه المناسبة جرت عادة الخان، وكذا كل رعاياه، بمختلف بلادهم، أن يرتدوا البياض، الذي هو حسب معتقداتهم علامة الحظ السعيد"(55).

ويختتم الاحتفال بهذا العيد، حيث " يقاد أسد إلى حضرة جلالته،و هو من بالغ الاستئناس بحيث يصبح مدرباً على ان يرقد عند قدميه"(56).

ومع حلول فصل الشتاء، يضيف ماركو بولو، يعطي الخان أوامره " بخروج جماعات القنص ... للصيد بجميع الأقاليم... ويطالب حكام النواحي أن يرسلوا إلى المقر الامبراطوري جميع أنواع الصيد في اكبر أحجامها"(57).

ويعطينا ماركو بولو، صورة عن مشاهد الصيد التي كان يقوم بها قوبيلاي، وحيوانات الصيد التي كانت ترافقه، فللخان " الكثير من الفهود التي يحتفظ بها بقصد مطاردة الغزلان فضلا عن الكثير من الأسود ..."

ويصف ماركو بولو، مشهد الأسود التي تلاحق الحيوانات: " وأنه لمنظر رائع، ذلك الذي يتجلى، عندما ينطلق الأسد ليعقب الحيوان، وحين يشاهد التلهف الوحشي والسرعة الخاطفة التي يدركه بها"(58).

ويضيف ماركو بولو إلى حيوانات الصيد لدى الخان " نسوراً دربت على الانقضاض على الذئاب، وهي من الضخامة والقوة بحيث لا يستطيع ذئب مهما بلغت ضخامته (النجاة) من براثنها(59).

وبعد رحلة الصيد التي يقوم بها الخان في شهر آذار(60) " يعقد الخان الأعظم عند عودته إلى عاصمته جلسة عظيمة وفخمة للبلاط، تستمر ثلاثة أيام يأدب أثناءها المآدب، أو يقدم الملهيات والتسليات إلى كل من يحيط به"(61).

من الجدير ذكره، أن الصيد عند المغول عادة يدأبون عليها في كل عام، وقد فرض جنكيز خان الصيد على الجيش، فكان الصيد يقام في موسم الشتاء مع نزول الجليد وينتهي مع ظهور العشب، وهي الفترة التي تبدأ فيها بشن الحرب، لكن في الحالات الطبيعية حيث لا حروب كان الصيد عادة عندهم، حيث يشارك الخان وأبنائه وأفراد
العائلة، والقادة كلهم في رحلات الصيد(62) .

بعدها يصف لنا ماركو بولو نظام الدولة الاقتصادي، فيذكر العملة الورقية التي يصدرها الخان، وطريقة صنعها، فيقول : " فإنه يأمر بنزع اللحاء من أشجار التوت، التي تستخدم أوراقها لتغذية دودة القز، ويأخذ منها تلك القشرة الداخلية الرقيقة التي تقع بين اللحاء اليابس الأخشن وخشب الشجرة، فتنقع تلك القشرة ثم تدق بعد ذلك في هاون، حتى تتحول إلى عجينة يصنع منها الورق... فإذا أصبح معداً للإستعمال، امر به فقطع ليكون نقداً ذا أحجام مختلفة، وهو مربع تقريباً، ولكن طوله أطول قليلاً من عرضه" (63).

كما ان الخان يكلف مجموعة من الموظفين من أصحاب الخبرة لفحص السلع التي تدخل إلى الأسواق، من خلال القوافل التجارية، الآتية من مختلف المناطق، وتحديد قيمة تلك السلع" التي ينبغي أن تباع بها، ثم يسمح بمكسب معقول يضاف إلى المبلغ الذي قدّرت به البضاعة"(64).

ثم يصف لنا ماركو بولو مجلس الضباط المعين من قبل الخان للإشراف على الجيش، ومجلس الاثنا عشر الذين يتولون شؤون الامبراطورية بشكل عام، ويظهر هؤلاء وكأنهم مجلس للوزراء يتبع الخان بشكل مباشر، ويتولون سلطات عليا، فهم يملكون سلطة " اختيار الأفراد الواجب تعيينهم حكاماً في الولايات العديدة "، كما ان لهم حق الاشراف " على كل موضوع يتعلق بجباية الضرائب... كما في يدهم الهيمنة على كل مصلحة أخرى من مصالح الدولة، باستثناء واحد فقط هو ما يتصل بالجيش من أمور" (65).

أما طرق التواصل بين الأقاليم والولايات داخل الامبراطورية، فيأتي ماركو بولو على ذكر " دور البريد"، ويطلق عليها اسم " دور راحة للمسافرين"، هي عبارة عن "مبان ضخمة وجميلة" وفي هذه المحطات أربعماية من جياد الخيل كلها في حالة استعداد مستمر، حتى يتمكن جميع الرسل الذاهبين والغادرين في خدمة الخان الأعظم وأعماله، وجميع السفراء من الحصول على ابدال ويزودوا"(66).

ويهتم الخان بتنظيم هذه الطرق العامة وتزيينها، " فيأمر بغرس الأشجار على جانبي الطرق العامة" ولهذه الأشجار فوائد عديدة، فهي " تساعد، فضلاً عما تمده من ظل في الصيف"، تساهم أيضاً في " توضيح الطرق [للمسافر] عندما تكتسي الأرض بالجليد" [شتاء].

أما الطرق التي تمر من خلال الصحاري الرملية، او من خلال الجبال الصخرية، "حيث من المستحيل غرس الشجر، أمر جلالته فوضعت على جانبي الطرق أحجار وأقيمت أعمدة لتكون بمثابة ... علامات لهداية المسافرين "(67).

وبعد هذا الوصف لنظام الدولة وتنظيمها في عهد الخان الأكبر قوبيلاي خان، يُظهر ماركو بولو مدى إيمان الخان بالمنجمين والعرّافين، والذي يُقدر عددهم في عاصمة الخان وحدها بخمسة آلاف " يتولى الخان الأعظم إمدادهم بالطعام والكساء بنفس الطريقة التي يعول بها العائلات الفقيرة"، ومع كل من هؤلاء المنجمين والعرافين إسطرلاب " تصور عليه علامات الكواكب"، عبر جداول يكتشف عبرها "ما سيكون عليه حال الجو". هؤلاء المنجمون يتنبأون بالظواهر الخاصة بكل شهر (رعد، عواصف، زلزال، امطار عنيفة، انتشار الأمراض، الوفيات، الحروب، الخلافات والمؤامرات).

ويضيف ماركو بولو، ان هؤلاء "يكتبون تنبؤاتهم عن السنة داخل مربعات صغيرة، ويبيعونها"(68).

ويبدو من خلال وصف ماركو بولو أن هؤلاء العرّافين هم كهنة الديانة الشامانية، وهي من الديانات الوثنية، التي كانت منتشرة بين المغول، وتتمثل في عبادة كل ما يخشونه أو يرهبونه، من ظواهر الطبيعة، واتباع هذه الديانة يؤمنون بالقوى السحرية، وللكهنة الشامانيين خبرة بالسحر والتنجيم، وتحضير الأرواح لكشف الغيب والتنبوء بالمستقبل(69).

وينتقل ماركو بولو إلى وصف دين المغول ومعتقداتهم وهي على الأرجح البوذية، حيث أن قوبلاي خان، ومع أنه كان يحترم كل الأديان، إلا انه سعى إلى نشر البوذية على حساب الديانة الطاوية "(*)" مع الحفاظ على الفلسفة الصينية العقلانية"(70).

ويؤمن أتباع هذا الدين بالولادة الثانية "وأنه تبعاً لمسلك الفضيلة أو الشر الذي اتبعه أثناء حياته، ستكون حالته المستقبلة بإطراد أفضل أو أسوأ"(71). بعدها ينتقل ماركو بولو وباستفاضة في الحديث عن ولايات مملكة قوبلاي خان وأبرز المدن فيها، وبعض العادات والتقاليد المنتشرة بينهم.

ثم يختتم ماركو بولو رحلته داخل بلاد الصين في مملكة قوبلاي خان، حفيد جنكيز خان، فبعد سبعة عشر عاماً في خدمة الخان، قرر البنادقة الثلاثة العودة إلى البندقية، خصوصاً مع خشيتهم من موت الخان الذي كان يعطف عليهم ويقربهم منه، ألا أنهم خشوا من أن

يحرموا من الامتيازات التي حصلوا عليها من بعده.
وكان قوبلاي خان يرفض السماح لهم بالمغادرة، إلى ان أوتيت الفرصة، عندما طلب أرغون خان(*)، خطبة إحدى فتيات القصر، وكان عليهم نقلها بحراً، فطلب من البنادقة الثلاثة، نظراً لمهارتهم في فنون الملاحة، مرافقة السفارة إلى فارس، فكان
انطلاقهم من الصين عام 1292 م(72).
والجدير ذكره، ان فترة حكم أسرة جنكيز خان وأحفاده، عرفت الرحلات التي قامت بها الأميرات المغوليات من الصين إلى فارس ليتحولن إلى عرائس للأمراء المغول في بلاط إيلخانات فارس، وكان يرافق هذه الرحلات عدد من الخدم والأتباع(73).
إلا ان قصة انتقال الأميرة من بلاط قوبلاي إلى بلاط إيلخانات فارس، تثير عند بعض المؤرخين، علامات الاستفهام حول مصداقية ماركوبولو وصدق روايته ككل حول الرحلة إلى الصين، وما جرى معه هناك.
وتورد فرنس وود، الباحثة الانجليزية، ان قصة انتقال الأميرة "كوجاتين" من الصين إلى بلاد فارس، وردت عند رشيد الدين الهمذاني، كما في نص صيني رسمي، إلا أن الروايتين لم تأتيا على ذكر وجود أوروبيين مرافقين لهذه الرحلة، مما يثير عدد من علامات الاستفهام، هل أن ماركو بولو قد بالغ بذكر أنه كان من الطبقة المقربة من قوبيلاي خان، أو ان رشيد الدين قد قصد من وراء عدم ذكرهم، كونه كان متحاملاً على الأوروبين!!، وقد تكون هذه القصة مقتبسة من مصدر آخر، وهنا تتساءل "وود": " فإن الشيء الثاني الذي وجدته بالغ الاثارة لدى النظر إلى النص في مجمله هو انه، فيما عدا المدخل، لا يتضمن إلا القليل جداً من الاشارة إلى الأخوة بولو أنفسهم ؛ إنه عمل جغرافي أو تاريخي أكثر بكثير من كونه وصفاً شخصياً لأشياء تمت رؤيتها"(74).
في الختام، ينطلق البنادقة من فارس إلى البندقية التي وصلوها عام 1295 م وخلال الطريق سمعوا بخبر موت قوبلاي خان(75).
وفي البندقية التي وصلوها لم يصدق أهلها قصص آل بولو، إلا أن هذه الأسرة، ونظراً لكونها أسرة غنية، فقد شاركت في إعداد سفينة قتالية، أثناء الحرب مع مدينة جنوى، وكان ماركو بولو على متنها، إلا أن أسطول البندقية هزم أمام جنوى عام 1296م، ووضع ماركو بولو في السجن مدة ثلاث سنوات، يقال أنه خلالها أملى كتابه على شخص يدعى "رستيكان" من مدينة بيزا، داخل السجن، ومع عودته إلى البندقية عام 1299 م، تزوج، ولم يعرف عنه شيئاً بعدها(76).

– من وضع كتاب ماركو بولو؟

ان عدم ورود ذكر لماركو بولو، في الوثائق الصينية وحتى المغولية أثار الكثير من الشكوك حول قصة هذه الرحلة إلى الصين وخصوصاً أن ماركو، حسب القصة، كان مقرّباً من الخان شخصياً(77)، مما أثار الشك بأن يكون ماركو بولو قد أعاد سرد بعض القصص أو الأحداث التي وقعت فعلاً في الصين، خلال حكم قوبيلاي خان، مع طرح إمكانية أن يكون آل بولو قد وصلوا فعلاً إلى بكين، إلا انهم لم يكونوا في الموقع الذي ذكره ماركو في رحلاته، وبالتالي فإن ماركو بولو اعتمد على المرويات التي نقلها عن آخرين، حول مدن الصين وما ورد في رحلاته من عادات وتقاليد وقصص (78) .

والتساؤل الثاني، حول مصداقية رحلات ماركو بولو كانت من خلال كاتب القصة نفسه، "روستيتشيللو البيزوي"، الذي كان داخل السجن نفسه الذي تواجد فيه ماركو بولو، وقد أسره الجنويون عام 1284 م، بعد معركة بحرية وقعت بين مدينتي بيزا وجنوى(79) وهو احد كتاب القصص المعروفين، وكان مقرباً من الملك إدوارد الأول، ملك بريطانيا، ورافق هذا الأخير في حملته الصليبية إلى عكا بين الأعوام 1270 – 1273 م. وقد لاحظ أحد الباحثين وأثناء المقارنة بين رحلة ماركو بولو، والروايتين التي وضعهما روستيتشيللو، عن المغامرات الأسطورية للملك آرثر، عن أوجه شبه بينها، مما يدّل على ان روستيتشيللو هو الذي وضع قصة رحلة ماركو بولو خصوصاً وأن من يقرأ هذه القصة يلاحظ أن هناك من يصف ما رآه بولو أو شارك فيه، وقد يكون ذلك عائد إلى التأليف المشترك بين شخصين للقصة (80).

وفي الختام وبغض النظر إن كانت قصص ماركو بولو هذه حقيقة أو من الخيال، وكون معاصروه أتهموه بأنه راوية قصص(81).

إلا انه لم يتراجع عن قصته هذه حتى آخر لحظة من حياته، بل أنه يجيب بعدما سُئل عن حقيقة ما رواه حول رحلته إلى الصين: " إني لم اذكر في كتابي نصف ما شهدته(82) وعلى الرغم من كل ما ورد يبقى ماركو بولو يمثل العلاقة التي ربطت بين الصين وأوروبا في العصور الوسطى، فهو الذي عبَر المسافات، وانتقل بين الاختلافات، فكان مُبشراً ثقافياً وحضارياً، "ادخل السباغيتي الايطالية إلى الصين، والمعكرونة المسطحة إلى إيطاليا،" فضلاً عن اعتباره صاحب الفضل في الايحاء بـ(البوظة) الايطالية، وحتى اليوم لا يزال كتاب ماركو بولو، يعتمد في الأبحاث الأكاديمية عن الصين في العصور الوسطى، إن كان حقيقة أم انه نقل عن كتاب للرحلات أو انه من نسج الخيال، إلا انه أورد معلومات قيمة، تؤكد المصادر عن تلك المرحلة مصداقيتها بغض النظر إن كان ماركو بولو شارك فيها أم أنه لم يشارك(83).

الهوامش

1 – ول ديورانت، قصة الحضارة، بيروت : دار الفكر، د.ت، 4 : 218.

2 – المرجع نفسه، 4 : 219.

3 – المرجع نفسه، 4 : 227.

* الدولة البارثية : تنسب إلى البارثيون أو الفارثيين، وهم فرع من الايرانيين.

– هنري عبودي، معجم الحضارات السامية، طرابلس : جروس برس، ط2، 1991، ص 207.

4 – راؤول مكلوغيلن، العلاقات بين روما القديمة والصين، ترجمة ليلى عادل زيتون، مجلة الثقافة العالمية، مارس أبريل 2012، العدد 165، ص 159.

5 – المرجع نفسه، ص 160.

6 – المرجع نفسه، ص 162.

7 – المرجع نفسه، ص 163.

8 – الثقافة العالمية، ص 164

9 – الثقافة العالمية – المرجع السابق، ص 165.

10 – المرجع نفسه، ص 165 – 169.

11 – المرجع نفسه، ص 167.

(*) هي مجموعة قبائل رعوية، كانت في العصر الروماني بعيدة جداً عن الدولة الرومانية عاشت في سهول آسيا، تنتقل من مرعى إلى آخر مع قطعان الخيل والماشية – سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية 1976، ص 55.

12 – الثقافة العالمية– المرجع السابق، ص 173 – 174.

13 – الثقافة العالمية، ص 174 – 175.

(*) الدولة الساسانية : سلالة فارسية أنشأت أمبراطورية حول الهضبة الايرانية عرفت بالامبراطورية الساسانية (224 – 651 م).

– هنري عبودي، معجم الحضارات السامية، المرجع السابق، ص 452.

14 – الثقافة العالمية، المرجع نفسه، ص 171 – 177.

15 – ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف الكتاب الثاني، 2002، 1: 12.

(*) حسبما اورد ماركو بولو، فإن قوبلاي خان كان يرغب في نشر المسيحية بين ابناء قومه.

16 – ماركو بولو – المرجع السابق، 1 : 15.

(*) بقي كرسي البابا شاغراً في روما ثلاث سنوات، بعد وفاة البابا كليمنص الرابع (ت 1268م)، واختير خلفاً له البابا غريغور العاشر(ت 1276م)، وقد عرفت هذه الفترة صراعاً دينياً بين كنيسة روما وكنيسة بيزنطيا، عقدت خلالها عدة مجامع دينية، كما شهدت صراعاً سياسياً بين اوروبا والقسطنطينية .

– نجيب اسطيفان، صراعات الكنيسة وسقوط القسطنطينية، دمشق، دار التكوين، ط1، 2011،ص 236– 237.

17 – ماركو بولو، المصدر السابق، 1: 15 – 16 .

– فرنسيس وود، ماركو بولو هل وصل إلى الصين، ترجمة فاضل جتكر، دمشق : قدمس للنشر والتوزيع، ط1، 1992، ص 23–22.

18 – فرنسيس وود، المرجع نفسه، ص 23.

19 – ماركو بولو، المرجع السابق، 1 : 17 – 20.

20 – دانييل إليسيف،تاريخ الصين، دمشق : منشورات وزارة الثقافة، 2007، ص109و 125.

21 – رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، ترجمة فؤاد الصياد، بيروت : دار النهضة العربية، ط1، 1983، ص 237.

(*) الخطا : هي قبائل كانت تقيم إلى الجنوب من منشوريا، استطاعت فرض الجزية على أسرة سونج الصينية، وتوسع نفوذها حتى سيطرت على إقليم الصين الشمالي.إلى ان سقطت عام 1125م.

– فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، بيروت : دار النهضة العربية د.ت، ص 24.

22 – رشيد الدين الهمذاني، المصدر السابق، ص 243.

(*) قراقورم : عاصمة جنكيز خان، تقع إلى الشمال من الصين، عباس العزاوي، تاريخ المغول، أبو ظبي : المجمع الثقافي، 2000، ص 19.

23 – ستيفن رنيسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت : دار الثقافة، 1997، 3: 530– 531.

24 – ستيفن رنسيمان، المصدر نفسه، 3 : 531.

– رشيد الدين فضل الله الهمذاني – جامع التواريخ، المصدر السابق، ص 258.

25 – دانييل إليسيف، تاريخ الصين، ترجمة يوسف الشام، دمشق، وزارة الثقافة، 2007، ص 110– 111.

26 – المرجع نفسه، ص 115.

27 – فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، بيروت : دار النهضة العربية، د. ت، ص 217.

28 – المرجع نفسه، ص 218.

29 – دانييل إليسيف، تاريخ الصين، المرجع السابق، ص 116.

30 – ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، المرجع السابق، 2: 12.

31 – المرجع نفسه، 1 : 41.

32 – المرجع نفسه .

33 – المرجع نفسه، 1 : 41.

34 – برتولو شبولر، العالم الاسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، دمشق : دار حسان للطباعة والنشر، ط1 1982، ص 69.

35 – حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، القاهرة : دار الفكر العربي د.ت، ص 303.

36 – Eileen power : Medieval People , London , 1939, P. 67

37 – ماركو بولو، المرجع السابق، 2: 18.

38 – فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، المرجع السابق، ص 153.

39 – المرجع نفسه،

(*) قانون الياسا : هو مجموعة القوانين والأنظمة والقواعد التي وضعها جنكيز خان – الجويني، تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، 1: 61.

40 – عطا ملك الجويني، تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، ترجمة محمد التونجي، دمشق دار الملاح، ط1، 1985، 1 : 63.

41 – ستيفن رنسيمان – تاريخ الحروب الصليبية، المرجع السابق 5 : 514

(*) البوذية : انتقلت البوذية من الهند إلى الصين في عهد الامبراطور مينغ تي من سلالة الهان الذي حكم بين الأعوام 58 و75م.

– أديب صعب – الأديان الحية، بيروت – دار النهار، ط3، 2005، ص 63.

(*) الشامانية : هي ديانة وثنية تتمثل في عبادة كل شيء يسمو على مدارك العقول، وتظهر أيضاً في عبادة كل شيء يرهبونه ويخافونه .

– الصياد، المغول في التاريخ، المرجع السابق، ص 335.

(*) التانجوت: هي قبائل مغولية، تقع منطقتهم في شمال الصين إلى الجنوب من العاصمة المغولية قراقورم – الصياد المغول في التاريخ، المرجع نفسه، ص 402.

42 – ماركو بولو، المرجع السابق، 2: 24.

43 – المرجع نفسه .

44 – المرجع نفسه، 2: 25.

45 – المرجع نفسه، 2: 34.

46 – ماركو بولو– المرجع السابق، 2 : 34 – 35.

47 – المرجع نفسه، 2: 36.

48 – فاسيلي بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين هاشم، الكويت، ط1، 1981، ص 113.

49 – عباس العزواي، العراق بين احتلالين، بغداد، مطبعة بغداد 1935، 1 : 417 – 418.

50 – ماركو بولو – المرجع السابق، 1 : 451.

51 – فؤاد الصياد، مؤرخ المغول الكبير، القاهرة : دار الكتاب العربي 1967، ص61

52 – ماركو بولو، المرجع السابق، 2 : 42

53 – المرجع نفسه، 2: 43

54 – المرجع نفسه، 2: 47.

55 – المرجع نفسه، 2: 49.

56 – المرجع نفسه، 2 : 51.

57 – ماركو بولو – المرجع السابق، 2: 52.
58 – ماركو بولو، المرجع نفسه، 2 : 53.
59 – المرجع نفسه,
60 – المرجع نفسه، 2: 56.
61 – المرجع نفسه، 2 :62.
62 – ثروت عكاشة، إعصار من الشرق، القاهرة : دار الشروق، ط5، 1992، ص 100.
63 – ماركو بولو، المرجع السابق، 2: 64.
64 – ماركو بولو، المرجع نفسه، 2 : 65.
65 – المرجع نفسه، 2: 68.
66 – ماركو بولو – المرجع السابق، 2 : 69.
67 – ماركو بولو، المرجع نفسه، 2: 77.
68 – المرجع نفسه، 2: 82
69 – فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، المرجع السابق، ص 335.
(*) الديانة الطاوية: مؤسسها لاوتسو (ولد 604 ق.م) وهو فيلسوف صيني، وهذه الديانة تدعو إلى السكون وعدم التدخل في شؤون الناس– أديب صعب، الأديان الحية، المرجع السابق، 2005، ص 71.
70 – دانييل إليسيف، تاريخ الصين، مرجع سابق، ص 109.
71 – ماركو بولو، المرجع السابق، 2: 84.
(*) أرغون خان: حفيد هولاكو شقيق قوبلاي، وهو إيلخان بلاد فارس – برتولد شبولر، مرجع سابق، ص 172.
72 – ماركو بولو، المرجع السابق، 2: 84.
73 – برتولد شبولر، العالم الاسلامي في العصر المغولي، المرجع السابق، ص 69.
74 – فرنس وود، ماركو بولو هل وصل إلى الصين، ترجمة فاضل جتكر، دمشق : قدمس للنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص 54.
– ماركو بولو، المرجع السابق، 1: 43.
75 – ماركو بولو، المرجع نفسه، 1: 18.
76 – ماركو بولو – المرجع السابق، 1 : 18– 19.
77 – فرنس وود، المرجع السابق، ص 183.
78 – فرنس وود، ماركو بولو هل وصل إلى الصين، المرجع نفسه، ص 189.
79 – المرجع نفسه، ص 63.
80 – فرنس وود – المرجع السابق، ص 64– 65.
81 – فرنس وود، المرجع نفسه، ص 67.
82 – ول ديورانت، قصة الحضارة، المرجع السابق، 4: 218.
83 – فرنس وود، المرجع نفسه، ص 16.

Le psychologue dans le cadre hospitalier (rôle du psychologue de liaison)

Eliane Haddad
Abi Rached

Etude menée dans un contexte médical institutionnel, explorant la synergie des soins entre le patient, le médecin, le corps infirmier, la famille et la hiérarchie pyramidale. (Eliane jean Haddad)

Résumé :
L'intervention du psychologue de liaison en milieu hospitalier occupe une place essentielle au croisement du soin somatique, du fonctionnement institutionnel et des dynamiques relationnelles. Cette étude analyse les manifestations psychiques observées chez les patients hospitalisés – anxiété, déni, agressivité, troubles cognitifs, régression, altération du schéma corporel – ainsi que l'impact des contextes familial et institutionnel sur ces réactions. À travers une approche clinique, contextuelle et psychosociale, le travail met en lumière la manière dont la maladie, la douleur et l'hospitalisation redéfinissent l'expérience corporelle et psychique du patient. Le rôle du psychologue de liaison est envisagé comme un dispositif d'accompagnement transversal: soutien psychologique, médiation familiale, régulation des tensions entre équipes, analyse institutionnelle et restauration du lien au corps. L'étude souligne également l'importance de la cohésion du cadre de soin, de la coordination interdisciplinaire et de l'intégration des outils psychothérapeutiques pour répondre aux besoins complexes des patients hospitalisés. Les résultats mettent en évidence l'impact structurant de la présence du psychologue sur la qualité du soin global, la prévention des crises relationnelles et l'humanisation du parcours hospitalier.

Mots clés: système, psychopathologie hospitalière, psychologie de liaison, l'approche contextuelle.

الملخّص

يتبوأ تدخل الأخصائي النفسي الارتباطي في البيئة الاستشفائية موقعًا أساسيًا عند تقاطع الرعاية الجسدية، والوظائف المؤسسية، والديناميات العلائقية. تحلّل هذه الدراسة المظاهر النفسية التي يُظهرها المرضى المنوَّمون في المستشفى — مثل القلق، والإنكار، والعدوانية، والاضطرابات المعرفية، والانحدار، واضطراب صورة الجسد — إضافةً إلى أثر السياقَين الأسري والمؤسسي على هذه التفاعلات. ومن خلال مقاربة سريرية وسياقية ونفس—اجتماعية، يُسلّط البحث الضوء على الكيفية التي تعيد بها المرضُ، والألم، والإقامة في المستشفى تشكيلَ التجربة الجسدية والنفسية للمريض. ويُنظر إلى دور الأخصائي النفسي الارتباطي بوصفه جهازًا مكمِّلًا عابرًا للحدود: دعمًا نفسيًا، ووساطةً عائلية، وتنظيمًا للتوترات بين الفرق، وتحليلًا مؤسسيًا، وإعادة وصل المريض بجسده. كما تؤكد الدراسة أهمية انسجام إطار الرعاية، والتنسيق المتعدد الاختصاصات، ودمج الأدوات العلاجية النفسية للاستجابة للاحتياجات المعقّدة للمرضى المنوّمين. وتُبرز النتائج الأثر البنيوي لوجود الأخصائي النفسي في تحسين جودة الرعاية الشاملة، والوقاية من الأزمات العلائقية، وإنسنة المسار الاستشفائي.

الكلمات المفتاحيّة: النظام، علم النفس المرضي الاستشفائي، علم النفس الارتباطي، المقاربة السياقية

1- Introduction :

La psychothérapie institutionnelle est d'actualité plus que jamais. Le rôle du psychologue à l'hôpital est assez particulier, par le fait de démontrer en quoi le simple pouvoir de la parole pourrait favoriser le traitement médical. L'intervention du psychologue à l'hôpital diffère de celle clinique, dans sa forme, son contenu, et sa conceptualisation. Le travail psychologique à l'hôpital conçoit l'entrée au royaume des médecins et des infirmiers voire les soignants. Dans cette perspective, la constellation transférentielle n'est pas qu'un outil thérapeutique, mais aussi une forme de démocratie clinique, où chaque voix compte (Delion, P. 2022). Le savoir sur lequel le psychologue s'appuie pour penser sa pratique clinique, est rationnellement fondée à partir

de certaines connaissances : psychiatrique, médicale, psychopathologique, psychosomatique et interactionnelle… sa finalité première est d'amener le sujet à pouvoir dire ce qui cause sa souffrance physique et psychologique. Pourtant la dimension du corps et de ses manifestations - corps souffrant-corps malade- légitime la présence de psychologues de liaison assurant les liens, la coordination entre les patients et les soignants dans un cadre médical collectif au cœur d'un dispositif pluridisciplinaire, souple loin de la rigidité défensive qui aggrave la pathologie selon Jean Oury, se référant aux travaux de Francois Tosquelles et du mouvement de « désaliénation » (Robic, 2024). Oury critiquait l'aliénation traditionnelle des patients psychiatriques à l'époque, par contre il considérait le collectif comme outil thérapeutique et considérait la clinique de la relation dans le quotidien partagé. Les outils cliniques clés inspirés par Oury dans un milieu hospitalier comportent les réunions quotidiennes, les échanges interdisciplinaires ainsi que l'analyse du contre-transfert des soignants et l'importance de l'histoire du lien.
Selon Pierre Delion (2022) « le patient est au centre d'une constellation » : tous les intervenants (médecins, infirmiers, psychologues mais aussi familles et parfois pairs) sont inclus.

Les questions qui se posent dans ce travail de liaison seraient :

- Quel est l'enjeu de la présence du psychologue à l'hôpital ?
- Que peut-on attendre de ces professionnels ?
- Sur quoi l'acte clinique se fonde-t-il ?

Cela dans une considération de la fonction des éléments qui constituent un système, l'amélioration des interactions qui s'en découlent, qui décident du contexte et les fonctions d'un cadre au sein d'un hôpital général.

2- Définition des concepts-clés :

système, psychopathologie hospitalière, psychologie de liaison, l'approche contextuelle.

La définition la plus répandue d'un système étant « Un ensemble d'éléments en interaction dynamique, l'état de chacun de ces éléments étant déterminé par l'état de chacun des autres éléments » (Elkaim,2001). La théorie générale du système repose sur une vue d'ensemble des interactions dans leur totalité, des interrelations circulaires faisant que les éléments dépendent l'un de l'autre par le fait qu'ils soient en relation l'un avec l'autre. L'apparition du symptôme dans un système surgit de ses interactions et leur adaptation au contexte d'où

l'homéostasie, qui est un processus de régulation d'un équilibre du milieu.
Les structures psychopathologiques désignent les modes d'organisation fondamentaux de la personnalité, issus de l'histoire infantile du sujet et de la manière dont il a résolu les conflits entre les pulsions, ses défenses et la réalité extérieure (Bergeret, 1974). Un symptôme en psychopathologie se définit par « la manifestation d'un trouble et sa lecture par le clinicien qui l'observe dans le discours de son savoir » (Fédida, 1992). L'analyse du symptôme suivant la pensée systémique de Freud et son travail de constructions dans l'analyse, s'est manifesté dans l'étude de ses cas historiquement, l'observation des crises de traumas remémorisés dans le temps, le lieu, les émotions qui rejaillissent. Le but étant d'atteindre le point focal ou point d'appui de la douleur psychique dans une gestion du processus thérapeutique (Freud, 1995).
La psychopathologie hospitalière désigne l'ensemble des troubles psychiques, réactions émotionnelles et comportements perturbés qui apparaissent dans le contexte de l'hospitalisation, qu'ils soient préexistants, déclenchés ou aggravés par celle-ci. Elle constitue un domaine spécifique de la psychologie de liaison, car l'hôpital est un espace traumatique, générateur d'angoisses primitives, de régressions et d'agirs. L'environnement hospitalier fonctionne comme un contexte hautement stressant, considérant l'atteinte du corps, la dépendance et la perte d'autonomie, l'angoisse vitale en plus de la contrainte institutionnelle et ses normes.
L'approche contextuelle étant une méthode d'intervention dans les liens relationnels, tente d'en faire un outil dans le travail avec les patients hospitalisés, les médecins et le corps infirmier ainsi que dans la médiation des soignants et la hiérarchie hospitalière. L'éthique relationnelle conçue par Ivan Boszomenyi-Nagy peut être définie comme « la prise en compte de la réalité primordiale de l'equité dans une relation, comme la responsabilité d'une personne vis-à-vis d'une autre, c'est le fait de prendre l'autre en compte » (Michard, 2007).
La psychologie de liaison va de pair avec la psychologie institutionnelle et médicale dans sa forme multi-référentielle qui exige la notion de coordination et de coopération, puisqu'entre médecine et psychologie la frontière peut à priori paraitre nécessaire, faisant que médecin et psychologue travaillent naturellement en équipe dans un système hiérarchique reliant la médecine aux sciences humaines.

3- L'objectif de la psychologie de liaison dans un milieu hospitalier considéré comme une institution, se situe à partir des interventions intra et interpersonnelles permettant de créer une aire de vie avec un tissu interrelationnel, impliquant une vie collective dans un fonctionnement adapté, afin que les patients reçoivent un soin de meilleure qualité (Balint,1988). La découverte du monde hospitalier et de ses composants, fait acquérir des connaissances pratiques d'un fonctionnement évolutif thérapeutique répondant à la demande clinique du cadre hospitalier et ses différentes voies. :

• La psychiatrie (service de psychiatrie)- consolidation psychopathologique et psycho traumatique.

• L'hospitalisation médicale et chirurgicale (service d'oncologie, d'insuffisance rénale et d'hémodialyse, de chirurgie) par rapport à la médecine psychosomatique - considération de la somatisation, l'acceptation du changement des conditions de la vie.

• Accompagnement de fin de vie dans les soins palliatifs - support culturel, spirituel au patient et sa famille.

• Cellule d'urgence dans des cas de catastrophes naturelles, guerre, explosion…, afin de surmonter les difficultés du traumatisme.

• Le monde de la maternité - Support psychologique approprié à la maternité des mères affectées biologiquement (dépression postpartum), psychologiquement (problèmes émotionnels non résolus), conflits de couple, traumatisme de décès de l'enfant ou accident de la naissance.

• Le service de cardiologie - espace hautement médicalisé où le cœur, organe vital, devient une vraie menace. Le milieu cardiologique est marqué par des gestes techniques invasifs causant un traumatisme corporel et psychique.

• Stratégies de travail institutionnel, social et relationnel afin d'identifier le rapport de pouvoir implicite et sous-jacent à l'ordre des choses - Hiérarchie institutionnelle, positions et rôles, interaction et synchronisation communicationnelle.

Le parcours professionnel démarre avec le travail thérapeutique personnel du psychologue lui-même (compréhension de soi, adaptation à la situation thérapeutique, suivre l'éthique psychothérapique, consolidation psychopathologique…), afin de trouver son propre style et de s'intégrer dans un nouveau rôle, de travailler ses résonnances, d'analyser les dynamiques transférentielles et de manier le contre-transfert. Le rôle du psychologue de liaison serait de contenir les angoisses, de prévenir le passage à l'acte, restaurer la cohésion du corps, en plus du travail institutionnel et le soutien procuré aux équipes soignantes.

4- La vision du psychologue hospitalier envisage le changement, la stabilité, la normalité, l'acceptation, l'adaptation, l'intégration et l'engagement du patient dans le processus thérapeutique. La médecine psychosomatique constitue un champ interdisciplinaire, fortement influencé par la psychanalyse mais qui intègre aussi des théories venant d'autres approches comme l'approche systémique, transgénérationnelle, contextuelle, cognitive, la thérapie centrée sur la personne, la thérapie d'acceptation, d'autocompassion et de la pleine conscience, visant le changement.

5- La mission du psychologue hospitalier conçoit la connaissance de l'individu dans les différentes dimensions psychologiques par l'écoute de la souffrance physique, des échos de la souffrance psychique et relationnelle voire la fonction inadaptée de l'individu dans son environnement.
- Organisation institutionnelle et dynamique de fonctionnement opérationnel.
- Relation entre patient, médecin et corps infirmier.
- Interaction éthique inter-hospitalière médecin / corps infirmier / direction.
- Support psychologique du patient hospitalisé et le traitement des maux par les mots.
- Support familial accordé à la famille du patient.
- Soutien psychologique d'urgence dans des états de crise et de choc

6- L'intervention du psychologue dans le système institutionnel :
L'intervention psychologique à l'hôpital est brève, contenante, ajustée au contexte institutionnel, elle se déroule d'une manière systématique :
a- Accueil et validation des émotions, dans la reformulation, la reconnaissance du choc et la normalisation des relations.
b- Travail narratif court afin de donner sens à l'évènement.
c- Soutien du narcissisme déjà atteint par la douleur, rappelant les ressources du patient et valorisant ses efforts.
d- Travail autour de l'image du corps considérant les techniques d'ancrage, de respiration, de pleine conscience.
e- L'approche contextuelle adoptée dans le monde hospitalier afin d'explorer les loyautés familiales, les dettes invisibles et les attentes transgénérationnelles, surtout comprendre l'impact de la maladie sur la dynamique relationnelle.
f- Le travail institutionnel nécessite la coordination entre les différentes dimensions.
g- L'intervention auprès de la famille afin d'assurer le soutien à l'annonce de la maladie, la déculpabilisation et l'ajustement.

L'institution étant un ensemble de règles, de valeurs et de représentations qui organisent la vie collective et donne un sens aux pratiques professionnelles, constitue selon René Kaës (1976), aussi un appareil psychique groupal : elle contient et met en scène des processus inconscients comme l'idéalisation, le clivage, l'identification, les fantasmes de toute-puissance ou de persécution… cela dans un cadre éthique et clinique de souplesse et de pensée critique se basant sur la confidentialité, la neutralité bienveillante, le respect du sujet dans sa singularité, en réponse aux fonctions principales du psychologue dans le système institutionnel :

• La fonction clinique d'écoute et d'accompagnement de la souffrance psychique des patients, familles et parfois soignants.

• La fonction de médiation entre le patient et l'équipe médicale, le singulier et le collectif, la douleur psychique et physique. Le psychologue occupe une position de tiers symbolisant, permettant de penser ce qui se joue dans les relations, et d'éviter les passages à l'acte institutionnels comme le rejet, le clivage, la violence symbolique…

• La fonction d'analyse institutionnelle d'observer le fonctionnement global des contraintes administratives, hiérarchique ou culturelles, d'interpréter les mouvements transférentiels collectifs et les non-dits institutionnels qui influencent les soins.

L'intervention du psychologue dans le système institutionnel consiste à maintenir un espace de pensée dans un environnement traversé par des contraintes, des émotions et des enjeux inconscients. Il agit à la fois comme clinicien, médiateur, tiers et analyste de l'institution, garantissant que le sujet (patient ou soignant) reste au centre du dispositif. Les patients expriment souvent une peur de mourir, une angoisse de morcellement, des réactions d'impuissance, une rupture de l'image du corps, un sentiment de perte du rôle social et familial et une vulnérabilité narcissique.

Ces facteurs déclencheurs spécifiques à l'hospitalisation dépendent de l'annonce diagnostique, de l'environnement hospitalier loin de l'espace vital et du vécu subjectif de chaque patient.

6.1. Les fonctions du cadre thérapeutique à l'hôpital :

Le cadre psychothérapeutique au sein de l'hôpital est moins rigide que celui en clinique, gardant son organisation contenante et structurée à la fois, sa fonction symbolique et subjective dans une coordination synergique.

• La fonction de contenance à l'hôpital permet de contenir la souffrance et la douleur psychique provenant de la maladie, de la dépendance et de la proximité de la mort qui peuvent provoquer des angoisses de morcellement, des sentiments d'impuissance causant des projections massives sur les soignants.
• La fonction de symbolisation dans un environnement où le corps est souvent médicalisé, le psychologue maintient un espace de parole permettant d'exprimer la douleur, le sens de la maladie et du traumatisme dans l'histoire du sujet. C'est une fonction essentielle pour éviter la déshumanisation du patient.
• La fonction de subjectivation rappelant la singularité du sujet derrière le patient, sa vraie identité, son intimité son espace psychique personnel dans un contexte ou un nombre de spécialistes qui accèdent à son corps et à ses données.
• La fonction de limite dans le milieu hospitalier protège à la fois le patient et le psychologue. Le cadre fixe des limites symboliques de confidentialité, de respect du temps d'entretien et de la personne sans aucune intrusion.
• La fonction de médiation et de liaison entre les différentes relations (patient-psychologue-équipe soignante et la famille afin de traduire la demande du patient aux équipes sans trahir la confidentialité. Cette interaction aide les équipes à comprendre les réactions d'un patient et ne pas les considérer personnellement, évitant les conflits transférentiels.
• La fonction d'étayage narcissique après une atteinte des blessures affectives due au sentiment d'impuissance, d'injustice, de trahison que la maladie effectue par la perte du contrôle, le corps abimé, la dépendance aux soins et la fragilité de l'image de soi. Le cadre offre un lieu de restauration de l'estime de soi et de protection de soi contre la honte et la dévalorisation.
• La fonction de coordination institutionnelle voire l'analyse de l'organigramme permettant de mettre en ordre les relations et de garantir la cohérence du soin dans un système complexe soumis à des enjeux multiples. Le psychologue facilite la circulation des informations, évitant les ruptures ou contradictions dans le soin. C'est une fonction invisible mais fondamentale dans le monde hospitalier.

6.2. Les grands domaines de la psychologie à l'hôpital :
La variété des formes de la souffrance humaine rencontrées à l'hôpital varie entre le sentiment d'impuissance et le manque de contrôle face à la maladie. Le rôle du psychologue permet au malade de créer des liens entre

les évènements de la vie afin de faciliter l'adaptation psychologique allant de la menace qui provient de la maladie au seuil de tolérance de chaque sujet, jusqu'à l'adaptation et l'acceptation du changement dans le monde vital. Le psychologue intervient dans un cadre hospitalier, de la naissance à la mort. Il exerce au sein des services de psychiatrie, de maternité, de pédiatrie, de neurologie, des urgences, ou encore dans les unités des soins palliatifs.

Son travail auprès des patients et leurs familles, également auprès des équipes en tant que soutien pour l'accompagnement des soignants, le dispose devant le concept de pluridisciplinarité et au cœur de la profession, voire son intervention et celles des autres professionnels de la santé.

Prenons le centre de psychiatrie, là où la relation se limite au psychiatre et le corps infirmier en charge. Souvent, l'intervention s'effectue en entretiens individuels après que le médecin ait déclaré la cause de l'admission, les symptômes révélés par le patient, le diagnostic, afin d'indiquer le traitement iatrique et psychothérapeutique. L'accord entre psychiatre et psychothérapeute forme une certaine alliance thérapeutique, voire une coopération de garantie pour l'intégrité psychique de la personne malade et le fait d'optimiser la compétence médicale.

L'unité de cancérologie, de médecine générale et des soins intensifs où l'accompagnement psychologique vise la résilience, dans un cadre individuel et familial procurant au malade ainsi qu'à sa famille d'accepter la nouvelle réalité qui a dû bousculer leur existence. La protection du soi fragilisé se fait à partir de différentes ressources personnelles qui pourraient aider à confronter la souffrance et protéger l'affaiblissement du corps, l'aidant à mieux supporter les traitements agressifs. Du traitement à long terme comme les chimiothérapies et la dialyse, le rôle du psychologue s'étend dans les soins palliatifs faisant partie d'une équipe pluridisciplinaire autour de trois axes : le patient, sa famille et les soignants. La psychologie vise dans ce contexte difficile par sa sévérité à réintroduire les contingences. Avec le patient le psychologue veille à autoriser un cheminement psychique pour appréhender la fin de vie avec plus de sérénité, favorisant l'expression de la souffrance du patient et de sa famille afin de traverser l'épreuve de la maladie. La vie de chacun varie en fonction de sa personnalité, son histoire de vie et des évènements qui l'ont jalonné. Quant aux soignants, le psychologue se met à l'écoute et favorise la communication au sein de l'équipe tout en les aidant de travailler sur les clivages et les angoisses.

L'unité de neurologie et de rééducation fonctionnelle physique et mentale

a pour objet l'étude des perturbations cognitives, comportementales, émotionnelles et physiques. Ces perturbations consécutives à une atteinte cérébrale ou à un traumatisme crânien, sont prises en charge par le psychologue après le traitement médical, par une évaluation à partir de tests standardisés afin de comprendre la nature et le niveau de l'atteinte suivie de la phase de rééducation basée sur les activités antérieures, les centres d'intérêt et le projet de vie de chaque sujet. Se met alors en place un travail de restauration et ou de compensation des mécanismes altérés. L'objectif étant d'améliorer la vie quotidienne sur le plan familial, social et professionnel. L'approche psychologique du handicap moteur, consiste en une rééducation sociale avec la restitution de la confiance en soi, la restauration des rythmes de vie et la recherche d'une meilleure adaptation au milieu de vie.

L'unité de maternité et de néonatologie, supposée être un environnement positif pour les mères qui accouchent dans les conditions adéquates d'une préparation à l'accouchement dans une stabilité émotionnelle. Cela pourrait parfois se transformer en un milieu de stress nécessitant un accompagnement psychologique adressé à la mère en premier, au couple parental et aux familles réciproques en cas de dépression post-partum chez la mère, de complications ou de mort de l'enfant. Le rôle du psychologue consiste en une intervention en cas d'échec de la grossesse ou d'un accident à l'accouchement. En ce qui est de l'unité de néonatologie, la coopération réside dans la relation entre le pédiatre et différentes spécialités médicales s'occupant de l'état de l'enfant, le psychologue accompagne les parents souffrants de vivre la fragilité de leur bébé. En pédiatrie l'aide psychologique s'effectue auprès de l'enfant et ses parents dans le but de surmonter l'état de souffrance.

L'unité de cardiologie est un lieu ou les patients sont confrontés à des évènements potentiellement traumatiques comme l'infarctus et les problèmes cardiaques graves qui nécessitent une intervention invasive. Le cœur, organe symbolique du vivant, est directement lié à la représentation de la vie, de la mort, de l'amour et de la vitalité. Ainsi, le patient cardiologique présente des réactions psychiques intenses et spécifiques, souvent amplifiées par l'environnement institutionnel. Les manifestations psychopathologiques les plus rencontrées sont l'angoisse aigue face aux symptômes cardiaques , le corps devient une source d'angoisse permanente suscitant une hypervigilance corporelle, la dépression réactionnelle très fréquente après un épisode coronarien suscité par un sentiment de fragilité, la perte du rôle social, la restriction physique et professionnelle, et un effondrement narcissique perçu comme une trahison du cœur et d'une crise identitaire suscitée par une considération inferieure.

6.3. Les problèmes psychologiques rencontrés chez les patients hospitalisés touchant au contexte familial :

L'hospitalisation constitue toujours une rupture brutale du chemin de la vie. Elle confronte le patient à une perte de contrôle, à la dépendance, à l'incertitude médicale et à la proximité du corps souffrant. Cette situation active un ensemble de réactions psychiques qui dépendent de la personnalité, du contexte de la maladie et de l'institution. Les réactions psychiques liées à l'hospitalisation :

a- L'angoisse de morcellement (rapport au corps fragmenté), désigne une régression thérapeutique ou pathologique avec l'atteinte de l'intégrité corporelle, une impression d'étrangeté du corps après un traitement invasif suscitant la honte, l'anxiété identitaire rejetant le corps fragmenté.

Les problèmes existentiels sont fréquents face à ce corps morcelé comme l'angoisse de mort, la culpabilité et la crise spirituelle.

Ces dimensions apparaissent particulièrement en oncologie, aux soins intensifs et en cardiologie. L'intervention du psychologue de liaison consiste à évaluer, apaiser, mettre sens, contenir et accompagner le patient, les familles et les équipes soignantes. Dans l'approche contextuelle, le corps qui se « défait » est souvent celui qui tente de révéler un réseau relationnel surchargé injuste ou trop exigeant.

b- Les troubles anxieux réactionnels, liés à la peur de la douleur, de l'intervention, du diagnostic et à l'inconnu catastrophique accompagné d'une angoisse de mort. Depuis l'annonce d'un diagnostic invasif, le corps réagit par une effraction menaçante qui mobilise des dimensions psychiques profondes comme le rapport au corps, au Moi, aux objets internes, au temps et au sens de la vie. Ces troubles anxieux sont ravivés par des angoisses primitives et prennent la forme d'un persécuteur interne qui envahissent le quotidien du malade. Une angoisse existentielle apparait sous forme de confrontation au réel, de la finitude, mettant le sujet face a une fragilité de la vie et les questionnements sur son sens réel. Le rôle du psychologue de liaison en pratique institutionnelle serait de permettre au patient de symboliser son angoisse et de la mettre en mots.

c- Les dépressions réactionnelles à l'expérience de l'hospitalisation, réduisent les fonctions des malades, leur intérêt à la vie, le courage de subir et les conséquences des traitements.

Ce genre de dépression se manifeste par une tristesse sévère, des troubles alimentaires et du sommeil, des somatisations indiquant le lien entre le corps et la psyché. La baisse de l'estime de soi est très fréquente dans ce genre de dépression car le corps n'arrive plus à rassurer la psyché et vice versa, d'où irritabilité chez certains patients et la projection sur l'équipe soignante.

d- Les confusions et troubles cognitifs sont rencontrés particulièrement chez les personnes âgées ou fragiles, après une maladie envahissante ou un traumatisme physique et psychique. La confusion est souvent vécue comme une perte de soi, un effondrement identitaire et une impossibilité de se fier à ses propres perceptions. Cet état confusionnel aigu est une urgence psychiatrique fréquente en milieu hospitalier suscitant l'agressivité et l'agir impulsif. Cette tension psychique représente une forme d'expression de la souffrance dans un contexte ou la maladie, la dépendance, la douleur, la perte de contrôle et l'environnement hospitalier provoquent un effondrement des capacités de régulations internes. Ces agirs impulsifs confrontent le patient hospitalisé à des frustrations majeures comme la perte de contrôle, un stress aigu, une atteinte narcissique et un dysfonctionnent cognitif temporaire. Les formes cliniques de l'agir impulsifs se manifestent par l'agressivité verbale, parfois physique et gestes brusques et des agirs auto-agressifs contre soi-même. Une contenance des soignants est nécessaire aussi bien que le patient dans ce cas car ils se sentent agresses afin de reconstruire une alliance thérapeutique abimée par l'agir impulsif.

Quand au contexte familial des malades, il est redéfini par ces réactions psychiques qui touchent à la dynamique familial et la place de chacun. L'angoisse face à la maladie et à la mort ressentie chez les proches, atteint chaque membre de la famille relativement à sa relation linéaire avec le sujet malade.

La crainte de le perdre, d'assister à ses souffrances, d'être témoin à sa dégradation psychique. L'angoisse familiale se traduit par une hypervigilance autour du patient, une surveillance excessive ou au contraire par un déni et une défense afin de se protéger et de fuir à la réalité blessante. Des tensions relationnelles varient entre la culpabilité qui nourrit une attitude de surinvestissement dans le parcours pénible du malade, et l'agressivité qui dérive souvent de l'angoisse et se manifeste par des attitudes agressives mal placées du proche, selon sa place par rapport au membre malade. Cela par une opposition au traitement, aux autres membres de la famille et envers l'équipe soignante qui désigne le monde social actuel du malade. Les réaménagements des rôles familiaux sont imposés sur le système familial affectant le contexte relationnel normal (un enfant devient le parent de son parent, un conjoint devient aidant et protecteur, d'autres membres peuvent se sentir exclus ou déchargés). Ces changements créent des rivalités, des jalousies, des sensations d'injustices et un sentiment de surcharge psychique chez le proche qui porte tout surtout lorsque la durée de l'hospitalisation dure et se prolonge, la

famille devient elle-même un « patient secondaire ». Le rôle du psychologue de liaison serait de décoder les stratégies défensives familiales, de réduire les conflits interpersonnels et de soutenir le patient en tenant compte de son environnement familial selon l'approche contextuelle dans le travail sur les schémas du corps. Le schéma corporel du patient est influencé par le discours médical, le regard familial, la dépendance aux soins, la présence de douleurs ou d'appareillages et l'organisation institutionnelle. La manière dont les proches parlent du corps du malade modifie sa relation avec son propre corps. Donc les interventions psychothérapeutiques centrées sur le contexte, serait dans la recontextualisation du corps dans une logique de cohésion, aidant le patient à rehabiter son corps, retrouver une continuité corporelle, relier les sensations à des émotions identifiées et intégrer son corps malade comme un corps vivant et non un corps abimé au sein des son contexte.

7. Conclusion

L'intervention du psychologue de liaison s'inscrit au cœur des enjeux humains et institutionnels du milieu hospitalier. Situé à l'interface du somatique et du psychique, ce champ clinique révèle combien l'hospitalisation constitue un moment de vulnérabilité intense, où se réactivent des angoisses archaïques, des défenses massives et des dynamiques relationnelles complexes. Les manifestations observées – anxiété, déni, agressivité, régression, confusion, troubles du schéma corporel – témoignent de l'impact de la maladie sur l'intégrité psychique du patient, mais également sur ses liens familiaux et sur les équilibres du système de soins. Le travail du psychologue de liaison vise alors à rétablir du sens, à contenir les débordements émotionnels et à favoriser l'adaptation du patient à l'épreuve somatique. Par son rôle d'étayage, d'interprétation et de médiation, il contribue à réduire les risques de décompensations psychiques, à améliorer la qualité de la relation soignant-soigné et à soutenir les équipes confrontées à des enjeux relationnels parfois éprouvants. L'approche contextuelle rappelle par ailleurs que chaque situation clinique se déploie dans un système : celui du patient, de sa famille et de l'institution elle-même.

Cette étude montre que la psychologie de liaison constitue non seulement un espace de soin psychique indispensable, mais aussi une fonction organisationnelle essentielle dans le fonctionnement hospitalier. Elle invite à considérer l'importance d'une collaboration pluridisciplinaire renforcée, d'une meilleure reconnaissance du travail psychique en milieu somatique et d'une réflexion continue sur les dispositifs institutionnels. En articulant

psychopathologie, dynamique institutionnelle et interventions cliniques ciblées, la psychologie de liaison s'affirme comme un levier central pour humaniser le soin et accompagner la complexité des trajectoires de maladie.

REFERENCES:

Anzieu, D. & Kaes, R. (1975). Le groupe et l'inconscient. Dunod, collection psychismes.

Bergeret, J. (1974). La personnalité normale et pathologique. Paris, Dunod.

Delion, P. (2022). La constellation transférentielle. Le carnet psy, érès.

Elkaim, M. (2014). Si tu m'aimes, ne m'aime pas. Essais. Points.

Fédida, P, (1992). Le cas en controverse. Monographies de psychopathologie. PUF.

Freud, S. (1937). Construction dans l'analyse. Traduction française dans : freud, S. (1995). Paris, PUF.

Kaës, R. (1987). L'institution et les institutions. Etudes psychanalytiques. dunod

Michard, P. (2017). La thérapie contextuelle de Boszormenyi-Nagy. beock

Tosquelles, F. / Oury, J. Approche institutionnelle dans la psychothérapie institutionnelle.

Nursing's role in identifying and managing fibromyalgia symptoms

Zeina Zebian
Iman Azzam
Salman Azzam
Katya Abou Said
Lama Talayeh

Abstract:

Fibromyalgia, a complex and chronic condition characterized by widespread pain, fatigue, and cognitive disturbances, presents significant challenges in diagnosis and management. This study investigates the role of nursing in identifying and managing fibromyalgia symptoms through a qualitative case study supported by structured questionnaires and patient interviews. The purpose was to highlight how nursing interventions contribute to improved symptom control, patient empowerment, and overall quality of life. The research was conducted with a single patient diagnosed with fibromyalgia, utilizing semi-structured interviews, clinical observations, and daily symptom journals to gather comprehensive data. A questionnaire-based assessment was also employed to evaluate the impact of nursing care, focusing on pain management, emotional support, and patient education. Thematic analysis was applied to identify recurring patterns and insights into the patient's experience and the nurse's role in facilitating coping mechanisms. Findings revealed that nurses play a critical role in early recognition, ongoing symptom management, and patient education, emphasizing a holistic and patient-centered approach. Personalized interventions such as relaxation techniques, lifestyle adjustments, and health education significantly reduced

symptom burden and enhanced daily functioning. The study underscores the importance of nurse-led assessments, interdisciplinary collaboration, and evidence-based care strategies to address the multifaceted challenges of fibromyalgia.

Keywords: fibromyalgia, nursing role, chronic pain management, patient-centered care, symptom assessment, holistic nursing, quality of life.

Study context:

Fibromyalgia is a chronic multisystem disorder characterized by widespread musculoskeletal pain, fatigue, sleep disturbances, and cognitive dysfunction (Clauw, 2014; American College of Rheumatology). The term originates from the Latin "fibro" (fibrous tissue) and Greek "myo" (muscle) and "algia" (pain), reflecting the hallmark feature of persistent pain in muscles and connective tissues (Wolfe et al., 1995). Unlike inflammatory conditions, fibromyalgia is associated with abnormal central pain processing, often referred to as central sensitization, where the central nervous system amplifies pain signals, leading to heightened sensitivity even to non-painful stimuli (Clauw, 2014). This mechanism explains the diversity of symptoms beyond pain, including "fibro fog," sleep disorders, fatigue, and emotional distress (Häuser et al., 2015).

a- Epidemiology

Globally, fibromyalgia affects between 2% and 8% of the population, with 80–90% of cases occurring in women, particularly between the ages of 30 and 60 (Bennett, 2005; Clauw, 2014). The disorder remains underdiagnosed, partly due to overlapping symptoms with other chronic pain syndromes and the absence of clear diagnostic markers. Misinterpretation of symptoms as psychosomatic further delays diagnosis and management (Häuser et al., 2015).

b- Clinical Manifestations

The primary symptom of fibromyalgia is chronic widespread pain lasting at least three months, often accompanied by tenderness at specific anatomical points (Wolfe et al., 2010). Patients also report severe fatigue, sleep disturbances, cognitive impairment, and emotional distress. Less common but significant manifestations include irritable bowel syndrome (IBS), temporomandibular joint disorder (TMJD), bladder spasms, cold extremities, and skin sensitivity (Arnold et al., 2016; Hanno et al., 2015). These symptoms collectively contribute to substantial physical and psychological disability, impairing social and occupational functioning.

In addition to the classic triad of widespread pain, fatigue, and sleep disturbance, fibromyalgia is also associated with a variety of less recognized symptoms that can complicate diagnosis and management. Many patients experience irritable bowel syndrome (IBS) characterized by abdominal pain, bloating, constipation, or diarrhea, which often fluctuates with stress levels. Others report temporomandibular joint disorder (TMJD) leading to jaw stiffness, facial pain, and headaches. Interstitial cystitis, presenting as bladder spasms or frequent urination, may also coexist with fibromyalgia, contributing to sleep disruption and discomfort. Some patients develop Raynaud's phenomenon, where fingers and toes become cold, numb, or discolored in response to low temperatures or stress. Additional manifestations include skin hypersensitivity, tingling or burning sensations, cognitive difficulties ("fibro fog"), dizziness, and visual disturbances. These symptoms, although less prominent, significantly affect patients' quality of life and often lead to misdiagnosis or fragmented care. Recognizing these atypical signs is therefore essential for nurses and healthcare providers, as early identification and holistic management can prevent unnecessary interventions and promote a more comprehensive approach to care. (Whitehead et al., 2002; Hanno et al., 2015; Clauw, 2014; Häuser et al., 2015).

c- Risk Factors

The etiology of fibromyalgia is multifactorial, involving genetic, biological, psychological, and environmental components. A family history of fibromyalgia or other chronic pain disorders increases susceptibility (Smith et al., 2012). Women are disproportionately affected, likely due to hormonal influences on pain perception (Yunus, 2012). Other risk factors include physical trauma, surgical history, infections, sleep disorders, and psychological stress (Buskila et al., 1997; Häuser et al., 2010; McBeth & Jones, 2007). Adverse childhood experiences and chronic emotional stress may sensitize the central nervous system, contributing to the development of widespread pain syndromes (McBeth et al., 2007; Wingenfeld et al., 2010).

d- Diagnosis

Diagnosis relies primarily on clinical criteria rather than laboratory tests. The American College of Rheumatology (ACR) criteria include assessment of widespread pain index (WPI) and symptom severity scale (SSS) scores (Wolfe

et al., 2010). While blood tests such as CBC, ESR, and CRP are often used to rule out inflammatory diseases, results typically remain normal in fibromyalgia. Sleep studies and physical examinations may aid in identifying comorbid disorders such as restless leg syndrome or sleep apnea (Moldofsky, 2001).

e- Management and treatment

Management of fibromyalgia requires a multidisciplinary approach combining pharmacological and non-pharmacological interventions. Medications include Pain Relievers: Over-the-counter medications such as acetaminophen and NSAIDs are sometimes used to alleviate mild pain. For more severe cases, tramadol is occasionally prescribed due to its central-acting analgesic properties, though opioids are generally avoided because of their limited effectiveness in fibromyalgia (Clauw, 2014). Antidepressants (amitriptyline, duloxetine) and anticonvulsants (pregabalin, gabapentin), which modulate neurotransmitters involved in pain regulation (Arnold et al., 2016). Non-pharmacological therapies such as exercise programs, cognitive-behavioral therapy (CBT), physical therapy, and stress management have demonstrated strong evidence in improving function and reducing pain (Bernardy et al., 2013; Busch et al., 2011). Complementary therapies, including acupuncture, mindfulness, and tai chi, are increasingly recognized for their role in holistic symptom control (Langhorst et al., 2010).

f- Complications and Impact

Fibromyalgia significantly impairs quality of life due to its chronic nature and the absence of visible symptoms, which often leads to social isolation, depression, and anxiety (Bair et al., 2003; McBeth et al., 2007). Physical deconditioning from reduced activity further perpetuates the pain–fatigue cycle. The complexity of symptoms requires sustained interdisciplinary collaboration, with nurses playing a central role in patient education, emotional support, and long-term management.(ANA, 2023)

Despite the growing body of research on fibromyalgia, there remains a significant gap in understanding how nursing interventions specifically influence the recognition and management of this chronic condition. Most studies focus on the medical or pharmacological aspects of care, while the nurse's role in early detection, patient education, and psychosocial support remains underexplored—particularly within developing healthcare systems

such as Lebanon's. Recognizing this gap, the present study was designed to examine how nursing assessment, education, and continuous care can improve symptom control and quality of life for individuals living with fibromyalgia. Using a qualitative case study approach supported by structured questionnaires, interviews, and direct observation, this research highlights the essential contribution of nurses in delivering holistic, patient-centered care to a population often overlooked in clinical practice

Method:

This study employed a qualitative case study design (4 cases) to explore the role of nurses in the identification and management of fibromyalgia symptoms. The approach was selected to gain an in-depth understanding of the lived experiences of patients with fibromyalgia and the specific nursing interventions that support their physical and emotional well-being. Qualitative research allows for the exploration of perceptions, attitudes, and personal experiences that cannot be fully captured through quantitative methods.

The research was conducted at the Lebanese University – Faculty of Public Health, Section IV (Rashaya Branch), in collaboration with Rashaya Governmental Hospital and Marjayoun Governmental Hospital. These healthcare institutions provided access to clinical data and allowed observation of real patient–nurse interactions within the context of chronic pain management.

The target population consisted of adult patients diagnosed with fibromyalgia. A purposive sampling technique was used to select one patient case that met the inclusion criteria:

1. A confirmed medical diagnosis of fibromyalgia by a rheumatologist;
2. Age between 25 and 60 years;
3. Willingness to participate and provide informed consent;
4. Ongoing treatment or follow-up at one of the collaborating hospitals.

These cases were selected to serve as a representative example of the challenges faced by patients with fibromyalgia in Lebanon and the nursing strategies employed to manage the condition.

Data were collected over a period of four weeks (in July 2024) using multiple qualitative tools to ensure comprehensive coverage and data triangulation. These included:

• Semi-structured interviews: Conducted with patients to explore symptoms,

daily challenges, and experiences with nursing care. Interviews were recorded and later transcribed for thematic analysis.

- Structured questionnaires: Designed to assess the patient's pain levels, fatigue, emotional well-being, and satisfaction with nursing interventions.
- Clinical observation: Nurses' interactions and interventions were observed during routine care to understand their impact on the patient's comfort, adherence, and coping strategies.
- Patient diary/symptom journal: These patients were encouraged to document daily pain levels, fatigue, and mood fluctuations, providing insight into symptom variability and nursing response.

Collected data were analyzed using a thematic analysis approach. All interview transcripts, observation notes, and questionnaire results were carefully reviewed to identify recurring themes and patterns. Data were coded manually, and themes were organized into categories reflecting the nurse's role, such as assessment, education, emotional support, and intervention effectiveness. Triangulation of data sources enhanced the reliability and credibility of findings.

Finally, the ethical approval for this study was obtained from the Lebanese University Faculty of Public Health. Informed consent was obtained from the participant after explaining the purpose, procedures, and voluntary nature of the study. Confidentiality and anonymity were strictly maintained; no identifying information was included in the report. The participant was free to withdraw from the study at any point without consequence.

Result:

Participants in this case study was a four female's patient aged 22, 19, 34 and 45 years, diagnosed with fibromyalgia between two and three years prior to the study. They reported chronic widespread pain, particularly in the neck, shoulders, back, and lower limbs, accompanied by sleep disturbances, fatigue, anxiety, and episodes of low mood. All these patients had consulted multiple specialists before receiving a confirmed diagnosis from a rheumatologist, reflecting the diagnostic challenges commonly associated with fibromyalgia. Their treatment plan included low-dose duloxetine for pain and depression, and pregabalin for neuropathic symptoms.

It's very important to indicate that one of the participant during the interview started showing symptoms of breathing difficulty (dyspnea) due to anxiety. A 2-minutes break and a breathing techniques lesson allowed us to resume the

interview at 10:18 am. 30 minutes later, the patient started having a headache and stiffness in her lower extremes. She wanted to sit up and change position which helped her in reducing pain, analgesics intake also helped to minimize our patient's pain. At 11:55, sunlight floated into the room we're sitting in; we noticed her discomfort and avoidance to look directly at us. She was the one facing sunlight, so we moved to another room. A correct intervention of each symptoms helps in managing fibromyalgia symptoms.

Concerning nursing assessment and observations, the results show that the nursing assessment revealed significant physical, emotional, and social impact of the disease. Pain intensity was rated between 7 and 9 out of 10 on most days, while fatigue and sleep disturbances were consistently reported as "severe." The nurse noted a tendency toward emotional exhaustion, irritability, and difficulty concentrating—symptoms that align with the "fibro fog" described in the literature (Clauw, 2014; Häuser et al., 2015). These patients also expressed feelings of social isolation and a lack of understanding from their family, a finding echoed in studies emphasizing the psychosocial burden of fibromyalgia (Bair et al., 2003; Arnold et al., 2016).

Responses to the structured questionnaire confirmed the intensity of chronic pain and the persistence of fatigue despite pharmacological treatment. The semi-structured interviews provided deeper insight into the patient's coping mechanisms. Participants identified nursing care—particularly empathy, continuous communication, and education—as a key factor improving their ability to manage symptoms. They described the nurse's presence as "a source of reassurance and motivation," highlighting the psychological support component of nursing.

In addition, one of the patient's symptom diary indicated gradual improvement over the four-week observation period. Reported pain scores decreased from an average of 8/10 in the first week to 6/10 by the fourth week, coinciding with increased adherence to relaxation exercises, sleep hygiene practices, and gentle stretching routines introduced by the nurse. This trend supports evidence that non-pharmacological interventions—especially when reinforced by nurses—can complement medical treatment and enhance overall well-being (Bernardy et al., 2013; Busch et al., 2011).

According to the answers of the participants, nursing care focused on three primary domains:

1. Pain Management – The nurse educated the patient on pacing daily activities,

using heat therapy, and performing light stretching exercises. Encouragement of relaxation techniques and breathing exercises helped reduce stress-induced pain flare-ups.

2. Patient Education – Regular counseling sessions addressed misconceptions about fibromyalgia and reinforced adherence to medication and exercise. The nurse emphasized that improvement is gradual and individualized, reducing the patient's frustration and sense of helplessness.

3. Emotional Support – Through continuous communication, active listening, and reassurance, the nurse helped the patient regain self-confidence and adopt positive coping mechanisms.

The combination of these interventions produced measurable improvements in both physical symptoms (pain and fatigue reduction) and psychological well-being (reduced anxiety and improved mood).

Discussion:

The findings of this study confirm the central role of nurses in the management of fibromyalgia, particularly in the Lebanese healthcare context, where resources for chronic pain are limited. Patient's gradual improvement underscores the effectiveness of holistic, patient-centered nursing care, integrating physical, emotional, and educational support.

The results are consistent with international literature emphasizing that successful fibromyalgia management depends on multidisciplinary collaboration and the empowerment of patients through education and self-care strategies (Clauw, 2014; Häuser et al., 2015). The nurse's sustained involvement enhanced treatment adherence and patient motivation, aligning with studies showing that nursing-led interventions significantly improve outcomes in chronic pain conditions (Bernardy et al., 2013).

Importantly, these case studies highlights that therapeutic communication and empathy are not supplementary but essential components of effective nursing care. The patient's emotional recovery and improved outlook demonstrate that compassion-based care can alleviate psychological suffering even when pain persists.

Summary of Key Findings

- Nursing interventions led to observable improvements in pain reduction, mood, and functional ability.
- Consistent patient education increased understanding of the disease and adherence to therapy.

• Emotional support from nurses played a critical role in coping and self-management.
• Non-pharmacological nursing interventions complemented medical treatment and enhanced overall quality of life.

Conclusion and recommendations:

Fibromyalgia is a chronic and multifaceted condition characterized by widespread musculoskeletal pain, fatigue, sleep disturbance, and cognitive difficulties. It affects millions of people worldwide, predominantly women, and often leads to physical and emotional exhaustion. Despite its prevalence, fibromyalgia remains poorly understood and frequently misdiagnosed, resulting in delayed treatment and diminished quality of life for patients.

This study demonstrated that nurses play a vital role in the early identification, management, and long-term support of individuals with fibromyalgia. Through continuous assessment, patient education, and compassionate communication, nurses contribute significantly to symptom reduction and psychological well-being. The findings highlight the importance of adopting a holistic, patient-centered approach where nursing care complements medical treatment and promotes self-management.

It is therefore recommended that healthcare institutions enhance nurse training in chronic pain management, develop standardized screening tools, and foster multidisciplinary collaboration between nurses, physicians, and mental health professionals. Increasing public awareness and conducting further research on fibromyalgia are also essential to improve early diagnosis, reduce stigma, and enhance overall patient outcomes in Lebanon and beyond.

Bibliography

1.American College of Rheumatology. (n.d.). Fibromyalgia. Retrieved from https://www.rheumatology.org/Practice-Quality/Clinical-Supportive-Resources/Fibromyalgia

2.American Nurses Association (ANA). (2023). Chronic Pain Management Guidelines.

3.Arnold, L. M., et al. (2016). "Pharmacologic treatment of fibromyalgia." Annals of the Rheumatic Diseases, 75(3), 495-503.

4.Arnold, L. M., et al. (2016). Fibromyalgia and chronic pain syndromes. Handbook of Clinical Neurology, 138, 559-576.

5.Bennett, R. M. (2005). "Fibromyalgia: An overview." American Journal of Medicine, 118(4), 31-39.

6.Bernardy, K., et al. (2013). Cognitive-behavioral therapies for fibromyalgia. Cochrane Database of Systematic Reviews, (9), CD009796.
7.Busch, A. J., et al. (2011). Exercise for treating fibromyalgia syndrome. Cochrane Database of Systematic Reviews, (10), CD003786.
8.Buskila, D., et al. (1997). Increased rates of fibromyalgia following cervical spine injuries. A Clinical Rheumatology Study, 16(1), 85-91.
9.Clauw, D. J. (2014). "Fibromyalgia: A clinical review." Journal of the American Medical Association, 311(15), 1569-1578.
10.Clauw, D. J. (2014). Fibromyalgia: A clinical review. JAMA, 311(15), 1547-1555.
11.Hanno, P. M., et al. (2015). Painful bladder syndrome/interstitial cystitis and its overlap with other chronic pain syndromes. Nature Reviews Urology, 12(1), 18-29.
12.Häuser, W., et al. (2015). "Fibromyalgia." The Lancet, 377(9763), 1015-1025.
13.Häuser, W., et al. (2015). Fibromyalgia syndrome: Underestimated and misdiagnosed. Deutsches Ärzteblatt International, 112(26), 437-443.
14.Häuser, W., et al. (2015). Fibromyalgia. The Lancet, 385(9974), 2273-2282.Lange, G., et al. (2001). "Cognitive-behavioral therapy for fibromyalgia: A review of the literature." Journal of Clinical Rheumatology, 7(3), 121-128.
15.Häuser, W., et al. (2021). Fibromyalgia Syndrome: Diagnosis and Treatment Guidelines. PAIN Reports.
16. Langhorst, J., et al. (2010). Complementary and alternative therapies for fibromyalgia syndrome. Nature Reviews Rheumatology, 6(6), 338-346.
17.McBeth, J., & Jones, K. (2007). "Epidemiology of chronic musculoskeletal pain." Best Practice & Research Clinical Rheumatology, 21(3), 451-466.
18.McBeth, J., et al. (2007). Stress and widespread pain. BMJ, 334(7601), 794-797.
19.Moldofsky, H. (2001). Sleep and fibrositis syndrome. Sleep Research Society Bulletin, 3(1), 31-33.
20.Smith, S. B., et al. (2012). Genetic variants associated with pain perception and modulation in fibromyalgia. Pain, 153(6), 1016-1025.
21.Whitehead, W. E., et al. (2002). Overlap of fibromyalgia and irritable bowel syndrome. Current Gastroenterology Reports, 4(4), 327-333.
22.Wolfe, F., et al. (1995). "The American College of Rheumatology 1990 criteria for the classification of fibromyalgia." Arthritis & Rheumatism, 38(1), 145-152.
23.Wolfe, F., et al. (1995). The prevalence and characteristics of fibromyalgia in the general population. Arthritis & Rheumatism, 38(1), 19-28.
24.Wolfe, F., et al. (2010). The American College of Rheumatology 2010 criteria for the classification of fibromyalgia. Arthritis Care & Research, 62(5), 600-610.

25.Wolfe, F., et al. (2010). The prevalence and characteristics of fibromyalgia in the general population. Arthritis Care & Research, 62(5), 583-588.
26.Yunus, M. B. (2012). The role of gender in fibromyalgia syndrome. Current Rheumatology Reports, 14(5), 463-469.

L’empreinte de l’image du père de Monica Sabolo dans son autobiographie La vie Clandestine

Mireille Hajjar

Résumé

L'autobiographie se présente comme un récit de mémoire, mais il est essentiel de comprendre que la mémoire ne se limite pas à des images des lieux et des événements passés. Elle englobe également les odeurs, les sensations et les émotions associées aux personnes qui ont partagé notre vie : notre mère, notre père, nos frères et sœurs. Ces éléments sensoriels et affectifs façonnent notre perception de nous-mêmes et notre compréhension du monde qui nous entoure.Il est également crucial de reconnaître que nos parents, au-delà de ceux qui nous ont donné la vie, jouent un rôle fondamental dans notre éducation et notre développement. Ce sont ceux qui prennent soin de nous, qui nous guident et veillent sur notre bien-être, qu'ils soient biologiques ou adoptifs. Ce soutien parental, qu'il soit physique ou émotionnel, façonne non seulement notre identité, mais également notre façon d'interagir avec le monde. Elle nous permet d'explorer notre passé tout en confrontant les vérités parfois inconfortables de notre existence, nous aidant ainsi à construire une compréhension plus riche et nuancée de qui nous sommes. En effet, Monica Sabolo poursuit une recherche paternelle sur les empreintes d’un père mystérieux tout en traçant sa vie dans La vie clandestine.

Dans quelle mesure la découverte des facettes sombres

de notre réalité incite-t-elle à une quête identitaire ? Faut-il se confronter à cette vérité à travers une introspection, ou se conformer aux rôles établis ? Comment dans cette perspective Sabolo retrace-t-elle sa vie et décrit-elle son père ?
Dans le but de répondre à cette problématique, nous étudierons premièrement le pacte autobiographique, puis nous aborderons les traces de sa vie pour achever avec l'image paternelle et sa relation avec elle.

Mots-clés— Autobiographie, famille, Figures -parentales, identité, influence, mémoire, pacte familial, passé, père, présent, quête identitaire, relations familiales, vérité.

I. INTRODUCTION

L'autobiographie se présente comme un récit de mémoire, mais il est essentiel de comprendre que la mémoire ne se limite pas à des images des lieux et des événements passés. Elle englobe également les odeurs, les sensations et les émotions associées aux personnes qui ont partagé notre vie : notre mère, notre père, nos frères et sœurs. Ces éléments sensoriels et affectifs façonnent notre perception de nous-mêmes et notre compréhension du monde qui nous entoure. Il est également crucial de reconnaître que nos parents, au-delà de ceux qui nous ont donné la vie, jouent un rôle fondamental dans notre éducation et notre développement. Ce sont ceux qui prennent soin de nous, qui nous guident et veillent sur notre bien-être, qu'ils soient biologiques ou adoptifs. Ce soutien parental, qu'il soit physique ou émotionnel, façonne non seulement notre identité, mais également notre façon d'interagir avec le monde. Elle nous permet d'explorer notre passé tout en confrontant les vérités parfois inconfortables de notre existence, nous aidant ainsi à construire une compréhension plus riche et nuancée de qui nous sommes.
En effet, Monica Sabolo poursuit une recherche paternelle sur les empreintes d'un père mystérieux tout en traçant sa vie dans La vie clandestine.
Dans quelle mesure la découverte des facettes sombres de notre réalité incite-t-elle à une quête identitaire ? Faut-il se confronter à cette vérité à travers une introspection, ou se conformer aux rôles établis ? Comment dans cette perspective Sabolo retrace-t-elle sa vie et décrit-elle son père?
Dans le but de répondre à cette problématique, nous étudierons premièrement le pacte, puis nous aborderons les traces de sa vie pour achever avec l'image paternelle et sa relation avec elle.

II. UN AVEU D'AUTHENTICITE DANS LE PACTE DE LA VIE CLANDESTINE

La vie clandestine est un roman autobiographique qui reflète la mystérieuse vie de l'écrivaine, puisque la romancière Monica Sabolo s'est inspirée d'un fait divers et a fait de nombreuses recherches sans qu'elle ne sache qu'elle va raconter des mémoires qui lui sont propres.

Or, qui dit autobiographie dit pacte d'authenticité, qui est défini par Lejeune comme l'admission ou l'aveux des auteurs en tant qu'auto biographes repose sur leur propre demande. Ils doivent exprimer leur intention autobiographique, que ce soit dans le titre, la prière d'insérer, la dédicace, le préambule, une note conclusive ou des interviews lors de la publication. Cette déclaration est essentielle ; sans elle, nous ne pouvons pas considérer un texte comme une autobiographie. Il n'est pas nécessaire de chercher à prouver une vérité personnelle dans des œuvres de fiction si l'auteur lui-même ne l'affirme pas (Lejeune, 2010,p.21).En effet cet aveu est admis par Sabolo dans plusieurs emplacements et il s'est annoncé dès le titre et dans l'incipit.

II.1. Une première déclaration dans le titre

Le titre du roman joue un rôle essentiel dans la transmission du message de l'auteur au lecteur. En effet, la pertinence du titre dans la relation entre le lecteur et le texte est incontestable. Souvent, c'est en se basant sur le titre que l'on décide de lire ou non un roman, car certains titres attirent l'attention tandis que d'autres peuvent en dissuader. Le titre choisi par l'auteur, La vie clandestine, est à la fois accrocheur et provocateur, annonçant dès le départ une facette secrète de la vie de l'écrivaine. Le terme « vie » nous oriente vers le parcours autobiographique de Sabolo, tandis que « clandestine » évoque les zones oubliées et secrètes de sa mémoire.

De plus, le titre d'une œuvre remplit plusieurs fonctions clés. D'une part, sa fonction descriptive fait référence au genre autobiographique. La vie clandestine est un titre rhématique qui renvoie à une forme précise du texte, ancrée dans un trait autobiographique général. Il évoque à la fois le récit de vie et la mémoire de l'écrivaine tout en reflétant une partie qu'elle souhaite garder dans l'ombre, comme l'indique le qualificatif « clandestine ».

D'autre part, le titre possède une fonction connotative, tant sur le plan politique que générique. Les connotations du titre révèlent des dimensions secrètes et génériques. La vie souvent symbolisée par l'ankh ou croix ansée, porte une

connotation riche. Selon Jean CHEVALIER, l'ankh est un symbole de vie et d'immortalité, souvent associé à la capacité des dieux et des rois à détenir la vie. Ce symbole prend également une autre signification lorsqu'il est tenu au milieu du front, illustrant l'initiation aux mystères et l'obligation du secret. (Chevalier & Gheerbrant, 2021,p.55)

Ainsi, la notion de secret, synonyme de « clandestine », est liée à un privilège du pouvoir, un trésor protégé par des gardiens, et source d'angoisse tant pour celui qui le détient que pour ceux qui le craignent.

Enfin, la fonction déductive du titre réside dans son obscurité et sa valeur symbolique, qui incitent le lecteur à explorer le contenu et les secrets que Sabolo garde dans un silence lourd. Ce titre pousse ainsi le lecteur à plonger dans le roman pour découvrir la vie de l'écrivaine et les secrets liés à son passé et à ses engagements politiques, particulièrement ceux de l'extrême gauche.

Outre la première déclaration présente dans le titre, un autre indice nous ai procuré par Sabolo à travers le pacte autobiographique dans lequel se confondent les trois instances.

II.2. un pacte soussigné dans l'incipit (je soussigné Monica Sabolo)

Il est essentiel de définir la notion de narrateur, qui est l'entité fictive responsable de raconter l'histoire. Le statut du narrateur dépend de sa relation à l'histoire (est-il présent en tant que personnage ?) et du niveau narratif (raconte son histoire ou est-il un objet d'un récit ?). Dans le cas présent, le narrateur est homodiégétique, car il est un personnage de l'histoire qu'il narre. Si ce narrateur est également le héros de son récit, il est qualifié d'auto diégétique, comme en témoigne l'exemple de ses souvenirs d'enfance, illustré par l'exemple suivant :

Enfant, j'avais assisté à un spectacle de fauconnerie, quelque part en Auvergne, près d'un château…(Sabolo, 2022,p.23)

La narratrice de La vie clandestine raconte non seulement sa propre histoire mais également celle d'une famille . Elle évoque un événement marquant des années 80, où des jeunes ont assassiné un père pour des raisons idéologiques. L'identité de l'écrivaine est donc liée à celle du personnage principal, renforçant le lien entre les deux :

Ce fut aussi simple que cela. Dans les années 80, un groupe de jeunes gens assassinent un père de famille pour des raisons idéologiques. C'était un bon sujet. J'allais écrire un truc facile et spectaculaire, rien n'était plus éloigné de moi que cette histoire-là. Je le croyais vraiment. Je ne savais pas encore que les

années Action directe étaient faites de ce qui me constitue : le secret, le silence et l'écho de la violence. (Sabolo, 2022,p.19)

La narratrice joue plusieurs rôles, notamment celui de raconter sa propre histoire et d'organiser la narration de manière chronologique, ce qui est fondamental pour les autobiographies. En ce qui concerne les techniques narratives, elle utilise différentes méthodes de représentation, telles que la distance et la focalisation. Analyser la distance consiste à évaluer la précision des informations fournies. Le narrateur de La vie clandestine privilégie une distance qui permet une évocation rapide des événements, tels que la narration de son engagement dans la recherche des sociétés secrète et plus précisément le groupe d'« Action directe» et la narration de la vie de ses fondateurs, ainsi que l'évocation de leurs crimes comme celui de l'assassinat de George Besse .Quant au point de vue narratif, il est interne, car le récit est autobiographique et la narratrice est au centre de l'intrigue. Elle nous décrit ses sensations lors d'un appel d'une étudiante, révélant ainsi ses émotions et ses réflexions sur son père. La narration à la première personne indique que le texte est écrit du point de vue interne, où le narrateur est également le personnage. Cette approche permet de plonger dans les sentiments et les pensées.

Ainsi, la narration à la première personne, nous informe, qu'il s'agit d'un texte (une œuvre) écrite au point de vue interne, avec un narrateur -personnage, et qu'en est -il donc si c'est une autobiographie, donc auteur-narrateur-personnage.

Le point de vue interne est utilisé en littérature pour permettre au narrateur de rapporter les événements du récit à travers la conscience de l'un des personnages. Les sentiments, pensées et ressentis de ce personnage pourront donc être rapportés, en plus de ses faits et gestes.

Bref nous avons vu jusqu'à présent le contrat de lecture : le pacte autobiographique à travers l'étude du titre et de ses fonctions (la référence au genre autobiographique), et à travers la triple identité narrative (auteur-narrateur-personnage) ci présente dans l'incipit. Nous passerons directement à l'étude de la représentation des traces de la vie de Sabolo.

III. LES EMPREINTES ET LES TRACE DE LA VIE

L'autobiographie comme art introspectif nécessite des efforts afin d'émerger les souvenir en mot, ainsi :

Écrire son autobiographie répond tout d'abord à des aspirations personnelles.

Rappeler ses souvenirs, c’est contempler un miroir qui reflète les images de notre jeunesse et des événements passés. Elles remontent lentement à la surface, émergent, deviennent si vivantes et palpables qu’elles nous submergent parfois d’émotions – ces émotions qui étaient enfouies tout au fond de notre mémoire, que l’on avait atténuées, voire oubliées avec le temps qui passe. Quel plaisir de les retrouver et de redonner vie à son passé, son enfance, aux moments marquants ou privilégiés, aux moments de joie, de bonheur, aux événements auxquels on a assisté, participé peut-être.(Écrire ses mémoires, 2014,p.24)

En effet, l’autobiographie n’est pas seulement un récit personnel, mais aussi un récit de vie qui tente de retracer le parcours de l’auteur-narratrice tout au long de sa vie avec son père et tout en suivant l’ordre chronologique des évènements évoqués, ainsi, tout en les décrivant dans leur cadre spatial réel.

III.1. Les empreintes des souvenirs

L'autobiographie s'intéresse à des moments forts de sa vie en évoquant ses premiers souvenirs liés à sa naissance, ses parents, l'école, la lecture et l'écriture, tout en prenant en compte ses relations avec le monde des adultes. Les premiers souvenirs d'enfance sont essentiels, et il est difficile pour l'auteur de rédiger son récit sans aborder cette période. Les autobiographies cherchent souvent à explorer les zones obscures de leur âme, et la quête des origines est un motif récurrent. Dans le cas de Sabolo, cette quête commence avec une photographie d'elle enfant, ce qui réveille des souvenirs, notamment celui d'une conversation avec une étudiante qui lui demande si Yves S. est son père. Ce souvenir est chargé d'émotions, car l'absence de son père depuis plusieurs années rend cette question douloureuse.

Un événement marquant pousse l’auteure- narratrice à écrire son autobiographie : c’est la découverte de son certificat de naissance à l'âge de quinze ans. Ce moment décrit dans une partie intitulée "Le crime", est lié à des souvenirs d'enfance qui s'étendent sur plusieurs pages. Comme le mentionne Jean-Yves Tadié dans son ouvrages Le sens de la mémoire que la plupart des souvenirs d'enfance ne remontent pas au-delà de l'âge de trois ans(Tadié & Tadié, 1999,p.297), ce qui est illustré par l'incapacité de Sabolo à se souvenir de son enfance à Genève. Elle évoque des images de photographies, mais ces souvenirs restent flous et éloignés.

L'amnésie infantile, selon Sigmund Freud, influence nos souvenirs et pourrait expliquer pourquoi les autobiographes traitent souvent de leurs souvenirs d'enfance avec tant d'émotion. Sabolo se souvient de Milan lieu où elle a passé

son enfance , de l'appartement où elle a vécu jusqu'à l'âge de trois ans, et de son statut d'enfant illégitime, un fait confirmé par le manque de reconnaissance de son père.
La révélation de son origine mystérieuse par sa mère marque un tournant dans sa vie, la mère ayant rencontré le père biologique dans un contexte qui aurait pu être scandaleux à l'époque. Le retour de sa mère chez ses parents alors qu'elle était enceinte de six mois engendre un mélange de honte et de bonheur, un contraste poignant dans une société catholique. La rencontre entre ses grands-parents et les parents d'Alessandro F. souligne l'importance de l'honneur familial, tandis que la réaction des grands-parents face à cette situation montre l'humiliation ressentie.
Trois ans après sa naissance, Yves S. entre dans la vie de Sabolo en épousant sa mère et lui offrant une nouvelle identité en tant que fille biologique. Cela marque le début de sa vie clandestine à Genève, où elle s'exprime en français. La relation entre l'enfant et les adultes est au cœur de son récit, et elle présente une relation complexe avec ses grands-parents, marquée par une distance initiale due à la situation d'humiliation, mais qui évolue vers une connexion protectrice.
Monica évoque aussi sa relation avec ses parents, où l'amour pour son père est mis en évidence, bien qu'il y ait des conflits. Les souvenirs de son adolescence sont marqués par des voyages, des moments de troubles, des amours et des choix d'études. Les voyages, influencés par le travail de son père diplomate, sont des moments d'évasion. Son adolescence est également marquée par le divorce de ses parents, un événement qui bouleverse sa vie.
Les souvenirs de ses premières expériences amoureuses, ainsi que ses relations avec ses camarades, sont des éléments clés de son parcours. Son choix de faire des études en relations internationales reflète une quête identitaire, tout en témoignant de l'influence de son père.
Nous avons vu précédemment comment Sabolo a suivi une chronologie narrative en nous évoquant ses souvenirs, nous explorons par la suite les lieux qui jalonnent son récit.

III.2. Les traces des lieux de mémoire

L'étude de l'espace romanesque pose un débat emblématique entre les théoriciens du roman vu que « l'analyse de l'espace, (…) est habituellement exclue de la narratologie. En tant qu'élément du contenu (c'est-à-dire de

l'histoire). L'espace n'a, à priori, pas sa place dans une étude de forme. C'est aux théoriciens de la signification qu'il revient de l'étudier » (Poétique du roman, 2010,p.42)

Ainsi, l'étude de l'espace d'« un point de vue poéticien » revient à « examiner les techniques et les enjeux de la description »(Ibid., p.51).

En effet, la vie clandestine est un roman autobiographique puisqu'il relate la vie et les souvenirs de Sabolo ; il nous présente des descriptions des espaces réels. Ces espaces seront étudiés par « leur connotation et leurs valeurs symboliques qui renvoient en effet au contenu »(Ibid,p.42). De même, ces espaces peuvent être étudiés selon leur nature c'est-à-dire s'ils sont des espaces ouverts ou clos. En plus, selon Reuter,« l'espace construit par le récit peut s'analyser à travers quelques axes fondamentaux »(Reuter, 2009) c'est-à-dire l'étudier selon les catégories convoquées, leurs nombres, les modes de construction des lieux et son importance fonctionnelle.

Ainsi, le roman présente tout d'abord des lieux divers existants dans la réalité et sur la carte politique mondiale et qui sont les deux lieux de mémoire de Sabolo.

III.2.1. L'Italie

L'Italie est décrite à travers la ville de Milan et à travers l'état anarchique qui la régnait.

a) . L'Italie des mafias

L'Italie est le pays natal de Monica et de sa mère « Ma mère est italienne, ses parents y habitaient, mais il n'y avait aucun lien tangible avec mon père». (Sabolo, 2022, p. 42)

Cependant, l'Italie que décrit Sabolo, est différente de celle de nos jours, puisqu'à l'époque elle était ravagée par les révoltes anarchistes « Au même moment, dans le pays, la révolte gronde » (Sabolo, 2022, p. 62), l'Italie était en pleine grève populaire « Des grèves essaiment dans des centaines d'usines, où les travailleurs se révoltent contre l'autoritarisme et les inégalités salariales qui règnent dans une industrie en pleine explosion, au sein d'une société qui change à toute vitesse».(Ibid.)

Outre ce désarrois social, l'Italie est décrite comme un pays religieux et conservateur, où il est inacceptable d'avoir une double vie « Alors que mes grands-parents tentent par tous les moyens de la raisonner (…) dans une Italie catholique où le divorce est encore interdit, ma mère vit l'année la plus

heureuse de son existence ». (Sabolo, 2022, p. 69)
Ainsi, l'Italie symbolise dans l'autobiographie de Monica sabolo un lieu d'origine et de liens maternels, mais également un environnement social conflictuel et oppressif. Elle est liée à l'histoire de la famille (ses grands-parents, sa mère) et à une mémoire collective marquée par des luttes et du conservatisme. Elle représente une mémoire ambivalente : d'une part, la douceur des racines familiales ; de l'autre, un pays secoué par la brutalité politique et les tabous religieux qui imprègnent l'enfance dépeinte.
b) La ville de milan
La ville de Milan c'est la ville où Monica a vécu ses 3 premières années « Je me souviens de Milan, de l'appartement où j'ai vécu jusqu'à l'âge de trois ans, entre 1971 et 1974 » (Sabolo, 2022, p. 42). La ville de Milan est l'environnement maternel de Monica, puisque ses grands-parents vivaient à Milan « Au printemps 1971, ma mère enceinte de six mois retourne vivre chez ses parents. Elle entre, avec sa valise, dans la cabine de l'ascenseur grillagé qui monte vers l'appartement milanais de mon enfance ». (Sabolo, 2022, p. 77)
Cependant, le Milan de cette époque était totalement différent puisqu' « À Milan, le 3 mars 1972, les Brigades rouges réalisent leur premier enlèvement » (Sabolo, 2022, p. 42); en plus, il est ravagé par les révoltes et la violence « À Milan l'air est électrique, la violence partout, dans les rues, les usines, où s'élèvent la fumée et les cris ». (Sabolo, 2022, p. 63).
Milan représente ici un espace de souvenirs personnels et sensoriels : le logement, l'ascenseur, l'enfance. Cependant, c'est également le cadre d'une époque historique caractérisée par la violence politique. Pour Monica, la ville représente à la fois un refuge familial et le décor perturbant de ses premières années, positionnant Milan comme un lieu essentiel dans la construction de son identité et de ses souvenirs d'enfance. .

III.2.2. La Suisse

La Suisse est représentée dans le roman par la ville de Genève, le lieu où Monica a vécu le reste de sa vie « Je suis désormais la fille d'Yves S., je vis à Genève, en Suisse, je m'exprime en français » (Sabolo, 2022, p. 79)la ville de Genève est décrite comme une ville surpeuplée « Quand je descends d'un train, à la gare de Cornavin, à Genève, je suis assaillie par le parfum de la pierre » (Sabolo, 2022, p. 196). Genève est représentée par l'appartement familial, cet appartement semble luxueux, moderne et confortable « Je ne me rappelle pas

mon enfance à Genève, en particulier les années passées, entre 1974 et 1977, dans cet appartement moderne, confortable, tapissé de moquette et meublé dans un style typique des années 70, au 8ème étage, sur l'avenue des Crêts-de-Champel » (Sabolo, 2022, p. 29). Cet appartement semble bien précieusement décoré par de pièce d'art « Dans l'appartement de la vieille ville, à Genève, les plus belles pièces de la collection d'art précolombien d'Yves S. sont posées sur des socles, abritées par des vitres » (Sabolo, 2022, p. 170).

Finalement , dans son autobiographie , Genève symbolise le carrefour et l'élaboration d'une nouvelle identité : c'est là qu'elle devient francophone et qu'elle vit sous la supervision d'Yves S. C'est un lieu d'intégration sociale et culturelle, tout autant qu'un espace de souvenirs éparpillés : l'appartement moderne et les œuvres d'art constituent un cadre stable mais sans personnalité, qui se distingue par rapport à la mémoire plus intense de Milan. Ainsi, la Suisse représente le souvenir de la métamorphose, du bien-être matériel et du passage d'une langue à l'autre, tout en témoignant également d'un certain effacement de la mémoire d'enfance.

En guise de conclusion, nous avons développé l'espace du roman à travers l'étude des lieux géographiques réels qui ont marqué la vie de Monica (l'Italie et la Suisse).

Après avoir étudié le contrat de lecture, le temps et les lieux dans ce qui précède, on abordera finalement les personnages et surtout les figures paternelles.

IV. UN PORTRAIT PATERNEL AMBIGU ET PLEIN DE MYSTERES

Une fois l'étude des lieux qui façonnent l'univers de Monica – l'Italie à Milan et la Suisse à Genève – terminée, il est pertinent de se pencher sur les personnages essentiels présents dans son autobiographie. Les deux figures paternelles occupent une position centrale parmi eux. L'un est le géniteur, lié à l'Italie et à la parenté biologique (Alessendro.F) ; l'autre est Yves S., le partenaire de sa mère qui l'éduque en Suisse et lui offre un nouveau cadre de vie. L'étude de ces deux personnages offre l'opportunité de saisir non seulement la constitution identitaire de Monica, mais également le mécanisme de sa mémoire personnelle.

IV. 1 Le père biologique : une présence à la fois fondamentale et absente

Le père biologique de Monica n'apparaît jamais véritablement dans le texte comme un acteur du quotidien. Sa présence est diffuse, fragmentaire, filtrée par le récit de la mère ou par quelques souvenirs des premières années passées

à Milan. Il n'est jamais représenté dans des scènes concrètes ; il n'a ni voix ni gestes propres, et l'autrice ne livre aucune description physique susceptible de lui donner un visage. Il ne possède pas non plus de lieu narratif qui lui soit attribué, en dehors de l'Italie qui, dans le récit, tient lieu à la fois de pays natal de la mère et de décor des débuts de Monica. Cette discrétion confère au père biologique un statut presque abstrait : il est moins un personnage qu'un repère lointain, un point fixe autour duquel se construisent les autres éléments de l'histoire. À ce titre, il incarne l'idée d'une filiation interrompue, d'un lien biologique qui n'a jamais pu se traduire en présence affective ou éducative.

Cette figure paternelle est surtout mobilisée comme support narratif pour évoquer l'Italie des années 1970 – un pays traversé par les révoltes ouvrières, les grèves et un catholicisme encore très conservateur. À travers l'évocation de ce père absent, Monica reconstitue ses racines italiennes et replace son enfance dans un contexte historique et social agité. Le père devient ainsi un vecteur de mémoire collective autant qu'un élément de l'histoire familiale , comme nous le montre l'exemple suivant:

Je me souviens du jour où ma mère m'a dit que mon père n'était pas mon père.[...] J'ai vingt-sept ans. Plus de dix ans se sont écoulés depuis l'épisode du certificat de naissance italien, depuis que j'ai vu inscrite en lettres noires, tapées à la machine, la mention « di padre ignoto », que j'ai interprétée comme « de père ignoble », avant de comprendre ce que cela signifiait. Et de ne plus y penser. Jamais, pas une seule fois.[...] J'ai l'impression de plonger dans un lac, une eau claire et froide. Sa voix me parvient, lointaine, on dirait qu'elle me parle depuis la rive, penchée au-dessus de la surface[..]Ils rejoignent un endroit inconnu en moi, où tout est déjà là. Elle ne m'apprend rien. Elle ouvre simplement une porte, en glissant une clé à l'intérieur de mon cœur(Sabolo, 2022,p61)

Mais du point de vue de la mémoire intime, ce père reste un souvenir lacunaire: il est absent des scènes quotidiennes, ne suscite aucune sensation concrète, n'a pas laissé d'objets, de paroles ou de gestes à se remémorer. Il fonctionne donc comme une mémoire de l'absence, comme une silhouette vide qui dessine par contraste la figure maternelle et, plus tard, celle d'Yves S. Ce vide n'est pas anodin : il constitue un « trou » autour duquel l'autobiographie s'organise, un espace de silence qui oblige l'autrice à construire son récit de soi en périphérie de cette absence paternelle. C'est précisément cette béance qui donne sa force au texte : en racontant ce qui manque, Sabolo éclaire la manière dont ele s'est forgée dans

l'entre-deux des filiations et des pays, entre deux présents et deux pays

IV.2. Yves S. : figure d'autorité et de transformation

À l'inverse du père biologique, Yves S. occupe une place abondante et presque structurante dans l'autobiographie. Son nom est cité avec une initiale et une majuscule, ce qui lui confère une présence officielle, un statut d'instance reconnue et de repère social. La formule employée par Monica – « Je suis désormais la fille d'Yves S., je vis à Genève, en Suisse, je m'exprime en français » (p. 79) – marque un basculement clair : l'adverbe « désormais » signale un moment de rupture identitaire. À partir de là, la filiation biologique cède la place à une filiation sociale et culturelle. Monica se définit désormais par rapport à celui qui l'élève, et non plus par rapport à celui qui l'a engendrée.

Dans le récit, Yves S. n'est pas décrit tant par des gestes, des paroles ou des traits de caractère que par l'espace qu'il impose autour de lui. L'appartement moderne et confortable de Genève, décoré de pièces d'art précolombien (p. 170), devient le symbole d'un univers stable et prestigieux, mais aussi codifié et impersonnel. Les longs passages consacrés aux moquettes, aux vitrines, aux pièces d'art constituent un portrait indirect d'Yves S. : on ne le voit pas agir, mais on voit l'empreinte de son goût, de sa fortune, de son statut sur l'environnement dans lequel grandit Monica.

Dans l'autobiographie, Yves S. incarne la paternité de substitution et la transformation de Monica. C'est grâce à lui qu'elle change de pays, de langue et de milieu, qu'elle devient francophone et qu'elle est introduite à un certain confort matériel et à une culture bourgeoise. Il est la figure qui organise et stabilise son environnement après les années italiennes marquées par l'instabilité et la révolte. Cependant, cette paternité est construite sur un mode essentiellement matériel : Monica insiste sur l'appartement, les objets, les collections d'art, davantage que sur des gestes d'affection, des dialogues ou des souvenirs intimes. Sa mémoire de cette période est basée sur une mémoire sentive ce qui la rend plus concrète mais plus impersonnelle. Elle retient grace à sa mémoire visuelle les textures des moquettes et la transparence des vitrines protégeant les objets, lorsque sa mé moire olfactive lui erment de distinguer l'odeur de la pierre à la gare de Cornavin, mais non des moments de tendresse ou de complicité avec Yves S.

Ce contraste suggère que cette filiation d'adoption est vécue simultanément comme un ancrage et comme une distance affective. Yves S. est bien la figure

de l'intégration et du statut, mais il reste en même temps une figure d'autorité distante sa présence est davantage ressentie dans l'aménagement du cadre de vie que dans l'expérience intime du lien parental. Par ce biais, Sabolo met en relief la mémoire sensitive d'Yves S puisqu'elle est une mémoire d'objets et de lieux plus qu'une mémoire de gestes et de paroles, ce qui éclaire la manière dont l'autrice construit son récit de soi : entre filiation et adoption, entre matérialité et affect, entre intégration et effacement.

IV.3. Deux pères, deux pôles identitaires

Les deux figures paternelles, bien que distinctes, ne prennent tout leur sens que lorsqu'elles sont envisagées l'une par rapport à l'autre, comme dans un miroir. Leur fonction ne se limite pas à la simple juxtaposition ; elles se répondent et se définissent mutuellement par le contraste qu'elles offrent. Cette dynamique met en évidence les influences opposées qui façonnent l'identité de Monica.

D'un côté, le père biologique est intimement lié à l'Italie, à la langue maternelle et à l'idée d'absence. Il incarne un passé familial et culturel que Monica peine à rejoindre pleinement. Ce pays, marqué par des révoltes et des interdits religieux, est une toile de mémoire lacunaire, faite d'échos et de fragments. La figure de ce père est construite comme un manque fondamental : bien qu'il existe en tant que concept, il n'est pas présent dans sa vie quotidienne. Il offre un nom, évoque une histoire, mais ne fournit pas la présence nécessaire pour établir un lien tangible. Cette absence crée une distance émotionnelle qui affecte profondément la perception qu'a Monica de ses racines.

À l'opposé, Yves S. est associé à la Suisse, à la langue française, et à une stabilité matérielle. Il représente le présent et la transformation de Monica, car c'est grâce à lui qu'elle change de pays, de langue et de milieu social. Toutefois, cette stabilité est teintée d'une forme d'institutionnalisation du lien. Yves S. apparaît moins comme un père au sens affectif du terme et davantage comme une figure d'autorité, un organisateur d'espace et de statut. Là où le père biologique incarne l'absence, Yves S. symbolise la présence, mais d'une manière plus institutionnelle que familiale, ce qui peut parfois donner l'impression d'un lien moins chaleureux et plus fonctionnel.

Ainsi, Sabolo construit son autobiographie en se plaçant entre ces deux pôles contradictoires. D'une part, il y a une filiation d'origine, profondément enracinée dans l'Italie et dans une mémoire trouée, marquée par l'absence. D'autre part, se trouve une filiation d'adoption, inscrite dans la réalité suisse,

caractérisée par une mémoire saturée d'images matérielles et d'objets concrets. Chaque filiation est associée à un espace géographique distinct — Milan d'un côté et Genève de l'autre — ainsi qu'à une époque différente : les premières années de vie par rapport à une enfance prolongée. De plus, chaque expérience est liée à une langue spécifique : l'italien pour l'une, le français pour l'autre. Chacune de ces filiations imprime sa marque sur la mémoire de Monica ; l'une représente une mémoire de l'absence, presque abstraite, tandis que l'autre évoque une mémoire d'intégration, tangible mais impersonnelle.

Cette tension entre les deux figures paternelles illustre et matérialise une tension plus large entre deux identités. D'un côté, on trouve l'identité d'origine, qui est intimement liée à la famille et à la culture italiennes ; de l'autre, l'identité d'adoption, qui s'inscrit dans la société suisse et ses normes. Cette dualité soulève des questions sur la mémoire familiale par rapport à la mémoire sociale, ainsi que sur l'appartenance italienne face à l'appartenance suisse. En mettant en scène ces deux figures comme des repères opposés mais complémentaires, Sabolo éclaire la quête d'identité qui traverse l'ensemble de son texte.

Monica ne se définit pas uniquement par l'un ou par l'autre de ces pères, mais plutôt par l'espace qu'elle occupe entre eux, dans cet entre-deux où se construit son récit autobiographique. Cette position intermédiaire devient un terrain fertile pour l'élaboration de son identité, soulignant ainsi la complexité de son parcours et l'interaction dynamique entre ses différentes influences culturelles et affectives.

V. CONCLUSION

En conclusion, La vie clandestine de Monica Sabolo se révèle être une exploration profonde et nuancée de l'identité à travers le prisme de la mémoire et des relations familiales. En tissant un récit autobiographique riche en émotions et en réflexions, où Monica Sabolo explore la complexité de sa vie à travers des faits réels et des recherches personnelles. Le titre du livre évoque des éléments secrets et oubliés de sa mémoire, établissant une connexion immédiate avec le lecteur et soulignant l'authenticité du récit. Dès l'incipit, le narrateur partage son histoire personnelle, liant son identité à des événements marquants, ce qui permet au lecteur de s'immerger dans ses souvenirs d'enfance.

Les souvenirs narrés reflètent les traces laissées par son passé, avec des thèmes

centraux tels que la recherche de ses origines et les révélations sur sa famille. Les descriptions de lieux comme Milan et Genève enrichissent le récit, offrant un contexte géographique et émotionnel qui met en lumière les tensions sociales et dynamiques familiales qui l'entourent.

Au cœur de l'œuvre se trouve la relation complexe entre Monica, sa mère et Yves S. Chaque personnage joue un rôle clé dans la quête identitaire de Monica. Elle est en constante recherche de son père et de son propre sens, naviguant à travers des identités multiples, influencée par l'amour et les conflits familiaux. Ainsi, La vie clandestine ne se limite pas à l'histoire d'une lignée, mais devient un miroir de nos propres parcours de vie, une invitation à embrasser notre histoire et à cultiver le courage d'explorer les ombres pour mieux comprendre qui nous sommes.

BIBLIOGRAPHIE

Chevalier, J., & Gheerbrant, A. (2021). Dictionnaire des symboles : Mythes, rêves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres (Nouvelle édition). Robert Laffont.

Écrire ses mémoires : Guide pratique de l'autobiographie (Deuxième édition) (avec Mazars, M.). (2014). Eyrolles.

Lejeune, P. (2010). L'AUTOBIOGRAPHIE EN FRANCE (2. éd). ARMAND COLIN.

Poétique du roman (3e édition) (avec Jouve, V.). (2010). A. Colin.

Reuter, Y. (2009). L'analyse du récit ([2e édition]). Numilog.

Sabolo, M. (2022). La vie clandestine. Editions Gallimard.

Tadié, J.-Y., & Tadié, M. (1999). Le sens de la mémoire. Gallimard.

Stressors and Coping Styles Among Chronic Hemodialysis Patients in Rachaiya Government and Farhat Hospitals

Imane Azzam
Ph-D en psychologie USJ - Professeur à l'Université Libanaise- Faculté de Santé Publique

Zeina Zebian
Ph-D en psychologie USJ - Professeur à l'Université Libanaise- Faculté de Santé Publique Université Mir Al Saed

Nour Arabi
Infirmière diplômé-Université Zalhé-branche Rachaya

Sana Jeha
Infirmière diplômée-Université Zalhé-branche Rachaya

Rawan Baalbaki
Infirmière diplômée-Université Zalhé-branche Rachaya

Nassab Azzam
Directrice des Soins-Irfan hospital

Abstract:
Renal replacement therapies are necessary for patients with chronic kidney disease (CKD) to replace the function of their impaired kidneys. Among CKD patients, hemodialysis is still the most sought-after type of treatment. Even though hemodialysis has many health advantages, patients who use the service face a variety of physiological, psychological, and physical stressors, which affect how well they view their overall health. As a result, the patients create a variety of distinctive and personalized coping mechanisms to aid in their adjustment to the illness. The purpose of the present study was to characterize the coping mechanisms and stresses used by hemodialysis patients. This was a cross-sectional descriptive retrospective correlational study among hemodialysis patients in Rachaiya governmental and Hamed Farhat hospitals' hemodialysis departments. Results find, that reduced sexual drive, fatigue, and trouble falling asleep were the main physiological stressors, while joint pain and discomfort from physical changes in the body were the main physical stressors. Despite the hospital's efforts to devolve hemodialysis services, insufficient hemodialysis equipment, a shortage of supplies, and challenges in driving up treatment costs were the main psychological stressors. Major respondents wished the problem had

gone away, blamed others, and kept the problem to themselves. There was a statistically significant association between independent variables and physical stressors categorization. Finally, counselors ought to advise patients on issue coping techniques because there is a strong correlation between them and improved felt health. Because communicating with Healthcare providers was found to be substantially connected with a better-perceived state of health, health professionals should also be easily accessible to listen to their patient's needs. Encourage the hospitals to install more HD machines in proportion to patient volume to shorten wait times.
Keywords: stressors, coping mechanisms, physical stressors, psychological stressors, physiological stressors, problem-based strategies, emotion-based strategies, chronic kidney disease, hemodialysis, hemodialysis patients

Study context:

For several years, the prevalence and incidence of chronic renal failure (CRF) or Chronic kidney disease (CKD) have been rising at an alarming rate. In the Ile-de-France region, for example, some 7,000 patients reach the end stage of CRF every year. This figure is rising by around 6% a year (Pascault, 2006). Likewise, the U.S Renal Data System [USRDS] (2018) affirmed that the prevalence of CKD has risen by 20%-25% in recent years with a significant increase in the burden of illness. (USRDS, 2018).

CKD is a progressive, life-threatening condition leading to the gradual loss of kidney function. Hemodialysis (HD) remains the most common life-sustaining therapy for patients in end-stage renal disease (ESRD). Despite its benefits, HD exposes patients to numerous physical, physiological, and psychological stressors that alter their daily life, health perception, and social functioning.

In this domain, several studies (Cinar et al, 2009; Mok&Tam,2001; Baldree et al, 1982; Gurklis et al, 1980; Folkman & Lazarus, 1980; Lazarus & Folkman, 1984) affirmed that HD remains the most common form of treatment for ESRD compared to peritoneal dialysis or renal transplantation. HD patients are subjected to multiple psychosocial and physiological stressors and may be threatened with many potential losses and lifestyle changes. Patients receiving HD use various strategies to cope with the stressors related to their disease and the treatment procedures. Preferred coping methods must be appraised relative to a social or cultural group, individual beliefs, values, norms, worldviews,

symbols, and orientations. The results of the study by Cinar et al (2009) show that the most frequent stressors reported were: limited vacation opportunities (80.4%), followed by fatigue (79.9%), uncertainty about the future (79.0%), limitation of activities (75.9%) and dependency on hemodialysis machine (75.0%), due to these reasons, The most frequently used coping strategies were turning to religion (Mean=14.10, SD=3.99) active coping (Mean=11.43, SD=3.03) and suppression of competing activities. (Cinar et al, 2009)

In Lebanon, CKD is a disease that affects and will continue to affect a sizeable number of the Lebanese population, of all ages (children, adolescents, adults), resulting in considerable impairment of quality of life (QoL) and major difficulties in adaptation. According to Ducruet (2002), the approximate number of patients treated by HD rose from 267 per million inhabitants in 1993, to 428 per million in 2001, in 37 centers throughout Lebanon. The impact of this disease on the daily lives of sufferers is very strong, at all physical, psychological, and social levels (Ducruet, 2002; Abdallah, 2000; Azzam et al, 2005)

a-Stressors Associated with Hemodialysis

HD patients face multiple physical, psychological, and social stressors that significantly affect their quality of life. Physically, common stressors include fatigue, muscle cramps, pain, dietary restrictions, and sleep disturbances, all of which interfere with normal functioning and daily activities (Cinar et al., 2009; Shahrokhi et al., 2014). Psychologically, patients often struggle with anxiety, depression, loss of independence, and fear of death as a result of long-term dependency on dialysis and uncertainty about their future (Gerogianni & Babatsikou, 2014; Al Naamani et al., 2016). Socially, financial strain, changes in family roles, and social isolation further contribute to emotional distress and reduced well-being (Kauric-Klein, 2013). These stressors, if unaddressed, can impair coping capacity and adherence to treatment, underscoring the need for nursing interventions focused on holistic and psychosocial support to enhance patient adaptation and resilience (Tsay & Healstead, 2002).

According to Lazarus and Folkman (1984), stress occurs when individuals perceive that environmental demands exceed their coping resources. This concept explains why HD patients, who face ongoing uncertainty about survival and physical limitations, often experience persistent stress. Curtin et al. (2002) reported that repetitive exposure to invasive dialysis procedures contributes to helplessness and reduced self-esteem.

b- Psychological and Emotional Impact

Multiple studies have demonstrated that HD patients are at a heightened risk of depression and anxiety. Al Naamani et al. (2016) found that nearly half of dialysis patients exhibited moderate to severe depression, largely linked to loss of autonomy and social isolation. Similarly, Liu et al. (2018) reported that prolonged exposure to treatment-related stressors led to emotional exhaustion and diminished life satisfaction. According to the World Health Organization (2017), chronic illnesses associated with psychological distress tend to result in higher morbidity and reduced treatment adherence. In this context, nurses play a critical role in recognizing and managing emotional distress through empathy, active listening, and health education (Tsay & Healstead, 2002). Providing continuous psychological support can enhance patient engagement and promote better adjustment to chronic therapy.

c- Coping Mechanisms

Coping refers to the cognitive and behavioral efforts made to manage specific internal or external demands that are perceived as stressful (Lazarus & Folkman, 1984). Folkman and Moskowitz (2004) classified coping into two main categories: problem-focused coping, which involves taking direct action to solve problems, and emotion-focused coping, which seeks to manage emotional responses.

According to Shahrokhi et al. (2014), HD patients often rely more heavily on emotion-focused coping, such as acceptance, avoidance, and religious faith, due to the chronic and uncontrollable nature of their illness. El Khoury et al. (2020) found that Lebanese patients tend to use culturally rooted coping mechanisms, including spirituality and family support, which provide emotional relief and strengthen resilience. These findings highlight the importance of addressing cultural and psychosocial dimensions when developing supportive care plans for dialysis patients.

d- Nursing Role in Stress Management

Nurses are at the forefront of patient care and play an essential role in helping HD patients adapt to the challenges of their condition. According to Cinar et al. (2009), structured nursing interventions such as education, counseling, and relaxation training can reduce anxiety and improve patients' coping skills. Tsay and Healstead (2002) emphasized that therapeutic communication fosters trust and enables patients to express fears openly, thereby reducing psychological tension. Similarly, Gerogianni and Babatsikou (2014) showed

that effective nurse–patient relationships enhance adherence to medical treatment and improve perceived quality of life. By providing both physical care and emotional support, nurses act as mediators between the patient's medical needs and psychological well-being.

e- Theoretical Framework

This study adopts the Transactional Model of Stress and Coping by Lazarus and Folkman (1984) as its theoretical foundation. The model explains that stress arises when individuals appraise a situation as threatening or exceeding their coping capacity. Coping, therefore, is not a static reaction but a dynamic process involving continuous cognitive appraisal and adjustment. This framework has been widely applied in chronic illness research (Shahrokhi et al., 2014) and provides a useful lens for examining how HD patients interpret and respond to illness-related stressors. It also guides nursing practice by emphasizing the importance of personalized, adaptive interventions that address both emotional and practical needs.

Thus, the present research aims to gain insight into the stressors and coping mechanisms of HD patients in Rachayya government hospital and Farhat hospital, which would be useful in directing the design and delivery of services and supporting interventions for these people. And, our general question is "What are the stressors and coping mechanisms of HD patients in Rachayya government hospital and Farhat Hospital?"

These questions allow us to pose a plethora of hypotheses:

- Coping styles are associated with behavior
- A close-knit family helps a dialysis patient cope with the procedure more than a broken family.
- Males adapt more easily and faster than females.
- A bullying–free society helps the patient to boost his self-confidence more.
- A nurse with perfect communication skills contributes greatly to helping the dialysis patient to cope.

Finally, the originality of this study serves as a starting point for studies in the future that examine how health behaviors and results affect CKD. And, the results of this study may also assist nurse practitioners in helping patients cope with long-term hemodialysis by offering them assistance, information, and other options.

Method:

This study utilized a quantitative design research method. A cross-sectional descriptive retrospective and correlational study that aimed at describing the stressors and coping strategies among HP. The research was carried out in two selected HD departments included in two hospitals namely «Rachaiya Governmental Hospital» and «Hamed Farhat Hospital». Data collection was done from the 1st of November till the 8th of November 2023.

The sample participants (n=40), were chosen using a practical sampling technique from all settings, according to inclusion (over 18 years old and under 70 years of age; on hospital hemodialysis for at least 1 year; admitted to the selected hospital and underwent HD at least 2 times per week) and exclusion criteria (over 70 years old and under 18 years of age; be found to be cognitively impaired by the chief nurse or senior shift; dialysis less than 2 times per week; tired physically; refuse to participate and patients with peritoneal dialysis). Given the criteria that we set for participation in this study, the number of participants was limited.

Data were collected through a self-administered questionnaire addressed to 40 participants of our target population of HD units of the hospitals chosen. The research team used a validated questionnaire that is framed into the context of the country. The questionnaire was pre-tested with five hemodialysis patients from the Rachaiya government and Hamed Farhat Hospital before data collection to test for the validity and reliability of the study tool.

The survey questionnaire was part of a wider research project to assess the patient's stressors factors and coping strategies. It measured several areas, sociodemographic data, health status, stressors scale, psychological and physiological reactions, family support, and other general questions. The questionnaire was translated into the Arabic language to meet the educational level of all participants. Data were collected using two validated scales:

- Hemodialysis Stressor Scale (HSS) to assess physiological, psychological, and physical stressors.
- Jalowiec Coping Scale (JCS) to measure coping strategies (problem- and emotion-based).

Inclusion criteria included patients aged 18–70 years on HD for at least one year.

The questionnaires collected were moved to a safe place for further analysis. The software used to process the results were: Microsoft Word 2007 Excel and

SPSS Version 23 to correlate the relationship of the different variables of our problem.

Lastly, confidentiality, freedom and the right to participate or not in the study were respected. We carried out a univariate analysis, allowing the description of the different variables used (medians in particular). Secondly, a bivariate analysis was performed on paired series. Regarding the categorical explanatory variables, we used chi-square tests (X2). Significance level is set at p-value= 0.05 for the entire study.

Result:

1- Demographic Characteristics

The majority of the participants were male (62.5%), and the most common age group was 51–61 years (35%), followed by those aged over 61 years (30%). Most participants were married (72.5%), and nearly half had completed secondary education (45%). A significant proportion of patients were unemployed (65%), reflecting the economic burden and physical limitations imposed by the disease. Regarding treatment duration, the majority had been on hemodialysis for one to five years (55%), while 27.5% had undergone treatment for more than five years. These findings indicate that middle-aged and older adults, particularly men, constitute the dominant demographic among HD patients, consistent with similar studies conducted by Cinar et al. (2009) and Gerogianni and Babatsikou (2014).

2- Major Stressors Experienced

The analysis of the Hemodialysis Stressor Scale (HSS) revealed that the most common physical stressors were fatigue, joint pain, and muscle cramps. Additionally, dietary and fluid restrictions were reported as a significant source of frustration, limiting social and cultural participation, especially in family gatherings. Psychologically, patients described fear of death, feelings of dependence, and uncertainty about the future as predominant stress factors. Moreover, many reported sleep disturbances, anxiety, and emotional exhaustion, which often intensified after dialysis sessions. These findings are in line with Shahrokhi et al. (2014), who identified fatigue and fear as the most distressing symptoms among HD patients.

Table °1: Psychological stressors of the respondents

Item	Agree N(%)	Neutral N(%)	disagree N(%)	Mean ±SD
I have to depend on others to transport me, since I have to wait so long to be assigned a hemodialysis machine.	33(77.5%)	1(2.5%)	8(20%)	1.25±1.31
I am not comfortable about my future life.	22(55%)	14(35%)	4(10%)	1.40±1.1
I find it challenging to increase the price of laboratory tests, erythropoietin, and transportation to and from the center.	33(77.5%)	4(10%)	3(7.5%)	.93±.94
hemodialysis devices continue to malfunction, and they are never fixed in a timely manner after a malfunction.	31(77.5%)	4(10%)	5(12.5%)	1.03±1.02
we never run out of hemodialysis supplies like dialyzers, blood lines, or bicarbonate powder from the store, and we never run out of the erythropoietin injection from the pharmacy	25(65.5%)	1(2.5%)	14(35%)	1.65±1.36

Table n° 2: The results of physiological and physical stressors categories

Category	0-24.99 Strong agree	25-49.99 Agree	50-74.99 disagree	75-100 Strong disagree
Psychological category (total score=20)R	10(25%)	24(60%)	4(10%)	2(5%)

2- Coping Styles and Strategies

Results from the Jalowiec Coping Scale (JCS) showed that patients primarily relied on emotion-focused coping strategies. The majority reported accepting their illness (80%), sharing problems with family (62.5%), and seeking emotional support from relatives and healthcare providers. However, 85% of participants admitted to keeping some worries to themselves, reflecting an element of emotional suppression. A smaller number of patients adopted problem-focused coping approaches, such as planning, seeking information, or discussing challenges with nurses. Religious faith and prayer were also commonly reported as coping mechanisms, emphasizing the influence of cultural and spiritual beliefs in the Lebanese context. These findings are consistent with El Khoury et al. (2020), who noted that Lebanese HD patients rely heavily on family and faith-based coping due to strong social and religious values.

Table nº 3: Emotion-based strategy

Item	*Never N(%)*	*Sometimes N(%)*	*Always N(%)*	*Mean ±SD*
I always keep the problems that I encounter to myself	6(15%)	18(45%)	16(40%)	1.25±0.707
I take addictive drugs to forget my problem	36(90%)	3(7.5%)	1(2.5%)	0.13±0.404
I always blame others for the problems that I encounter	22(55%)	10(25%)	8(20%)	0.65±0.802
I always wish that the problem go away	1(2.5%)	4(10%)	3587.5%)	1.85±0.427
I always accept the situation as it is since I know that very little could be done so solve my problem	1(2.5%)	7(17.5 %)	32(80%)	1.78±0.480

3- Perceived Health Status and Quality of Life

When asked about their general health perception, 50% of respondents rated their health as "good," while 30% described it as "average" and 20% as "poor." Despite this relatively positive outlook, 70% of participants reported that dialysis sessions affected their sleep quality, and 65% indicated that it interfered with their sexual relationships. The majority also experienced physical exhaustion following each session, often leading to reduced physical activity and social withdrawal. These results highlight the dual impact of HD—sustaining life while simultaneously reducing physical vitality and social participation (Kauric-Klein, 2013; Al Naamani et al., 2016).

4- Correlation Between Stressors and Demographic Variables

Statistical analysis revealed a significant association between joint pain and duration of hemodialysis ($p = 0.04$), indicating that patients who had been on dialysis longer reported more severe musculoskeletal discomfort. No significant relationship was found between gender and overall stress level, though women tended to report slightly higher psychological stress than men. Age and employment status were weakly correlated with coping effectiveness, suggesting that younger and working patients may adapt more positively due to higher social engagement and self-efficacy. These findings partially support the hypotheses and align with the Transactional Model of Stress and Coping (Lazarus & Folkman, 1984), which posits that coping is influenced by individual and situational factors.

In summary, the results demonstrate that hemodialysis imposes profound physical, emotional, and social challenges, leading most patients to adopt emotion-focused coping mechanisms. Support from family members and

nurses emerged as the most important buffer against stress. However, persistent fatigue, pain, and uncertainty about the future continue to hinder patients' adaptation. The study underscores the importance of nursing interventions—including education, emotional support, and communication—to enhance coping capacity and improve QOL among chronic HD patients in Lebanon.

Discussion:

The findings of this study reveal that HD patients experience multidimensional stressors that significantly influence their physical, psychological, and social well-being. These results are consistent with previous research indicating that patients undergoing chronic dialysis encounter fatigue, dietary restrictions, and anxiety as major stressors (Cinar et al., 2009; Shahrokhi et al., 2014). The prevalence of physical symptoms such as joint pain and sleep disturbance reflects the demanding nature of dialysis treatment and the cumulative strain of long-term therapy. The significant association between joint pain and duration of dialysis in this study reinforces the progressive burden of musculoskeletal complications reported by Gerogianni and Babatsikou (2014).

The predominance of emotion-focused coping strategies among participants—such as acceptance, faith, and seeking emotional support—highlights the role of cultural and spiritual beliefs in the Lebanese context. These coping styles align with the findings of El Khoury et al. (2020), who emphasized that spirituality and family bonds act as protective resources against distress. While emotion-based coping helps patients tolerate chronic illness, it may also limit proactive problem-solving, as observed by Folkman and Moskowitz (2004). The relatively lower use of problem-focused strategies suggests that patients often perceive limited control over their condition, consistent with Lazarus and Folkman's (1984) transactional model, which posits that perceived control shapes coping responses.

Patients' self-reported HD indicates a complex balance between adaptation and ongoing struggle. Although half of the respondents rated their health as good, most experienced fatigue, sleep disturbances, and reduced sexual functioning—symptoms also described by Kauric-Klein (2013) and Al Naamani et al. (2016). These persistent stressors can erode motivation and adherence to treatment if psychosocial needs are not addressed. The data therefore emphasize the importance of nursing interventions that integrate psychological and educational components. Nurses are uniquely positioned to identify early

signs of distress, provide coping education, and encourage self-efficacy through continuous interaction with patients (Tsay & Healstead, 2002).

The association between sociodemographic variables and coping patterns further supports the idea that coping is context-dependent. Younger and employed patients tended to adapt better, likely due to higher self-esteem and social engagement. This observation is consistent with Curtin et al. (2002), who found that personal autonomy and social participation enhance resilience among long-term dialysis survivors. Gender differences were modest but suggested that women may internalize stress more deeply, reflecting cultural expectations around emotional expression.

Overall, these findings affirm that effective management of hemodialysis stress requires a holistic, multidisciplinary approach. Addressing physical symptoms alone is insufficient; psychological counseling, family involvement, and nurse-led education must be incorporated into care plans. The integration of the Transactional Model of Stress and Coping provides a useful framework for nurses to assess individual needs, tailor interventions, and strengthen adaptive behaviors. Future initiatives in Lebanon should focus on structured psychosocial programs and professional training for dialysis nurses to enhance patients' coping capacity and quality of life.

Conclusion and recommendations

This study explored the stressors and coping styles among chronic hemodialysis (HD) patients at Rachaiya Governmental and Hamed Farhat Hospitals in Lebanon. The findings revealed that HD patients face numerous physical, psychological, and social challenges, with fatigue, pain, and fear of death emerging as major stressors. Most participants relied on emotion-focused coping mechanisms, such as acceptance, family support, and religious faith, reflecting the cultural and spiritual fabric of Lebanese society. Although these strategies provided emotional comfort, they did not always promote problem-solving or long-term adaptation.

The study highlights the essential role of nurses in improving patients' ability to cope with chronic illness. Through ongoing education, empathy, and psychosocial support, nurses can significantly reduce patient stress and enhance overall quality of life. The integration of Lazarus and Folkman's (1984) Transactional Model of Stress and Coping into nursing practice offers a valuable framework for understanding patients' experiences and designing individualized interventions.

Based on the findings of this study, it is recommended that healthcare institutions and nursing programs place greater emphasis on the psychosocial aspects of care for patients undergoing hemodialysis. Nurses should receive specialized training in chronic illness management, therapeutic communication, and stress-coping support to help patients better adapt to the emotional and physical challenges of dialysis. A holistic and multidisciplinary approach involving physicians, psychologists, dietitians, and social workers is essential to address the diverse needs of patients and enhance their overall well-being. Hospitals should also establish nurse-led counseling sessions and support groups to provide emotional guidance and promote self-efficacy among patients. In addition, public awareness campaigns are necessary to reduce stigma, improve community understanding of chronic kidney disease, and encourage early medical consultation.

Finally, further research with larger and more diverse populations is recommended to explore the long-term effects of coping strategies and to develop culturally sensitive nursing interventions tailored to the Lebanese context. By addressing both the physical and psychological dimensions of care, this study contributes to a deeper understanding of how holistic nursing can transform the dialysis experience and foster better adaptation among patients living with chronic renal failure.

Bibliography:

- Abdallah, A. (2000). Qualité de vie des personnes ayant subi une transplantation rénale dans la région de Beyrouth. Mémoire de maîtrise inédit, Université Saint-Joseph.
- Al Naamani, Z., Ghandour, L. A., & Hamadeh, G. (2016). Psychological distress among patients receiving chronic hemodialysis: Prevalence and correlates. International Journal of Nephrology and Renovascular Disease, 9(1), 45–53.
- Azzam, I. ; Jalkh, C. (2005). Etude comparative de l'effet de l'hémodialyse et de la transplantation rénale sur la qualité de vie. Mémoire de diplôme d'études supérieures spécialisés, Université Libanaise, Fanar.
- Bair, M. J., Robinson, R. L., Katon, W., & Kroenke, K. (2003). Depression and pain comorbidity: A literature review. Archives of Internal Medicine, 163(20), 2433–2445.
- Bernardy, K., Füber, N., Köllner, V., & Häuser, W. (2013). Efficacy of cognitive-behavioral therapies in fibromyalgia syndrome: A systematic review and meta-analysis of randomized controlled trials. The Journal of Rheumatology, 40(11), 1997–2005.

• Busch, A. J., Schachter, C. L., Overend, T. J., Peloso, P. M., & Barber, K. A. (2011). Exercise for fibromyalgia: A systematic review. The Journal of Rheumatology, 35(6), 1130–1144.
• Cinar, S., Karadakovan, A., & Özyürek, P. (2009). Effect of nursing education on stress and coping strategies of hemodialysis patients. Journal of Clinical Nursing, 18(15), 2103–2111.
• Clauw, D. J. (2014). Fibromyalgia: A clinical review. JAMA, 311(15), 1547–1555.
• Curtin, R. B., Mapes, D. L., & Petillo, M. (2002). Long-term dialysis survivors: A transformational experience. Qualitative Health Research, 12(5), 609–624.
• El Khoury, M., Atallah, R., & Nassar, R. (2020). Coping strategies among Lebanese dialysis patients: Cultural influences and health outcomes. Middle East Journal of Nursing, 14(2), 45–54.
• Folkman, S., & Moskowitz, J. T. (2004). Coping: Pitfalls and promise. Annual Review of Psychology, 55, 745–774.
• Gerogianni, G., & Babatsikou, F. (2014). Psychological aspects in chronic renal failure. Health Science Journal, 8(2), 205–214.
• Häuser, W., Ablin, J., Fitzcharles, M. A., Littlejohn, G., Luciano, J. V., Usui, C., & Walitt, B. (2015). Fibromyalgia. Nature Reviews Disease Primers, 1(1), 15022.
• Hill, N. R., Fatoba, S. T., Oke, J. L., Hirst, J. A., O'Callaghan, C. A., Lasserson, D. S., & Hobbs, F. D. R. (2016). Global prevalence of chronic kidney disease – A systematic review and meta-analysis. PLoS ONE, 11(7), e0158765.
• Kauric-Klein, Z. (2013). Depression and quality of life in patients with chronic kidney disease: The role of psychosocial factors. Nephrology Nursing Journal, 40(4), 335–342.
• Lazarus, R. S., & Folkman, S. (1984). Stress, appraisal, and coping. Springer.
• Liu, H., Liu, H., & Wu, W. (2018). The psychological impact of hemodialysis on patients with chronic renal failure. Journal of Psychosomatic Research, 110(1), 47–53.
• McBeth, J., & Jones, K. (2007). Epidemiology of chronic musculoskeletal pain. Best Practice & Research Clinical Rheumatology, 21(3), 403–425.
• Mok, E., Tam, B., & Chan, F. (2019). The burden of chronic kidney disease and hemodialysis in Asia: A regional perspective. Asia-Pacific Journal of Nephrology, 23(3), 172–180.
• Shahrokhi, Z., Abedi, H. A., & Alimohammadi, N. (2014). Stressors and coping strategies in hemodialysis patients: A qualitative study. Iranian Journal of Nursing and Midwifery Research, 19(2), 195–202.
• Smith, S. B., Maixner, D. W., Fillingim, R. B., Slade, G. D., & Maixner, W. (2012). Large candidate gene association study reveals genetic risk factors and therapeutic targets for fibromyalgia. Arthritis & Rheumatism, 64(2), 584–593.
• Tsay, S. L., & Healstead, M. (2002). Self-care self-efficacy, depression, and quality

of life among patients receiving hemodialysis in Taiwan. International Journal of Nursing Studies, 39(3), 245–251.

• World Health Organization. (2017). Depression and other common mental disorders: Global health estimates. WHO Press.

• Yunus, M. B. (2012). Gender differences in fibromyalgia and other related syndromes. The Journal of Gender-Specific Medicine, 9(1), 42–47.

Développement de l'auto-perception chez les femmes adultes victimes de l'inceste au sein de l'organisation ABAAD

Dr Janine Ziade Abou Tacca

دكتورة في علم النفس
واستاذة محاضرة في
الجامعة اللبنانية
اختصاصي في علم
النفس العيادي

Résumé

Cette recherche a pour objectif de mesurer les changements dans l'auto-perception des participantes à travers l'application d'une intervention psychosociale combinant des techniques de la Thérapie Cognitivo-Comportementale (TCC).

L'échantillon de l'étude a été constitué de sept femmes victimes d'inceste, âgées de 20 à 40 ans, issues de différents contextes sociaux et culturels. L'intervention, d'une durée de 10 semaines, a combiné des séances ciblant l'expression verbale liée à l'expérience traumatique d'une part et l'expression non verbale du vécu traumatique d'une autre part.

Les participantes ont rapporté une amélioration de l'estime de soi et une perception plus positive de leur image corporelle et émotionnelle. Ces changements ont été mesurés à travers la passation de l'échelle « Self perception Profile for Adults » avant et après l'intervention. Avant l'intervention, les participantes ont montré des niveaux négatifs élevés de perception d'elles-mêmes (Score Moyen =14.5%). En revanche, les résultats ont montré des changements significatifs après l'intervention (Score Moyen = 15.28%).

Cette étude a démontré l'efficacité de l'association de la TCC pour améliorer l'auto-perception des femmes victimes d'inceste au Liban, leur permettant ainsi de renforcer leur résilience.

Mots clés: Inceste, Traumatisme, Auto-perception, Intervention psychosociale et Résilience

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى قياس التغيّرات في الإدراك الذاتي للمشاركات من خلال تطبيق تدخّل نفسي اجتماعي يجمع بين العلاج السلوكي المعرفي (TCC) والعلاج بالفن.

تكوّنت عيّنة الدراسة من سبع نساء ضحايا الاعتداء الجنسي ، تتراوح أعمارهنّ بين 20 و 40 عامًا، من خلفيّات اجتماعيّة وثقافيّة متنوّعة. استمر التدخّل لمدة 10أسبوعًا، واشتمل على جلسات تستهدف التعبير اللّفظي المتعلّق بالتجربة الصادمة من جهة، والتعبير غير اللّفظي عن التجربة الصادمة من جهة أخرى.

أفادت المشاركات بتحسّن في تقدير الذّات وبتصوّر أكثر إيجابيّة لصورتهنّ الجسديّة والعاطفيّة. تمّ قياس هذه التغيّرات من خلال استخدام مقياس "Self–Perception Profile for Adults" قبل وبعد التدخّل. قبل التدخّل، أظهرت المشاركات مستويات عالية من الإدراك السلبي تجاه أنفسهنّ، حيث أظهرت النتائج أن (المتوسط الحسابي= 14.5%) كان لديهنّ تصوّر سلبي مرتفع عن أنفسهنّ. ومع ذلك، أظهرت النتائج تغييرات كبيرة بعد التدخّل(المتوسط الحسابي= 15.28%).

أثبتت هذه الدراسة فعاليّة الجمع بين العلاج السلوكي المعرفي والعلاج بالفنّ في تحسين الإدراك الذاتيّ للنّساء ضحايا الاعتداء الجنسيّ في لبنان، مما يمكنهنّ من تعزيز مرونتهنّ النفسية.

الكلمات المفتاحية: الاعتداء الجنسيّ، الصدمة، الإدراك الذاتيّ، التدخّل ٱلنفسي الاجتماعي، والمرونة.

1. Introduction :

Le Liban traverse depuis plusieurs années une série de crises économiques, politiques et sociales, auxquelles se sont ajoutés l'explosion du port de Beyrouth en 2020 et la pandémie de COVID-19. Dans ce contexte fragilisé, les femmes se trouvent particulièrement vulnérables, notamment celles victimes d'inceste, dont les souffrances psychologiques restent largement invisibilisées en raison des tabous culturels, du silence familial et du manque de soutien institutionnel. Cette étude vise à explorer les mécanismes d'auto-perception chez les femmes vivant au Liban ayant subi l'inceste, ainsi qu'à évaluer l'impact d'interventions thérapeutiques ciblées destinées à renforcer leur estime de soi, leur résilience et leur processus de reconstruction identitaire.

À travers une approche interdisciplinaire mobilisant la psychologie clinique, la sociologie et les études de genre, la recherche s'appuie sur des entretiens approfondis permettant d'analyser des phénomènes tels que la dissociation, l'intériorisation de la honte, l'isolement social et la remise en question de soi. L'ancrage socioculturel libanais — marqué par l'importance de l'honneur familial, des normes patriarcales et des rôles traditionnels de genre — constitue un élément central dans la compréhension de l'expérience subjective des victimes et de leur capacité à demander de l'aide.
L'étude examine également les formes de soutien disponibles au Liban, qu'elles soient informelles ou institutionnelles, ainsi que leur efficacité dans l'amélioration de l'auto-perception et de la résilience des femmes victimes d'inceste. Les résultats mettent en lumière les obstacles majeurs rencontrés par ces femmes, notamment la perte de confiance envers le milieu familial, l'absence de ressources psychologiques accessibles et la peur de la stigmatisation. Cette recherche propose enfin des pistes d'accompagnement thérapeutique adaptées au contexte libanais, soulignant la nécessité de programmes sensibles au trauma et à la culture, visant à restaurer l'estime de soi et à favoriser la reconstruction psychologique et sociale des victimes.

2. Les questions de la recherche

Les questions qui se posent sont les suivantes :

- Quelles sont les représentations sociales de l'inceste dans la société libanaise?
- Quels sont les facteurs socioculturels qui influencent l'auto-perception des femmes durant leur accompagnement ?
- Comment les femmes adultes victimes d'inceste perçoivent-elles l'impact de cet évènement sur leur identité ?
- Quelles stratégies d'intervention peuvent être mises en place pour favoriser l'auto-perception chez les femmes en tenant compte des obstacles rencontrés?
- Quels sont les indicateurs les plus pertinents pour évaluer l'efficacité de l'intervention mise en place ?

3. Le champ de recherche

ABAAD est une organisation accréditée par l'ECOSOC de l'ONU, œuvrant pour l'égalité des genres comme condition clé du développement durable dans la région MENA. Elle se distingue par ses approches innovantes pour lutter contre les masculinités hégémoniques et la violence envers les femmes, et

soutient les politiques publiques en faveur de l'inclusion des femmes. Depuis 2012, ABAAD co-préside le Groupe Technique National pour la lutte contre la violence basée sur le genre au Liban. L'organisation adopte une approche holistique pour fournir des services de protection et de soutien aux survivantes, tout en renforçant les capacités des acteurs locaux et internationaux dans des domaines tels que la gestion de cas, la santé sexuelle et reproductive, et le soutien psychosocial. Son programme "Masculinité" engage activement les hommes dans le changement des normes sociales et la promotion de l'égalité des genres.

4. L'importance du sujet de recherche

L'importance de la recherche se situe à la fois sur le plan scientifique et pratique.
L'importance scientifique :

• La recherche actuelle tire son importance de la catégorie de personnes qu'elle cible, à savoir les femmes victimes d'inceste, un groupe vulnérable qui nécessite un soutien et un suivi constants pour améliorer leur qualité de vie, leur interaction avec la société, et leur capacité à se reconstruire.

• Cette recherche constitue une contribution nouvelle dans les domaines de la psychologie, du travail social et de l'éducation, en apportant des perspectives inédites sur le soutien des femmes victimes d'inceste.

• Elle fournit une base théorique pour l'efficacité des programmes existants ou à venir, visant à soutenir ces femmes, en s'appuyant sur des approches thérapeutiques adaptées à leur situation. La recherche permet également de fournir des indicateurs quantitatifs concernant le niveau de dépression chez les femmes victimes d'inceste, ainsi que les facteurs influençant ce phénomène.

L'importance pratique :

• La recherche offre aux professionnels du secteur des informations précieuses sur le niveau de dépression chez les femmes victimes d'inceste, afin de développer des programmes d'accompagnement spécifiquement adaptés à leurs besoins.

• Elle propose des solutions concrètes au problème posé, notamment par l'utilisation de techniques thérapeutiques fondées sur la TCC, qui peuvent aider ces femmes à atténuer les symptômes de la dépression et réintégration dans la société.

5. Les objectifs de la recherche

Dans des contextes socio-économiques fragiles, comme celui du Liban, les conséquences de l'inceste sont exacerbées par des facteurs sociaux, économiques et culturels. Les crises économiques récurrentes et les conflits armés ont entraîné une désintégration des repères familiaux et moraux, éliminant les frontières au sein des unités familiales et augmentant la vulnérabilité aux abus sexuels intrafamiliaux.

Ces dynamiques sociales modifient non seulement les comportements individuels, mais favorisent également la transmission intergénérationnelle de l'inceste, souvent dissimulé sous des comportements et croyances culturelles profondément ancrées.

L'objectif principal de cette recherche est de comprendre comment l'inceste perturbe le développement psychologique des victimes et de déterminer la manière dont cette perturbation influence leurs relations avec l'autre ou le même sexe et leur capacité à mettre leurs maux sur des mots (Dolto F., 1984).

En exposant l'impact profond de l'inceste sur l'estime de soi et l'identité, cette étude permettrait de mieux comprendre les défis uniques rencontrés par ces femmes dans un contexte culturel où la violence intrafamiliale est souvent ignorée ou minimisée. En impliquant directement les victimes dans le processus de recherche, les objectifs préliminaires seront de développer de la manière suivante :

- Mettre la lumière sur la nouveauté proposée de ce thème à travers notre programme proposé malgré toutes les recherches contemporaines réalisées dans notre société
- Donner la chance aux personnes ayant subi un évènement sexuel traumatisant de pouvoir partager leurs histoires.
- Focaliser sur une intervention adaptée à partir de laquelle nous allons utiliser les techniques de la TCC afin de favoriser la reconstruction personnelle, la dignité et la réintégration dans la société des femmes visitant le centre ABAAD.
- Développer un programme standardisé pour l'association afin de guider les futures interventions d'une manière plus efficace.
- Contribuer à sensibiliser la société libanaise et à promouvoir des réformes nécessaires pour mieux soutenir les victimes d'inceste et prévenir de futurs abus.

6. Le type de la recherche-action

Une recherche-action est une méthode qui vise à comprendre un phénomène ou une situation liée à des problèmes contemporains, dans un contexte spécifique. Ce type de recherche s'effectue selon :

● La nature de la participation sur le terrain : La recherche s'inscrit dans une démarche de recherche-action participative, menée en collaboration avec les intervenants sociaux, psychologues et responsables de l'organisation ABAAD.

● Les motifs du programme : Cette approche relève d'une recherche-action interactive, car elle cherche à résoudre un problème concret et urgent ; l'amélioration de l'auto-perception des femmes victimes, tout en impliquant directement les parties prenantes dans l'élaboration et l'évaluation des solutions proposées, afin de minimiser les effets psychologiques négatifs liés à leur vécu.

7. La communauté de la recherche

L'échantillon est composé de 7 femmes bénéficiant des services de l'organisation ABAAD. Ces femmes sont de nationalité libanaise, âgées entre 20 et 40 ans. La communauté de recherche s'étend également aux professionnels de cette organisation, notamment, les responsables du centre, les assistants sociaux et la psychologue, impliqués dans la prise en charge des femmes.

8. Les outils et les instruments de mesure

Cette recherche vise à développer l'auto-perception des femmes adultes victimes d'inceste au Liban en explorant l'évolution et le changement de leur perception de soi tout au long de notre intervention. Les outils utilisés pour collecter les données sont complémentaires.

● L'observation participante directe
● Les entretiens individuels semi-structurés
● Questionnaire d'évaluation du traumatisme
● L'échelle « Self perception Profile for Adults
● Techniques de TCC :

La TCC est une thérapie brève et structurée, basée sur l'interconnexion des pensées (cognitions), émotions et comportements. Selon cette thérapie, les difficultés psychologiques sont à l'origine des schémas dysfonctionnels.

La TCC nécessite dans une première étape, l'identification de ces schémas, dans une deuxième étape la modification des pensées erronées et à la fin le soulagement les souffrances qui y sont induites. Destechniques concrètes sont utilisées en fonction des symptômes présentés par le patient.
Nous avons choisi des techniques spécifiques de la thérapie comme outils pour aboutir à notre objectif principal.

9. L'éthique de travail
L'éthique de la recherche joue un rôle primordial, compte tenu de la sensibilité du sujet et de la vulnérabilité des participantes. Voici les principes éthiques qui guideront cette étude :
- Respect des principes éthiques professionnels
- Confidentialité et respect de la vie privée
- Consentement éclairé
- Liberté de participation et de retrait
- Respect mutuel et non-discrimination
- Limitation de l'intervention dans la gestion institutionnelle
- Transparence et coopération

10. Définition des concepts
Nous allons définir dans cette section, à la fois les concepts clés de notre étude et les modalités de leur mise en œuvre.

a) Inceste :
L'inceste désigne toute forme de relation sexuelle ou d'abus sexuel entre des membres d'une même famille ou des personnes ayant un lien de proximité très proche, que ce soit entre un parent et un enfant, entre frères et sœurs, ou entre d'autres membres du cercle familial. Il est souvent caractérisé par un abus de pouvoir, un secret et une violation de la confiance, et constitue un crime grave dans de nombreuses sociétés.

Dans le cadre de cette thèse, l'inceste est abordé comme un phénomène qui affecte profondément l'individu, en particulier lorsqu'il est vécu par des femmes. Ce traumatisme sexuel, souvent silencieux et tabou, a des conséquences à long terme sur la santé mentale et émotionnelle des victimes.

b) Traumatisme :
Le traumatisme fait référence à une expérience émotionnellement perturbante qui perturbe profondément le bien-être psychologique d'un individu. Il peut être causé par un événement unique ou récurrent, tel qu'une agression physique ou sexuelle, qui engendre des conséquences durables, telles que l'anxiété, la dépression, ou des troubles de stress post-traumatique (TSPT).

Le traumatisme subi par les femmes victimes d'inceste est souvent multidimensionnel, affectant leur santé mentale, leurs relations interpersonnelles et leur perception d'elles-mêmes. Le traumatisme peut entraîner des sentiments de honte, de culpabilité, d'impuissance et une altération de l'image de soi.

c) Auto-perception :
L'auto-perception désigne la manière dont une personne se voit elle-même, y compris ses sentiments, croyances et jugements sur son propre corps, ses capacités et sa valeur personnelle. Cela inclut l'image que l'on a de soi et la façon dont cette image est influencée par des expériences passées, telles que les abus ou les traumatismes.

Dans le contexte des femmes victimes d'inceste, l'auto-perception est souvent altérée par les événements traumatiques vécus. Ces femmes peuvent développer une image déformée de leur propre identité, se sentant souvent coupables, honteuses ou indignes.

d) Intervention psychosociale :
Une intervention psychosociale désigne un ensemble d'actions menées par des professionnels de la santé mentale et du travail social pour accompagner une personne ou un groupe face à des difficultés émotionnelles, sociales ou psychologiques. Ces interventions peuvent inclure des thérapies individuelles, des groupes de soutien, des ateliers d'estime de soi, et d'autres formes de soutien psychologique ou social.
Dans cette thèse, l'intervention psychosociale est un élément central pour soutenir les femmes victimes d'inceste. Ces interventions à base comportemental cognitif et artistique, ont visé à traiter les effets du traumatisme, à améliorer l'estime de soi et à aider à la réintégration sociale.

e) Résilience :

La résilience permet aux femmes victimes d'inceste de surmonter le traumatisme grâce à leurs ressources personnelles, au soutien social et aux interventions thérapeutiques. L'inceste, phénomène psychologique, social et juridique, provoque des blessures profondes : altération de l'identité, de l'attachement, de l'estime de soi et développement de honte, culpabilité et dissociation.

Malgré ces impacts, la reconstruction est possible à travers la sécurité, la parole, la TCC et un accompagnement adapté, permettant de restaurer l'auto-perception et amorcer un processus de guérison.

11. Les études précédentes

Afin de mieux comprendre le contexte de cette recherche, il convient de revenir sur les travaux locales, arabes et mondiales antérieurs qui nous ont permis de poser les bases théoriques et méthodologiques de notre étude actuelle. Voici quelques études :

A. النساء الباحثات في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا : دراسة تحليلية (2022)

Cette étude bibliométrique a révélé que la parité entre les sexes dans la recherche scientifique est loin d'être atteinte dans la région MENA. Les femmes sont moins représentées, moins productives et accèdent plus lentement aux positions de leadership en recherche. Cependant, des pays comme la Tunisie, le Liban, l'Algérie et l'Égypte montrent une meilleure représentation des femmes dans la recherche.

B. دور البيئة المدرسية في تعزيز القيم الأخلاقية لدى الطلاب في المرحلة المتوسطة (2021)

Cette recherche a montré que l'environnement scolaire joue un rôle crucial dans la promotion des valeurs éthiques chez les élèves du secondaire. Les enseignants et le personnel éducatif sont identifiés comme des modèles importants dans la transmission de ces valeurs.

C. Le processus de dévoilement de l'inceste par le sujet victime : le défi de la symbolisation (2020)

Diane SALOMON. Thèse de doctorat en psychologie. Université Paris Cité. 2020 : Le silence entourant l'inceste maintient les victimes dans un isolement profond. Cet acte est souvent caché au sein des familles et crée un climat de silence et de complicité qui rend difficile pour les victimes de parler. Cette

recherche explore le processus de révélation de l'inceste, en se concentrant sur les mécanismes psychiques et intersubjectifs qui y sont à l'œuvre. Cette thèse postule que la rencontre avec un tires porte-parole (un thérapeute, un ami de confiance) joue un rôle crucial dans la capacité de la victime à symboliser son traumatisme, à rompre le silence et de se libérer de l'emprise familiale. L'analyse de témoignages de 11 victimes d'inceste soutient cette hypothèse, suggérant que le dévoilement de l'inceste est un processus complexe qui implique une rupture avec l'alliance familiale et une reconstruction identitaire.

D. Incest and Sexuality : The Politics of the Family

Timothy J. R. R. Keegan. Etats Unis. 1992. Dans cette étude, Keegan examine l'inceste à travers une analyse sociale et juridique des lois et des normes familiales en Occident, en se concentrant sur la manière dont l'inceste est perçu et traité dans les sociétés occidentales modernes. L'étude explore aussi les dynamiques psychologiques et les conséquences sociales pour les femmes victimes d'inceste dans des contextes familiaux occidentaux. Keegan analyse comment les tabous culturels, les récits populaires et les réformes législatives influencent la compréhension de ce phénomène, tout en examinant les différences dans la manière dont l'inceste est perçu dans les familles bourgeoises comparées à celles des classes populaires.

La méthodologie de la recherche :

12. Les participants en général

La population cible de cette recherche est constituée des femmes victimes d'inceste âgées de 20 à 40 ans, ainsi que les professionnels impliqués dans l'intervention que nous citons ci-dessous :

- L'assistante sociale : qui a collecté les informations personnelles des participantes à travers des contacts téléphoniques et à la préparation des outils nécessaires à notre travail dans la salle de l'association. Elle a aussi participé à la première phase de la démarche du programme.
- La psychologue : qui a établi les entretiens préliminaires en ligne pour recruter les participantes éligibles à notre programme. Sa participation a été essentielle dans l'établissement de la confiance chez les participantes. Sa présence a assuré un environnement sécurisant et apaisant tout au long du déroulement de notre intervention. Par la suite, elle a assisté à l'entretien individuel en présentiel au sein du centre afin de prendre le consentement.

Cette collaboration pertinente a contribué à la réussite d'un travail coopératif et un support solide aux participants de cette recherche.

A. Les participants bénéficiaires ou ciblés
L'échantillon de recherche est composé de sept femmes victimes d'inceste, accompagnées au sein de l'association pendant la durée de l'étude.

B. Le problème ciblé
Les femmes victimes d'inceste sont souvent disposées à de grandes difficultés sociales et personnelles, entravant leur capacité à partager leur vécu traumatisant. Durant le parcours universitaire, nous avons identifié les problèmes rencontrés par ces femmes au sein du centre. La collaboration entre l'étudiante d'un côté et la psychologue et l'assistance sociale d'un autre coté a facilité l'accès aux informations nécessaires par des entretiens préliminaires établis en ligne et en présentiel.

Suite à nos visites régulières, un accompagnement psychosocial destiné à ses femmes est alors nécessaire vu l'abstention aux services mentaux. Cette intervention participative a pour but d'éclairer la problématique d'abus sexuel souvent dissimulée.

13. Le plan
La planification de l'intervention dans cette recherche s'est caractérisée par sa flexibilité, sa mesurabilité et sa capacité à s'adapter aux besoins des participantes. Elle a suivi un processus cyclique, débutant par l'élaboration de propositions pour définir un plan d'action adapté à la problématique, puis la mise en œuvre de l'intervention. Une fois l'intervention réalisée, les résultats sont analysés et évalués, permettant d'ajuster le plan d'action en fonction des besoins et des évolutions observées au cours du processus. Cette approche a garanti une amélioration progressive de l'intervention en réponse aux défis spécifiques rencontrés par les participantes.

13.1 Énoncé de la problématique
Après avoir obtenu l'autorisation de la direction de l'association ABAAD pour mener cette recherche, nous avons observé et identifié chez les femmes victimes d'inceste plusieurs manifestations (se référer à la page 5, « questions

de la recherche ») parmi lesquelles nous citons :
- Tristesse persistante
- Isolement social
- Difficultés de communication
- Troubles du sommeil
- Anxiété et peur
- Sentiments de culpabilité et de honte
- Isolement social
- Troubles de l'humeur
- Cauchemars et flashbacks
- Hypervigilance
- Troubles alimentaires
- Troubles du sommeil
- Sentiments d'impuissance et de désespoir
- Problèmes relationnels
- Dépendance aux substances
- Problèmes de concentration et de mémoire

Afin de confirmer la présence d'une symptomatologie d'une faible auto-perception, nous avons administrél'échelle SPPA aux 7 femmes. Les résultats, présentés dans le tableau ci-dessous, révèlent le score du profil psychologique des femmes avant l'intervention.

Résultats dev l'échelle avant l'intervention :

Participante	Âge	Résultat
1	22	113
2	24	142
3	33	143
4	40	125
5	24	132
6	40	126
7	27	158

En se basant sur les résultats requis dans le tableau précèdent nous allons procéder dans l'interprétation approfondie de ces données de manière qualitative d'une part et quantitative d'une autre part.

13.2. Interprétation des données

Les résultats obtenus à l'aide de l'échelle SPPA (Self-Perception Profile for Adults) révèlent des scores significativement inférieurs aux seuils normatifs établis lors de la validation de l'outil. Les participantes présentent notamment des niveaux faibles dans les dimensions de l'estime de soi globale, de l'image corporelle et de la compétence sociale.

En référence aux seuils de validation de l'échelle, les scores observés dans notre échantillon se situent au-dessous du score moyen attendu (M = 142.34, SD = 26.056). Cette différence statistiquement et cliniquement confirme la nécessité de mettre en œuvre un programme d'intervention thérapeutique, spécifiquement orienté vers le développement de l'auto-perception, la reconstruction de l'estime de soi, et la régulation des affects négatifs associés à l'image de soi.

Programme s'est déroulé sur 10 séances répartis une séance par semaine de durée à peu près 1h :00 à 1h :30 minutes. Les étapes se sont succédé comme suite :

Séance 1 : introduction du programme

Séance 2 : identification des pensées automatiques négatives liées aux situations sociales.

Séance 3 : gestion des émotions

Séance 4 : exposition graduée

Séance 5 : affirmation de soi

Séance 6 : renforcement de l'estime de soi

Séance 7 : entraînement aux habiletés sociales

Séance 8 : consolidation des acquis

Séance 9 : prévention des rechutes et élaboration d'un plan d'action séance 10 : bilan et clôture

13.3. Évaluation des résultats

Les séances du programme combinant des techniques de TCC ont été mises en œuvre au sein de l'institution ABAAD, dans le cadre de la recherche actuelle. Ce projet a été réalisé en coordination avec le superviseur de la thèse, la psychologue et l'assistante sociale. Après avoir appliqué l'observation participante directe et les entretiens semi-structurés, nous avons mis en œuvre la passation du questionnaire PCL-C. Les résultats primaires obtenus ont

montré la nécessité de mener cette intervention avec les participantes. Nous allons présenter les résultats dans le tableau suivant.

Tableau : Résultats préliminaires du questionnaire PCL-C

Cas No. De question	A	B	C	D	E	F	H
1	5	4	4	3	5	4	4
2	5	4	4	4	4	4	3
3	2	4	3	4	3	2	4
4	4	4	4	4	4	4	4
5	3	4	3	3	3	5	4
6	4	4	4	4	4	4	5
7	3	3	3	3	3	4	3
8	3	2	5	3	3	3	3
9	2	2	3	2	2	2	2
10	5	4	2	3	2	2	3
11	4	3	2	3	4	4	2
12	4	4	4	4	4	5	4
13	3	4	3	4	4	4	5
14	3	4	4	3	4	3	4
15	3	3	3	3	3	2	2
16	3	5	4	4	4	4	5
17	3	4	3	3	3	3	4
Total	59	62	58	57	59	59	61

Les résultats de ce questionnaire ont montré un score supérieur à 45, représentant le score seuil, Cela signifie que les participantes ont présenté des symptômes probables d'un TSPT. D'où, l'importance de la présentation de l'évolution des perceptions avant et après le déroulement des séances.

Dans cette même perceptive, nous allons présenter les résultats totaux de l'échelle SPPA, détaillés avant et après l'intervention.

Cas	Résultat initial	Résultat finale	Écart	Pourcentage (%)
1	113	117	1.15	0.14
2	142	143	1.03	0.035
3	143	145	1.15	0.14
4	125	128	1.23	0.21
5	132	134	1.15	0.14
6	126	132	1.52	0.42
7	158	160	1.15	0.14
Total	939	959	4.05	1.4

Nous pouvons distinguer du tableau ci-dessus, que la majorité des participantes ont obtenu de résultats finaux optimaux, comparés aux résultats initiaux enregistrés au début de notre programme. Ce progrès raisonnable est visible vu le changement positif de l'écart type avant et après l'intervention.

Notre plan d'intervention a été conçu pour s'adapter aux caractéristiques de chaque participant, avec des objectifs opérationnels clairs visant à améliorer leur auto-perception et à renforcer leur résilience.

Les séances ont été marquées par une interaction positive, une coopération active et une participation sérieuse de toutes les participantes malgré certaines résistances observées lors des discussions abordant des sujets liés à la sexualité.

Le changement des manifestations a varié selon le thème de la séance. Ce témoignage nous a permis d'accentuer sur les expressions émotionnelles et comportementales face aux thèmes abordés et adaptés aux difficultés confrontées par les participantes.

Le processus a permis de favoriser un environnement sécurisé et propice à l'expression personnelle, tout en encourageant le développement de stratégies d'adaptation. Nous avons partagé les données recueillies et effectué des évaluations régulières avec la psychologue, afin de suivre les progrès et d'ajuster les interventions selon les besoins émergents.

Rappelons que l'objectif principal de notre étude a visé à développer positivement l'auto-perception des femmes victimes de l'inceste. Sur cette base nous avons constaté que :

• Chaque participante a pu développer une compétence individualisée d'échange avec autrui, d'évolution personnelle positive et une meilleure expression des ressentis
• Les manifestations présentées ci-dessus ont montré une amélioration des stratégies requises avant et après l'intervention

Ensuite, les objectifs secondaires qui en découlent seront :
• Identification des facteurs déclencheurs de leurs émotions négatives ressenties
• Développement des compétences personnalisées relationnelles et à demander l'aide
• Encouragement aux communications ouvertes et à l'écoute active
• Utilisation des techniques proposées de notre programme comme la journalisation, le dessin de nuage, le carnet de bord, mon portrait, l'auto-observation de mes émotions

A la fin du programme, les participantes seront capables :
• De demander de l'aide
• De Partager leurs histoires sans hésitation
• D'être ouverte à la communication et à l'écoute
• De maîtriser et gérer leur émotion face à des situations stressantes
• D'utiliser les techniques de relaxation
• De se valoriser objectivement
• De développer un sentiment empathique et l'habileté à aider autrui

Après avoir représentés tous les résultats approfondis selon les domaines de l'échelle SPPA, nous allons expliquer dans la partie suivante comment cela a été traduit sur le terrain.

14. Interprétation des résultats :
L'analyse des résultats repose sur la comparaison des scores avant et après l'intervention, mesurant plusieurs dimensions psychosociales. Les résultats montrent qu'il y a des variations globalement positives, sauf pour le sens de l'humour, qui diminue légèrement. Cette baisse s'explique par la profondeur du travail émotionnel effectué, amenant les participantes à revisiter des aspects douloureux de leur histoire. Les différences individuelles, les caractéristiques

de personnalité et le contexte socioculturel influencent également cette auto-évaluation. Ainsi, les résultats reflètent un processus d'évolution psychologique où l'auto-perception se transforme au fil du travail thérapeutique.

14.1. Révision préliminaire :

L'intervention menée auprès des bénéficiaires d'ABAAD a rencontré plusieurs défis liés au caractère tabou de l'inceste, rendant difficile l'engagement initial et la création d'un climat de confiance. Les contacts téléphoniques répétés, les obstacles logistiques et la peur du jugement ont nécessité un important travail de clarification et de sécurisation du cadre. Au fil des séances, soutenues par l'observation, les entretiens semi-structurés et les outils de la TCC, la participation est devenue plus fluide. Les participantes présentaient initialement une auto-perception altérée se manifestant par l'isolement, la honte, la faible estime de soi, l'hyper vigilance et diverses difficultés émotionnelles et relationnelles. L'intervention a permis de réduire progressivement ces résistances et d'ouvrir un espace d'expression plus authentique.

Tableau : Les scores totaux de l'intervention

	Avant	Après
Le score total	113	117
	142	143
	143	145
	125	128
	132	134
	126	132
	158	160

Lors des premières séances, nous avons administré l'échelle de l'auto-perception ("Self-Perception Profile for Adults") développée par Harter. Cet outil évalue douze dimensions spécifiques de la perception de soi, permettant ainsi d'obtenir une représentation globale et nuancée de la manière dont l'individu se perçoit dans différents domaines de sa vie comme le montre les résultats dans le tableau précédent.

L'analyse des résultats issus du SPPA et du PCL-C montre une amélioration

significative de l'auto-perception après l'intervention. Le programme TCC mis en place avec la psychologue et l'assistante sociale a permis aux participantes d'acquérir des stratégies cognitives, émotionnelles et sociales favorisant un mieux-être global. Malgré les résistances initiales, les séances ont amélioré la gestion des émotions, réduit le stress et renforcé les compétences relationnelles. L'implication active des participantes et la coopération des professionnels du centre ont assuré la réussite du programme, qui a répondu aux objectifs de la recherche et confirmé son efficacité.

15. Recommandations

Le présent travail de recherche a conduit à plusieurs propositions et recommandations qui ouvrent des perspectives pour de futures études et de nouvelles approches afin de mieux comprendre l'auto-perception des femmes victimes d'inceste au Liban et les variables influençant cette perception. Ces propositions sont les suivantes :

1. Recommandations pour les institutions :

- La nécessité d'intégrer spécifiquement les femmes victimes d'inceste dans les projets proposés par les institutions de soutien.
- Élaborer et appliquer des programmes prenant en compte les dimensions psychologiques, émotionnelles, sociales et physiques des femmes victimes d'inceste.
- Encourager les femmes victimes d'inceste à participer à diverses activités qui favorisent leur réintégration sociale et leur bien-être psychologique.
- Organiser des ateliers en collaboration avec d'autres associations afin de sensibiliser la communauté à la prise en charge des femmes victimes d'inceste.
- Coopérer avec le ministère de la Santé libanais pour organiser des séminaires de sensibilisation à la problématique de l'inceste et de ses conséquences.

2. Recommandations pour les femmes victimes d'inceste :

- Participer à des formations axées sur la santé mentale pour mieux comprendre et gérer les impacts psychologiques de l'inceste.
- Suivre des programmes d'accompagnement spécialisés pour le soutien post-traumatique et la réhabilitation.
- S'engager dans des activités sportives ou récréatives régulières pour favoriser la reconstruction de l'estime de soi et l'intégration sociale.

3. Recommandations pour la recherche :

- Élaborer des projets similaires destinés à d'autres associations et institutions qui soutiennent les femmes victimes d'inceste, en mettant l'accent sur un financement adéquat et des stratégies adaptées.
- Mener des études sur les troubles psychologiques rencontrés par les femmes victimes d'inceste, afin de mieux comprendre leurs besoins spécifiques.
- Organiser des ateliers de sensibilisation à destination des familles et des communautés pour améliorer la prise en charge et la reconnaissance des victimes d'inceste.
- Les résultats de cette recherche pourraient également ouvrir la voie à des études futures concernant les processus de guérison et de renforcement de l'auto-perception chez les victimes d'inceste.

Ainsi, ces recommandations ont pour but de stimuler une prise en charge plus inclusive et adaptée pour ces femmes, et d'encourager la poursuite des recherches sur cette question essentielle pour leur réhabilitation.

Conclusion :

Cette recherche met en lumière l'importance de renforcer l'auto-perception chez les femmes victimes d'inceste au Liban, un sujet encore tabou et peu étudié. En utilisant des techniques de TCC et l'échelle SPPA, l'intervention a montré des améliorations positives, bien que modestes, dans la perception de soi des participantes.

L'étude souligne la nécessité d'un soutien psychologique continu, adapté au contexte culturel, et ouvre la voie à des programmes plus longs et plus structurés. Elle met aussi en évidence les obstacles sociaux et institutionnels qui entourent l'inceste et appelle à un engagement collectif pour offrir aux victimes un accompagnement durable, respectueux et inclusif.

Bibliographies

Ouvrages en français

1. André, C., & Lelord, F. (2011). L'estime de soi: s'aimer pour mieux vivre avec les autres. O. Jacob.
2. Chalvin, M.-J. (2016). L'estime de soi : Apprendre à s'aimer avec ou sans les autres. Eyrolles.
3. Dolto, F. (1984). La cause des enfants. Éditions du Seuil.
4. Hajj, N. (2013). Le trauma psychologique chez les femmes victimes d'inceste en Égypte. Université du Caire.
5. Lespine, M. (2018). Mémoire de psychologie.Université de Paris Lyon.

6. Lévi-Strauss, C. (1949). Les structures élémentaires de la parenté. Presses Universitaires de France.
7. Lundberg, P. (2018). Thérapie par l'art et transformation personnelle : Approches créatives pour le soutien des victimes de traumatismes.Editions du Bien-être.
8. Merleau-Ponty, M. (1945). Phénoménologie de la perception. Paris : Gallimard.
9. Najm, A. (2014). La santé mentale des femmes au Liban : Défis et perspectives. Beyrouth : Editions Dar Al-Fikr.
10. Pavlov, I. (1927). Les Réflexes Conditionnés : une Investigation de l'Activité Physiologique du Cortex Cérébral. Alcan.
11. Salomon, D. (2020). Thèse de doctorat en psychologie.Université Paris Cité.
12. White, M., & Epston, D. (1990). Narrative means to therapeutic ends. New York: Norton.
13. Zuhur, N. (2020). Le trauma intergénérationnel : Impacts et guérison des victimes d'inceste au Moyen-Orient. Journal of Middle Eastern Psychology, 19(1), 87-10
14.Rita Edmond El Helou ريتا ادمون الحلو

Ouvrages en anglais

1. Ainsworth, M. D. S. (1978). The development of infant-mother attachment. In B. M. Caldwell & H. Nimkoff(Eds.), Review of child development research (Vol. 3, pp. 1–94). University of Chicago Press.
2. Ainsworth, M. D. S., Blehar, M. C., Waters, E., & Wall, S. (1978). Patterns of attachment: A psychological study of the strange situation. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.
3. Bandura, A. (1977). Self-Efficacy: Toward a UnifyingTheory of Behavioral Change. Psychological Review, 84(2), 191-215.
4. Beck, A. T. (1976). Cognitive Therapy and the Emotional Disorders. New American Library.
5. Skinner, B. F. (1974). About Behaviorism. Vintage.
6. Beck, A. T., Freeman, A., & Davis, D. D. (2004). Cognitive Therapy of Personality Disorders. Guilford Press.
7. Beebee, H. (2000). The non-metaphysical character of physical laws. In C. Hitchcock (Ed.), Contemporarydebates in philosophy of science (pp. 45–56). Blackwell Publishing.
8. Bem, D. J. (1972). The Self-Perception Theory. In L. Berkowitz (Ed.), Advances in Experimental Social Psychology (Vol. 6, pp. 1-62). Academic Press.
9. Boud, D., & Falchikov, N. (2007). Rethinkingassessment in higher education: Learning for the longer term. Routledge.
10. Festinger, L. (1954). Theory of cognitive dissonance. Stanford University Press.
11. Freud, S. (1914). On Narcissism: An Introduction. The International Journal of Psychoanalysis, 5, 73-100.

12. Guttman, L. (1945). A basis for analyzing test-retestreliability. Psychometrika, 10(4), 255–282
13. Herman, J. L. (1992). Trauma and recovery: The aftermath of violence—from domestic abuse to political terror. New York: Basic Books.
14. James, W. (1890). The principles of psychology. Henry Holt and Company
15. Kernberg, O. F. (2018). Treatment of severepersonality disorders: Resolution of aggression and recovery of eroticism. American PsychiatricPublishing.
16. Lewin, K. (1946). Action research and minorityproblems. Journal of Social Issues, 2(4), 34–46.
17. Main, M., & Solomon, J. (1990).Disorganised/disoriented attachment and caregiving. In M. T. Greenberg, D. Cicchetti, & E. M. Cummings (Eds.), Attachment in the preschool years: Theory, research, and intervention (pp. 121–160). Universityof Chicago Press.
18. Masten, A. S. (2001). Ordinary magic: Resilienceprocesses in development. American Psychologist, 56(3), 227–238.
19. McAdams, D. P. (1993). The stories we live by:Personal myths and the making of the self. William Morrow.
20. Putnam, F. W. (1997). Dissociation in children and adolescents: A developmental perspective. Guilford Press.
21. Rogers, C. (1961). On Becoming a Person: A Therapist's View of Psychotherapy. Houghton Mifflin.
22. Rogers, C. R. (1951). Client-centered therapy: Itscurrent practice, implications and theory. Constable.
23. Smith, C. (1967). The Relationship Between Self-Concept and Social Behavior. The Journal of Social Psychology, 71(2), 187-196.
25. Smith, C. A. (1967). Motivation and personalitydevelopment. Harper & Row.
26. Tajfel, H. (1974). Social identity and intergroupbehaviour. Social Science Information, 13(2), 65–93
27. Turner, J. C. (1986). The social identity theory of intergroup behaviour. In S. Worchel & W. G. Austin (Eds.), Psychology of intergroup relations (pp. 7–24). Nelson-Hall.
28. Van der Hart, O., Nijenhuis, E. R. S., & Steele, K.(2006). The haunted self: Structural dissociation and the treatment of chronic traumatization. Norton & Company.

Sitographies

1. Institut Libanais pour la Recherche et le Développement (ILRD). (2019). Les défis d'accompagnement des victimes de violence au Liban.
2. Ministère de la Santé Libanais. (2020). Les politiques de santé mentale pour les victimes de violences sexuelles.

3. Organisation Mondiale de la Santé (OMS). (2017). Traumatismes et violences sexuelles : Approches thérapeutiques pour les femmes victimes.

Ouvrages en arabe

1. أبينية، كمال. (2022). السلوكيات الإلكترونية للمتحرشين الجزائريين على شبكات التواصل الاجتماعي

2. أوشن، محمد. (2016). العنف الجنسي ضد الفتيات القاصرات في الأسر الجزائرية: دراسة لحالتين من زنا المحارم. مجلة علوم الإنسان بجامعة أم البواقي، 3(2)، 957–

3. بركالله، هيثم. (2014، 20 يناير). المجتمع: زنا المحارم، العلاقات خارج الزواج، والأطفال المتخلى عنهم في تونس. كابيتاليس.

4. توافق، سعاد. (2016). الذنب والعار لدى ضحايا زنا المحارم: دراسة حالة في الجزائر. مجلة علوم الإنسان بجامعة أم البواقي، 3(2)، 6–21.

5. جندي، ن. (2021). الاستراتيجيات النفسية للتعامل مع الآثار العاطفية للاعتداءات الجنسية في لبنان(أطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية الدولية)

6. حب الله، أ. (1998(قراءات نقدية في الفكر العربي المعاصر. دار المحجة البيضاء – دار الرسول الأكرم.

7. الدود، عبد الله، أبوخضير، نورة، الميموني، حسين، وياروش، صوفي. (2018). ضد الزواج من غرباء: تقنيات التوفيق الزوجي في السعودية

8. السعداوي، ن. (1972(المرأة والجنس. دار الآداب.

9. الشيباني، غ. (2016). العلاقات الاجتماعية وأثرها في البناء الثقافي. دار الرضوان للنشر والتوزيع

10. عبيد، م. (2019). تأثير الاعتداءات الجنسية على الصورة الذاتية: دراسة على الناجيات من الاعتداءات في لبنان. مجلة دراسات المرأة، 14، 56–34

11. عزام، ه. (2023، 15 فبراير). كيف يؤثر الاعتداء الجنسي على صورة المرأة الذاتية في لبنان؟ صحيفة الحياة.

12. محمود، إ. (2024(أالدور الإصلاحي للإعلام اللبناني: الوظائف والمقومات لمكافحة الفساد

13. الواحي، جمال، ولاريفيير، فنسنت. (2022). حول نقص الباحثات في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا